اعترافات دانتي

محمد عبدالله الترهوني

اعترافات دانتي

رواية

اعترافات دانتي

رواية

محمد عبدالله الترهوني

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية شفاء سالم

- الطبعة الأولى: 2020 م
- رقم الإيداع المحلي: 743 /2019دار الكتب الوطنية بنغازي
- الرقم الدولي الموحد: ردمك ISBN 978-9959-37-116-4

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي – ليبيا

- جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان

بنغازي - ليبيا

هاتف 061.2232104 – محمول 091.2090770

أحب ضوء الشموع في لوحات جورج دي لاتور، الشمعة التي تضيء وجه مريم المجدلية، أو تلك التي يذوب معها جسد السجين وزوجته تنظر إليه، الليل في لوحات دي لا تور لا يمثل الشر، بل يمثل الرؤى الشفافة والتأمل، الليل هو وقت الحزن، في الليل نجمة تتحدث إلى نجمة، يتلألأ الطريق الضيق إلى الذات، بعيدا عند تورم رأس النهار بسبب ضجيج سطوع الشمس، بعيدا عن إغراء الوضوح يجلس دي لاتور ليرسم الوجود الحي للأحلام، كل الاحتمالات التعبيرية للإضاءة الليلية نجدها في لوحات دي لاتور، يتحدث عن الحياة اليومية في الليل، القراءة، الحفلات الموسيقية، الوحدة، الانتظار، الألم، مصدر الضوء دائما شمعة، اللغة تسير في اتجاه الليل، الخيال الفني يسير في اتجاه الليل، الشعراء، الكتاب، الفنانون أكثر اهتماما بالليل من النهار، نحن نتحدث عن اليوم كأنه النهارفقط، الليل ليس له استقلالية ودائما ما يتم نسيانه عندما نتحدث عن اليوم، يبدأ اليوم مع شروق الشمس وينتهي مع غروبها، الإنسان يوقر تجارب النهار، أما تجارب الليل فهي بلا معنى بالنسبة له، الرسم، الكتابة، التأمل، الحب، التفكير في الحبيب، هذه التجارب الليلية بلا حركة، سكون الليل يرفض الحركة، في الليل هناك توق للخروج من الفوضى، الضوء يعيق

مسار الأفكار، الليل يجعل الفنان يتصرف في العالم بهدوء، ضوء الشمعة تهزه نبضات قلب العاشق، تهزه تموجات الحلم القريب من اللهب، يقال إنّ أول أثر لشمعة وجد في أفينون في فرنسا، يعود تاريخ هذا الأثر إلى القرن الأول الميلادي، الرومان استخدموا شمع الفتيل، «بليني» وصف الشمعة القديمة كمزيج من الأعشاب أو القصب والشحم المذاب، وفي بعض الأماكن زيت الزيتون يستخدم بدلا من الشحم، الإنسان أراد التعامل مع الليل، أراد أن يكون الليل جولة تأملية، الشمعة تضيء المنزل أو المعبد، الشمعة تضيء وجه مريم المجدلية، حزينة مثل الحياة جميلة مثل الموت، مريم ذات الشعر الفضفاض تجري خلف كلمات المسيح، بملابسها القرمزية تجلس على الأرض قرب قدميه، عندما دخلت المجدلية إلى بيت الفريسي الذي طلب من المسيح أن يأكل عنده، كان هناك فتيل وزيت يضيء وجه المسيح، أحضرت وعاء من الألم ووضعت فيه قدميه، غسلتها بدموعها وجففتها بشعر رأسها، عند قدميه يسقط النور حيث لا وجود للألم، في ضوء لهب الفتيل كان اللقاء الأول بين المجدلية والمسيح، الفنان في لوحات جورج دي لاتور يعمل ضد الضوء، في النقطة التي لا يتمكن الضوء من الوصول إليها نجد تمجيد الضوء الخافت، عندما يكون الضوء قويا في اللوحة ومن مصدر مركز تصبح الظلال أقل كثافة، الشمعة تحب الظلال وحركتها، في الظلال تستيقظ الروح وتجد كثافتها، جمال المجدلية ينبع

من الظلام، اللهب يضع حولها هالة حمراء، ظلال طيات ثوبها تزيد من قوة جمال المشهد، رأسها منحنٍ إلى الأسفل لكن الظلال هي ما يُظهر الخضوع التام، الألوان تضعنا في النظام الليلي للصورة، الأدب أيضا يحب الليل، للكلمات المكتوبة نفس خيال الرسامين، بعض الذكريات لا تكتب، بل نستعيدها في شكل بصري للنظر إليها مرة أخرى، نعزل هذه الذكرى أو تلك ونضعها في إطار أمام نظرتنا المطلقة، لن تكون الإضاءة في هذه الذكريات ساطعة، شمعة واحدة تكفي لتذكر انتظار الغفران، فرحة المصالحة، لمعان الدمعة على خد الندم.

الذاكرة تنسحب دون أن يلاحظها أحد إلى المطعم الصغير، أصابعكِ البيضاء النحيفة تصل إلى كوب الماء، الشموع تلتهم القليل من ظلام المائدة، رشفة صغيرة من الماء، الطاولة التي تجمعنا تتنفس بهدوء، يقدم ظللكِ صورة ناجحة للإنسانية، أو صورة لحب الشعور الذي لا داعي له وهو الحزن، الفستان الأحمر يضم جسدكِ بحميمية، شعركِ القصير والمتهور يطرد تصور الحياة كمكيدة مظلمة ومعقدة، ضوء الشمعة يحافظ على يقظة المسافة بيننا، ضوء الشمعة غير قادر على تشذيب الجاذبية في نظرتكِ، الجلسة معكِ عناق مع مسار البقاء، النظر إليكِ يساعد على الرؤية، وجهكِ يلتقط، يفرز، يجمع اللحظات الضائعة من حياتي، وجهكِ كان دائما لحظة تدمير حميمة لوحدتي وحزني، الناس

على الطاولة القريبة منا شعروا في وجودكِ أن المطعم أوسع مما كان عليه قبل وصولكِ، «الناس» هذه الكلمة التي تبدو لي محايدة الآن، إلى أي مدى يمكن الوثوق في هذه الكلمة؟ هذه الكلمة التي تحتاج دائما إلى إضافة صفة، الناس الفقراء، الناس الأغنياء، الناس المثقفون، الناس المتوحشون، الناس الطيبون، الناس الشريرون، الناس هذه الكلمة تم تخريبها بكل الطرق، من خلال توجهات سياسية وأيديولوجية واجتماعية، كلمة الناس تأخذ قيمتها من اتساعها، لكنها تصبح ضيقة جدا عندما يتحول الناس إلى شعب، رشفة أخرى من الماء، الظلال تتمسك بيدها، الشمعة تكتب عنها بصمت كلماتها المفرطة في جمالها، الشمعة تعرف جيدا دوار الإفراط في الصمت، أتذكر كل التفاصيل التي تسبب الحزن، كل دقيقة هنا تكتسب كمية من العزلة أكبر من الدقيقة التي كانت قبلها، أنظر إلى الشمعة التي لا تشبه شموع المطعم في شيء، الشمعة في المطعم يعطيها العالم صفتها الرومانسية، أما الشمعة في هذه الغرفة فهي من نواح كثيرة تفتقر حتى لسبب وجودها، الشموع في المطعم تشجع على الحديث، المصريون القدماء وهم أول من اكتشف شمع العسل وضعوا بعض الشموع في قبر «توت عنخ آمون»، ربما كانت لتشجيعه على الحديث مع الموت أو مع الناس في العالم الآخر، هذه ليست نفسها الشموع التي تنير خديكِ في لحظة كسوف كل وجوه الناس في المطعم، في العصور الوسطى فقط عرفت أوروبا شمع العسل،

الأغنياء فقط يشعلون شموعهم لطرد خرافات الفقراء، لكن أكبر مستهلك للشموع في تلك الفترة كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، الشمعة التي أمامي لا تشبه شموع «توت عنخ آمون»، ولا الشموع في دير وسط الغابة، الشمعة التي أمامي تشبه الشمعة في لوحة «زيارة السجين» لجورج دي لاتور، في اللوحة الزوجة تزور زوجها المسجون، تمسك الشمعة بيدها وتتحدث إليه بشكل فيه لوم وتهديد، الزوجة طويلة القامة وقوية، أما هو فنحيف جدا مقارنة بها، لحيته الطويلة تشير إلى المدة التي قضاها في السجن، شخصان في ضوء لهب شمعة واحدة، النور في اللوحة يأتي من ضوء الشمعة وهي ما يشكل مركزها، وضعية الأيدي والنظر إلى الأعلى تؤكد أنه في حالة ضعف وشعور بالذنب، لكن في حالتي أنا ليس هناك شعور بالذنب، أنا من اختار الوجود في هذا الحيز المشبع بالعزلة والخطر، لقد أخذت مثل «غوستاف كوربييه» كل السكتشات من الخارج وجلست في البيت أرسمها على ضوء شمعه، أو مثل «شاتوبريان» الذي يدون ملاحظاته أثناء سفره ثم يعود إلى المنزل ليكتب في ضوء شمعة، لم يكن البيت أبدا مكاني المعتاد، عندما أخرج لا أعود إلا بعد أسابيع أو أشهر، أنا لست رساما ولا كاتبا، أنا قارئ والخروج المفاجئ لا يمنع القارئ من الاستمرار في عمله، الكتاب لا يحتاج الشعور بأنك في المنزل، في الكتب هناك رحلات لم أكملها بعد، أخرج من البيت ومعي كتاب، أجلس في مقهى، طائرة، قطار، ترام، لا أرى

أي شيء من حولي، الكلمات تجعلني أتجنب النظر إلى العالم، الكاتب يخرج من البيت بحثا عن موضوع يصلح للكتابة، و أنا أخرج من البيت للبحث عن الموضوع الذي كتبه، ها أنا الآن أجلس للكتابة ليس لدي ما أفعله إلا النظر إلى هذا الورق الأبيض والاستماع إلى صوت الريح، الكتابة ليست أبدا القراءة، الكتابة تعطل الهدوء وتدمر قناع العالم أمامك.

لم يكن هناك أي ضجيج في الخارج، فقط أنين الوقت والليل الذي يرتجف مرتين قبل أن ينام، وجه الوقت أبيض باهت وجفونه مشلولة، يحتاج الوقت إلى أصابع الملل ليرفع جفونه وينظر في وجهي مباشرة، ضوء الشمعة لا يرتكب خطأ الاهتزاز، اللهب يحاول مضغ الملل الذي يشعر به، الشبابيك مغلقة وزجاجها مغطى بالكامل بأكياس الزبالة السوداء، الليل لا يعرف فترة الراحة، الليل هنا يعمل على مدار الساعة، كانت أمطار خريفية تبلل ريق الحياة، لكنها لا تستطيع إخماد شعورها بالقلق، تتعلم مع الوقت معنى وزن الصمت، تتوقف عن التنفس للحظات، لا شيء سوى صوت الرماد، داخل الجدران الأربعةِ الحميمة. الصمتُ العنيدُ يحمل معه الظلال والرماد.

في الحربِ الإنسانُ لا ينتمي للحياة تماما ولا للموت تماما، الكلمات الوحيدة التي تخرج من فم الليل هنا هي الرصاص وقذائف الهاوزر، هذا هو الشيء الوحيد الذي يبقى ولا يفقد التتابع.

والدي قطعة كبيرة من لغز قديم، عميق، ولا يتغير أبدا، رفض الخروج من «الصابري»، البيت بالنسبة له هو أحد الثوابت الإنسانية، الناس تخرج من بيوتها بسرعة خوفاً من الحرب القادمة، أما هو فمثل النباتات مُعرَّضٌ للتلف بعيدا عن التربة التي عاش فيها، بالنسبة له لا توجد مساحة منظمة ومتماسكة خارج «الصابري»، لا يوجد المزيد من الحقيقة في أي مكان من العالم أكثر من هذا الحي، علينا أنا وأخوتي الاستسلام بسبب نظرته الساخرة وابتسامته الصارمة، كان لابد من اجتماع عاجل بعد خيبة الأمل من كل محاولات إقناعه بالخروج، خمسة إخوة في غرفة، بعيدا عن النساء والأطفال، علينا أن نتخذ قرارا عاجلا يدخل فورا حيز التنفيذ، أنا الأخ الأوسط بين خمسة إخوة، مطلق منذ زمن بعيد ولم يصل إلى نتيجة مطمئنة حول أي شيء، يجر نفسه والكتب على طريق الفضول والحب الذي لا يقاوم، هم كانوا متوترين ومشاعرهم جافة، أنا الوحيد الذي يقف في المكان المحايد، لا زوجة ولا أولاد، أنظر إليهم وأفهم كيف يبحث كل واحد منهم الآن في أجزاء حياته، ليس لديهم الوقت أو الرغبة في مناقشة أي شيء، لا أدري لماذا شعرت بالشفقة عليهم في تلك اللحظة، أخبرتهم أني قررت البقاء معه، لا شيء سيتعطل من هراء الحياة إذا بقيت معه في هذا البيت الذي يمتلك قوة قاهرة، بالكاد شعروا بالضيق لأني اتخذت هذا القرار، كان حلا إيجابيا ولم يجرب أيٌّ منهم ولو بنشوة عاطفية مزيفة محاولة تغيير قراري، انتهت الجلسة

مع مهام لكل شخص منهم عليه أن ينهيها قبل خروجه، قرروا أن تكون كل طوابق البيت الأربعة والبيت الإضافي في الفناء الخلفي لبيتنا تحت تصرفي، شراء أكبر كمية من العلاج الذي يستعمله الوالد بشكل يومي، الكثير من المعلبات، حصر كل ما في غرفة التخزين من سلع أساسية وأخيرا قدم لي أخي الصغير «مسدساً بلجيكياً» مع ثلاث علب رصاص في حال حدث أي طارئ، كان أخي مبتسما وهو يضعه أمامي، كأنه شعر أني سأفقد شيئا من النقاء الإنساني إذا لمست المسدس، ليس هناك ما يشير إلى التشجيع أو العزاء في تلك الابتسامة. ذهبت إلى شقتي في وسط المدينة وجلبت بعض الملابس والكتب وكل ما هو ضروري فقط، تركت كل شيء إلا الذكريات الحزينة فقد أخذتها معي، كم أتمنى لو أني أستطيع ترك العالم كما وجدته، هكذا كما هو جاف وبلا نكهة، لم أقرر البقاء بسبب قدرتي على نكران الذات أو التضحية، لم تكن علاقتي بوالدي أبدا جيدة، كنت بالنسبة له مثل لسعة يشعر بها وهو نائم، أن تكون ابناً فهذه مهمة هائلة لم يفهمها والدي، أن تكون ابناً فهذا يعني أنك تعرف جيدا كيف تخترع سببا لكل شيء، وأن تكون متفوقا في تبرير كل تصرفاتك، لم أفكر أبدا في الظهور أمامه بفضائل كاذبة، وهو لم يفكر في الظهور أمامي كشخص متسامح مع تصرفاتي الغبية في كثير من الأحيان، الآن لم يعد والدي كما كان فقد تخلى عن ردود الفعل والقرارات غير القابلة للتغيير، في سن الشيخوخة العناد يلغي نفسه، الشيخوخة

هي مرحلة الوضوح العاطفي، لكن إذا تعلق الأمر بالخروج من البيت فالعناد يصبح ضرورة، قريبا سوف تصبح هذه الطوابق خالية من السكان، سنشغل أنا وهو غرفة واحدة ومعنا عواطفنا غير المرئية، كنت أعيش أنا وهو في هذا البيت نفسه، أرمل- بعد وفاة أمي- ومطلق وهذا ما كان يحقق بعض التوازن، أمرّ عليه كل صباح وهو في فراش المرض، أسلم عليه وأضع بصمات أصابعي على جبهته حتى لا ينسى رغبتي السرية في التنصل من كل شيء.

أنظر إليهم وهم يجهزون كل شيء للرحيل، تذكرت أن الإنسان عندما يقف أمام لوحة يجب أن يغمض عينيه ويفتحهما لكي تظهر اللوحة أمامه بكل تفاصيلها، في هذه اللحظات الفوضوية أصبح لأخوتي سماكة معينة، لم تكن ضجة زائفة لكن لم يكن هناك ما يخفف الوضع المحزن، لا أحد منهم يفكر في أن يأخذ معه كتاب، لا أوراق ولا مذكرات، ليس لديهم علاقة داخلية بأي شيء في بيوتهم، لا أرفف تحمل بعض الكتب، و لا وردة في إناء، و لا لوحة على الجدار، البيت في ليبيا هو برج محصن من الأسمنت والحديد، مقفر وبدون روح، يجب أن تتكسر الأجيال عليه مثل الأمواج على الصخور، البيت لا يوقض الأحلام لأنه «قبر في الدنيا»، هكذا يتعامل خيالنا مع البيت، مكان لتناول الوجبات والنوم، لا علاقة في خيالنا بين فكرة البيت وفكرة الوطن، مفهوم البيت يحتاج إلى مجتمع يقدر الفن والفلسفة

وفكرة العمارة، مازلنا نفكر في البيت كمأوى، مكان له وظيفة ولا علاقة له بالمتعة أو الراحة، أنظر إلى عيونهم المرسوم فيها الرعب من شعورهم أنهم الآن بلا مأوى، المأوى يتعارض مع التشرد، فقدان المأوى يعني بالنسبة لهم فقدان الألفة المملة، لم يكن في الحقائب التي يحملونها سوى الصور العائلية ؛ خوفا من اطّلاع أي شخص على نساء العائلة بلا حجاب- الموضوع له علاقة بالشرف، ملابسهم وأسلاك شحن هواتفهم، هذا كل ما يهم، أسلاك الشحن هي الأكثر إلحاحا فالحياة بدونها مستحيلة، كأنهم كانوا يعيشون في فندق والآن عليهم الخروج منه، لم يفكر أحد في مكتبة والدي التي جمعها خلال كل حياته، أفكر الآن في بيت «جورجيو فازاري» الرسام والمهندس المعماري الإيطالي، في غرفة المكتبة التي تحوي الكتب ورسوم فازاري المعمارية، كتاباته الخاصة والمراسلات بينه وبين مايكل أنجلو، بيت فازاري تحول إلى متحف، لقد رسم لوحات كثيرة في هذا البيت ورسم البيت نفسه في لوحات كثيرة، أفكر في اللوحات الجدارية والمنحوتات فوق الأبواب والشبابيك، كانت المنازل في بنغازي تدل على الذوق، الآن تدل على الطبقة الاجتماعية، بيوت فخمة لكن بلا ذكريات، فكل الذكريات متشابهه ومتكررة، بيت فخم لكنه يلبي حاجات الإنسان الأساسية، الطعام، النوم، الحمام، أما الباقي فهو مجرد ادعاء زائف.هم جاهزون للمغادرة إلى بيت الأخ الوحيد الذي يعيش خارج الصابري، بيته في حي شبنة بعيد عن

البحر والرمال اللينة والجميلة، توديع الوالد كان أبعد ما يكون عن السهولة، لا ثرثرات ولا تعليقات، كانت رغبتهم في الهروب من الجحيم القادم مكتومة، لا أحد منهم يحاول خيانة الحقيقة، لا يمكن النظر إلى قرارهم كنوع من اللامبالاة أو الجريمة الأخلاقية، الهروب بالأبناء من الخطر أمر شائع ولا يحتاج إلى الكثير من التفكير غير المفهوم وغير المبرر وهو البقاء هنا، كل كلام لا يقول هذه الحقيقة هو خيانة للحقيقة وليس أكثر من جهد مضلل. والدي على سريره الذي دائما ما أقوم بربطه في خيالي بسرير هاينريش هاينه، هذا الشاعر الذي دخل سريره ولم يخرج منه إلا إلى المقبرة، ثمان سنوات لم يخرج فيها من السرير، كان مريضا بالزهري وأصابه العمى وهذا ما جعل عالمه ضيقا وقاتما ومحموما، كان صديقا لماركس، لم يكن «هاينه» ثورياً لكنه كان من أبناء عمومة الفقراء والمساكين، والدي مثله من الطبقة الوسطى، لكنه يحب الكائنات الذائبة في المعاناة والألم، ممدد مثل هاينه على سريره منذ سنوات، الشيخوخة وأخطر أنواع الروماتيزم جعلته لا يفكر في الحركة إلا إلى الآخرة، لقد أصبح نحيلا جدا وجلده يميل إلى البياض الشديد، كان مترجما قانونيا يتحدث الإيطالية بطلاقة والفرنسية والإنجليزية بشكل ممتاز، درس في باريس التي لم يتحدث عنها وكأنها سر، كان السفر بالنسبة إليه هو الحيلة التي يقفز بها فوق الواقع، لم يتوقف عن السفر إلا مع أبخرة الحياة الزوجية والأطفال، أخوتي الآن يقبلون يده ورأسه وهو كان يقف

في منتصف الطريق بين الحزن لخروجهم والفرح بذهابهم بعيدا عن مكان الخطر، أنا في هذه اللحظة كنت أفكر فيكِ أنتِ، أبحث عن طريقة أخبركِ فيها بقراري، هل أبعث برسالة قصيرة تقول كل شيء؟هل أتصل وأسمع لعناتكِ والشتائم التي لن تنتهي إلى يوم الغد؟سوف ينتهي الأمر بسخرية منكِ على قرار والدي الذي لم يسمع بسخرية كوربوزييه وأتباعه من عبادة المنزل.

بعد دقائق لم تكن شديدة الوضوح اختفى الجميع، أقف مقابلا للبيت لتوديعهم، نظرت وأنا واقف إلى طوابق البيت، تذكرت لوحة السجين لجورج دي لاتور، رسمها أثناء أهوال حرب الثلاثين عاما، كم ستستمر الحرب في الصابري؟كانت زنزانته في قاع برج محصن ضد الهجمات، ربما هو أيضا كان مسجونا بسبب مصادفة عجيبة، بالتأكيد له زوجة؛ فهي موجودة في اللوحة، وربما لديه أولاد، لماذا يسجن شخص لديه زوجة وأولاد؟لم يكن التفاني غريبا علينا نحن جيل الستينيات، لكن ما أفعله الآن ليس له علاقة بالتفاني، بل كان مواجهة حقيقية مع الواقع، أن تكون فاشلا اجتماعيا وتعيش عزلتك مع الكتب، فهذا يجعلك مؤهلا لمثل هذه المهمة وهي مواجهة خطر الموت، اليوم هو 2014/10/27 يوم لا يناسب قدمي الحياة الصغيرة والحساسة، البيت أكثر يأسا من أي وقت مضى، البعض يظن أن اليوم الذي قررت فيه الطلاق كان يوما يشبه الشمعة بجانب

ميت، أو يشبه القرار الذي اتخذته اليوم، لكن الحقيقة أن يوم طلاقي يشبه الوعاء الجميل والرطب، لا يمكن مقارنة يوم طلاقي بهذا اليوم، لأن الطلاق يقودنا أولا وقبل كل شيء إلى أنفسنا، أما الزواج فيقودنا إلى الآخر، إذا فصل الآخر نفسه عن المراوغة التي تسمى الزواج، فهذا يعني أننا في طريق يقودنا للتستر على عجزنا عن المواجهة، كان زواجي مثل مخاط أخضر لابد من مسحه بإيماءة بطولية، أما هذا اليوم فهو يتصدع بشكل خجول، كما لو أنه يمكن أن يئن أمامي، دخلت إلى البيت وأغلقت الباب جيدا، نظرت إلى المسدس وعلب الرصاص على الطاولة، كأنه شيطان خرج من جيب الظلام، الرومانسية هي الحساسية القادرة على الاستجابة لمشهد ما، ما هي الحساسية المناسبة لرؤية مسدس وعلب رصاص على طاولة في بيتك؟في هذا الوضع الذي أنا فيه لا يمكن تجنب خسارة النظر إليه كصديق.خرجت إلى الفناء الخلفي للبيت، جلست القرفصاء وظهري إلى الحائط، أشعلت سيجارة وأنا أتمنى أن يكون بعدها الإغلاق النهائي لجفوني، لابد من إجراء المكالمة الآن، تزعجني قدرتي على توقع كلماتها، أتذكر الآن اللقاء الأول بيننا في مكتبة عياد، لا أدري كيف يعطي بعض الناس شكلا ملموسا لمهنتهم من النظرة الأولى التي نظرت فيها إليك عرفت أنكِ شخص يحتاج إلى قلم ليجعل العالم يعمل بكفاءة، أستطيع أن أرى القلم في يدكِ، والعالم ورقة تهتز في الهواء أمامكِ، في بيروت دائما هناك علامة على وقوع صدفة

جميلة، جمعنا الحديث مع عياد صاحب المكتبة عن طبعات الكوميديا الإلهية لدانتي، ثم أخذتكِ شوارع بيروت المشحونة بالأفكار والعواطف والكلمات، أخذت طريقي من المكتبة إلى شارع الحمرا وأنا أفكر في أناقة اللقاءات وكيف تمنح الوجود تعقيده الحميم، سرعان ما وصلت إلى مقهى كوستا القريب من فندق «35 غرفة» الذي أسكن فيه، بعد دقائق كنتِ تقفين أمامي مستغربة من تواجدنا في ذات المكان في أقل من نصف ساعة، وعندما طلبت منكِ الجلوس فكرتِ للحظة ثم جذبتِ الكرسي وجلستِ، تعارفنا بسرعة، اسمها بياتريس وكما خمنت هي كاتبة وصحفية، يجب أن يُكتب عن فلسفة للقاء، عن هذا اللقاء الذي يراوغ أي سيطرة، و ربما الكتابة في الوقت نفسه عن المقهى كلحظة مقاومة للواقع، لا يمكن فهم شيء إلا من خلال نشوة مقاومته، الحب لا يكون حقيقة إلا في تجربة مقاومته، بعد هذه التجربة يتحول إلى واقع، كل شيء فيكِ يعطي انطباعاً بالثقة في النفس، محاطة بهالة من روح بدائية قوية، في كثير من الأحيان وجودك مع شخص في المكان نفسه لا يعني أنك معه في العالم نفسه، لكن معكِ أنتِ كنت في المكان نفسه وفي العالم نفسه، خاصة عندما قلتِ بعد حديث طويل: «أنت تجلس الآن مع امرأة ألغت حفل زفافها منذ أيام قليلة، و هذا لا يعني أبدا أني ممزقة لأن العالم نفسه ممزق، قلت هذا الأمر لتعرف أن صديقتك الجديدة تخاف الدقة المحيطة بها، تخاف الانخراط في عالم

الطبخ، في عالم البيت والرتابة والتنظيف، و تنظر إلى المسافة كشيء حميم، و إلى البعد كشيء رائع، هل فهمت أي شيء مما قلته الآن؟» يفتح اللقاء طرقاً جديدة لفهم العالم، بدافع من الفضول الذي لا يقهر طلبت رقم هاتفها، امرأة جميلة تتخلى ببساطة عن الأنوثة الخيالية، لصالح طبيعة برية جامحة، بلمسة من أصابعها الناعمة والخفيفة تجعل كل شيء أنيق، تصرفاتها فيها مسحة رجولية تفعلها بتلقائية دون أي خجل أو خوف، وهذا ما يجعلها أكثر جمالا وأناقة، إنها الشخصية التي تمثلها وتتكلم عنها المغنية كريستا ماري، المرأة التي ترفض الأناقة والملابس الراقية، أتذكر الآن بنطلونها الجينز الممزق وملابسها الفضفاضة، الطريقة الجميلة التي تسير بها في الشارع الذي لا تحاول لفت نظر أحد فيه، لا تهتم بنظافة حذائها الرياضي ولا تكترث بصيغ الجمال الاجتماعي، لكن في داخلها أنوثة تجعلك تغرق في دموعك، بعد الكثير من التردد قررت الاتصال بها.

كان صوتها في المكالمة يذهب ببطء نحو البكاء، شعرت أنها عندما سمعت الخبر غطت وجهها بيديها، لكنها في النهاية فعلت ما كنت قد توقعته سابقا، كانت تصرخ:هل تعتبر هذا مفيدا لك؟أنت تتجرع الشوكران على طريقة سقراط، هذه وسيلة للخلاص من العالم، من الكآبة التي تخترق جلدك، سوف يختفي والدك، المنزل، الشارع، هل تفهم؟سيختفي كل شيء وأنت معه، لا أدري

لماذا أنت حيوان وغبي وعنيد إلى هذه الدرجة، الموت يلهث على بابك الآن هل تفهم؟الموت المألوف الذي تعرفه جيدا، كانت كلماتها أكثر من غياب العالم بأكمله، و دموعها لا يمكن المساس بها، هكذا تبقى كتذكار أو تحذير مستمر، وعدتها أني سأكتب لها رسائل ورقية طويلة، و أن أتصل في أقرب فرصة، لكنها كانت تعلم جيدا أن كل شيء سيذوب في ظلام عقيم.لقد تخليت عن نفسي، يالها من صرخة صامتة أطلقتها في الفناء، الخريف يتمايل على قمم السحب، الدقائق يرعاها ألم شاحب وهي تسير إلى نهايتها، الحزن لا يمكن احتواؤه في هذه اللحظة، نهضت ودخلت إلى البيت، كان والدي ينظر إلى الجدار، كأنه ينظر إلى وجه ما من خلف الأشجار، كأنه يسمع رنين الحزن في البيت، يالها من ليونة كاذبة مخبأة في شفاه هذا اليوم، يلتفت نحوي ويبتسم، لا أدري كيف تحمل تجربة المرض كل هذه السنين، تجربة الهشاشة الجذرية، تجربة كيف يعيش جميع من حولك مرضك، لا تستطيع أخذ الحياة على محمل الجد عندما تكون مريضا، لا يمكن أن تتحمل تجربة الوقت المريرة، الوقت هذا القاتل غير المرئي، القاتل الذي يسدد رصاصة إلى قلبك تجعلك تنتظره ولا يبالي بنفاد صبرك، بالنسبة للمريض العالم منتهٍ بالفعل، لا وجود لمستقبل، أما هو فمحكوم عليه بمرور الوقت أمامه، المرض صوت أبيض مفاجئ، صوت فيه كل الإرهاب والشفقة، في مثل حالة هاينه ووالدي يتحول الإنسان إلى مشهد،

المرض يصبح عرضا غريبا عن الحياة، المرض رؤية كاملة ومذهلة لمعنى قبول الانتظار، انتظار الشفاء أو الموت، أنت مريض هذا يعني أنك دائما تحت عيون الآخرين، الآن هو تحت عينيَّ أنا فقط، أنا يجب أن أنظر إليه بعناية فائقة، أنا الوحيد الجالس على الكرسي ويجب أن لا يشعر بالغضب أو الإرهاق ؛ لأن المشهد لا يعرض سوى الحقيقة، و في حالة المرض الحقيقة لا تكون بريئة على الإطلاق. أخبرته أني سأقوم بإغلاق الشبابيك من الآن وحتى تنتهي هذه الحرب، لا نريد أن يعلم أحد أننا هنا، و عندما انتهيت من ذلك نقلت الأريكة من الصالة إلى غرفته كي أكون جانبه طول الوقت، لم تكن في غرفته الكثير من الأشياء، خزائن كتب، طاولة صغيرة عليها بعض الأدوية وكوب ماء، خزانة فيها أرفف كثيرة مليئة بالملابس التي لم يعد يستخدمها منذ فترة طويلة، سجادة زرقاء داكنة، الشباك مفتوح على الفناء الخلفي للبيت، هذا الشباك هو الوحيد القادر على تغيير مزاج هذه الغرفة الحزين، فكرت في أننا لن نستخدم إلا هذه الغرفة والمطبخ والحمام، أخبرته بشيء من السخرية أن غرفته ستكون ملاذا لنا الفترة القادمة، ضحك ومسح جبهته بيده المرتعشة قائلا: «هذه صياغة جميلة لواقع مؤلم، بالنسبة لي هذه الغرفة كانت سجنا طوال أعوام، لن أرفض سجينا جديدا يعتبرها ملاذا»، هذا الكلمات تعني التوقف عن الحديث معه، كأنه أراد أن يقول لا توجد متعة في وجودك في هذا السجن معي، تجاهلت الأمر وأحضرت ورقة وقلم وبدأت في تسجيل

كل ما لدينا من طعام ودواء وشموع وسجائر وغيرها من الأشياء، كان هذا الجرد مجرد إجراء احتياطي لأن الأمر كله قد لا يتجاوز بضعة أيام، أو شهر على أقصى تقدير، الجيش الآن على أطراف «الزريريعية»، «اللثامة»، الصابري، «توريلي»، «خريبيش»، وسط المدينة، وهذا يعني أنه يقف على طول الخط المقابل للبحر من الطريق الساحلية إلى الميناء، وقد يقتحم هذه المنطقة المعصوبة العينين من قِبل المتطرفين في أي لحظة، تم إغلاق شباك بنغازي المطل على البحر، لقد أصبح الشباك قوة عمياء وغبية، قوة غامضة لا تعرف إلا الموت والوقوف في وجه الحياة، كان يجب إغلاق هذا الشباك، أنا أيضا قمت بتغطية زجاج شبابيك البيت المطلة على البحر بأكياس القمامة، يجب أن لا يتسرب النور إلى الخارج، الظلام في الخارج فرض علينا الظلام في داخل بيوتنا، عقولنا، شوارعنا، مذاق اليوم المرّ في بنغازي جلب المواجهة التي لا مفر منها.

بنغازي التي تسير في طريقها ببطء وصلت إلى المنعطف، إلى النهاية، الناس في هذه المدينة التي لا تعرف إلا المقاومة، كانوا ينتظرون بعد الثورة الحياة، الحرية، الرفاهية، لكن كل ما حصلوا عليه هو مدينة تنام على خبر اغتيال وتصحو وفي عيونها بقايا صورة المقبرة، هل يمكن استعادة بنغازي بعد كل ما حدث؟نعم بنغازي ليست باريس أو لندن أو برلين، ليست المدينة التي تشعر

أن شوارعها مصدر إلهام، لا أبراج، ولا متاحف، ولا حتى تمثال واحد لرمز وطني، لا شيء على الإطلاق، كتل المنازل والمكاتب والطرق عديمة الشكل، ليس لها طابع، ليس لها وصف جمالي أو موضوعي، ولن تجد فيها أثرا للتقاطع بين التاريخ والطبيعة والأسطورة، لدى بنغازي حكاية مكانية حميمة، لكنها موجودة تحت ركام الدمار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، تحت ركام الجهل والتخلف والكذب، لقد أصبحت مدينة بلا مشهد، لكن لا يمكن الحديث عن بنغازي دون عاطفة، قد تكون أمك عمياء، قد لا تعرف أمك معنى البناء والهدم، لكنها تبقى أمك ولن تعتبرها هدية مؤسفة وغير مقبولة، هذه الأم تعرضت عبر التاريخ لتخريب حسود، تخريب آثارها، طمس معالمها، و التخريب بسبب الإهمال، هدم ضريح عمر المختار، هدم سوق الظلام، هدم مبنى نادي الأهلى، تخريب ميدان البلدية وميدان الشجرة، حتى آخر ما تبقى لها وهو سمعتها ك «رباية الذايح» تم تخريبه بطريقة أو أخرى، و لم تسلم كونها محراب كل الليبيين من التخريب، بنغازي التي كتب عنها جافين لونج وهو جندي من القوة الأسترالية التي كانت مع الإنجليز أثناء حربهم مع الطليان قائلا: « دخلنا إلى بنغازي بملابس عادية وقذرة جدا، متعبين وننتظر اللحظة التي نذهب فيها إلى النوم، رحب بنا الليبيون على طول الطريق إلى وسط المدينة، الكثير من الطرابيش الحمراء، و الكهنة اليونان والطليان بملابسهم الرسمية، كانت بنغازي مدينة أنيقة ومزدهرة،

الشرفات الأنيقة مزدحمة بالرجال والنساء، لوحوا وصفقوا كان الجو وديا تماما، كان الجنود الإنجليز قد وصلوا إلى المقاهي والحانات يأكلون الكعك والخبز مع الزبدة ويشربون القهوة، كنا ندفع بالعملة الإيطالية، و في أحد الفنادق الرئيسة وجدنا زجاجات البيرة والنبيذ مكدسة أمامنا، و طاولات المطعم جميلة ومرتبة، كل الأماكن في بنغازي مزدحمة بالجنود الذين لم يتذوقوا طعم القهوة منذ أسابيع، لم يكن ينقص بنغازي أي شيء، لم تدخل باقي الفرق إلى المدينة لقد تجاوزتها باتجاه طرابلس»، كيف أصبحت هذه المدينة بهذا القبح؟كيف أصبحت بنغازي مدينة مكرسة للفشل؟فقط بنغازي وبعض المدن التي ترفض الانحناء تعرف الهدم والتخريب بلا هدف، لكنها تبقى الأم التي تمنحك شعورا بأنك تقف في المكان الصحيح، صدرها يجعل حضن كل المدن في العالم مجرد كذبة، لسوء الحظ فشلت الثورة، و غبار الإرهاب يخنق روح بنغازي، فقدت سحر الثقافة والتحضر، فقدت الصور الملونة والجميلة للحياة اليومية فيها، فقدت ملمسها الأكثر كثافة وأصبحت حادة كسكين، الحرب بدأت هنا، الحرب هي المشهد الآن، علينا أن ننسى أفراح المساء البطيئة.

في يوينو 1938 نشرت فرجينيا وولف كتابها «ثلاث جنيهات»، كان الكتاب حول تأملاتها الشجاعة وغير المرحب بها حول جذور الحرب، في الوقت الذي كان معظم أصدقائها وزملائها الكتَّاب مندمجين في الحرب الإسبانية، كتاب فرجينيا كله لم يكن سوى رد على سؤال من محام بارز في لندن يقول: «برأيكم كيف يمكن منع الحرب؟»، تشكك فرجينيا وولف في بداية الكتاب في إمكانية الحوار بينها وبين المحامي، من وجهة نظرها هناك فجوة واسعة بينهما، على الرغم من أنهما ينتميان إلى نفس الفئة وهي الطبقة المتعلمة، المحامي رجل وهي امرأة، الرجال يحبون الحرب لأنها تمنحهم المجد والتنفيس عن شراستهم وتوحشهم وهذا ما يبعث الارتياح في نفوسهم المريضة، وهذا ما لا تشعر به النساء على الإطلاق، كنت أقرأ هذه الكلمات وأنا على الأريكة بجانب والدي، لم أستطع منع نفسي من الابتسام وأنا أقرأ هذا الهراء، هل فعلا الرجال يحبون الحرب؟قرأت على والدي هذه الجزئية من كلام وولف، حرك يده على اللحاف ببطء وقال: «الرجال يحبون العزلة، لا أحد يحب الحرب، الرجل قادر على أن يبقى وحده في الظلام ويغرد مثل عندليب بصوت حلو، العيش مع الذات هو ما يستهوي الرجال، في العزلة يجد الرجال الهدوء

التام لعاطفة ثورية، الرجل الذي يذهب إلى الحرب هو رجل غير متحمس لمحيطه، الحرب نوع من العزلة، لكنها عزلة غير نقية، كانت كلماته مثل أجراس تقرع في الغرفة، كيف للكلمات أن تنقل الخبرة بهذه الطريقة الواضحة، شعرت في هذه اللحظة أن بنغازي مائلة وثقلها كله يضغط على صدر والدي، هذه المدينة التي تنفسها كل حياته على وشك الدمار، رفض والدي تعلم قيادة السيارة، كان يحب المشي في شوارع بنغازي، يتنزه في تعرجاتها الفضية، طرقاتها غير المرصوفة، ربما هذه هي العزلة التي اختارها لنفسه، فهذه الممارسة بعيدة كل البعد عن أن تكون هواية، في المشي بعد فلسفي وهو علامة اجتماعية، «روسو» كان يكره باريس بسبب ما يراه في الشارع من بؤس، أما والدي فقد أحب بؤس بنغازي والمشي في شوارعها، كان السير في طرقاتها نوعاً من التعاطف معها في أوقات الشدة، لم يعرف والدي طعم التبغ أو الكحول، لم يهتم أبدا بنكهة الشاي أو القهوة، كل ما كان يهتم به هو المشي والكتب وصوت فريد الأطرش، هذه هي عزلته التي اختارها بشكل طوعي، ونحن صغار كنا نتصوره شخصا معزولا وباردا، الاكتفاء الذاتي بهذه العزلة كان يجعلني أنا بالذات أنظر إليه كحقيقة لا إنسانية، بعد الزواج عرفت أني قد انخرطت في هذه العزلة، عرفت أني على الطرف الآخر من الحياة الاجتماعية، وأن كل ما تبقى في حياتي هو تعليق على هذه العزلة الطوعية، العزلة ليست انطباعا سلبيا عن العالم، بل هي مراقبة للعالم ببراعة

فكرية وروح صوفية تبتعد بها عن خبث القيل والقال. نظرت إليه وهو نائم مثل طفل، الإنسان وهو نائم يظهر كأنه تحت رحمة مثالية لا تقهر، مسالم، طيب، ودود، هكذا كان الإنسان في بطن أمه وهكذا سيكون في بطن الأرض. خرجت من الغرفة التي ينام فيها، ذهبت للتدخين في الفناء الخلفي، أشعلت سيجارة، نظرت إلى السماء البعيدة، ليلة هادئة لم نسمع فيها إلى الآن صوت رصاصة واحدة، نظرت إلى الهاتف فوجدت مكالمات كثيرة من إخوتي، لماذا أترك الهاتف دائما في حالة الصامت؟أشعر أن صوته فيه خيانة للعزلة، أي متعة في الرسائل المملة ومكالمات المجاملة، صوتها ورسائلها فقط هو ما يهم، أما الباقي فلا يشير إلى شيء سوى الاستياء، أتبع مسار دخان السيجارة وأبحث عن طريقة للتواصل مع والدي تجنبنا خلافاتنا القديمة، لدينا أنا وهو سجل أسطوري من اختلاف وجهات النظر في أمور كثيرة، لهذا كنت أتجنب الأحاديث المطولة معه، رواقية والدي المتطرفة جعلته يعرف الكثير من خيبات الأمل، لا يمنح تفاهة الحياة وسخريتها أي فرصة للفوز في بعض الأيام، هذا مرهق جدا، ومؤلم جدا، الآن أنا معه على مدى ساعات اليوم، عليَّ أن أجد طريقة أتجنب بها لهجة التوبيخ، لدي رغبة في السيطرة على هذا الوضع الذي وجدت نفسي فيه، لكن في نفس الوقت أشعر بالدوار بسبب كثرة ما أفكر فيه، لدي وجهة نظر متشائمة تجاه الزمن الذي قد يحتاجه دخول الجيش إلى الصابري، لهذا لابد من

وضع خطة لجعل الحياة ممكنة وإلا قد تأتي لحظة تكون فيها الحياة مستحيلة، الفناء صامت على غير العادة، أعتقد أنه يستمتع الآن برحيل الأولاد والبنات عنه، ارتاح من معاركهم فيه والقفز في كل مكان مع الصراخ بنشوة، الهواء يتنفس ببطء شديد، الحلم نعسان ويجلس في الكرسي المقابل للأرق، أشعلت سيجارة أخرى وبدأت أفكر في ترتيب الأمور وكأن العالم في آخر مراحل وجوده، وكأن الحياة كانت تتحطم أمامي دون صوت.

يقال إن «كانت» الفيلسوف العظيم لم يتناول طعامه لوحده ولو لمرة واحدة، وعندما لا يكون معه أي صديق كان يرسل الخادم إلى الشارع لجلب أي شخص لتناول العشاء معه، لابد من حديث لتنشيط المائدة، الحديث على المائدة يزيد من حجم المودة، لابد من استخدام هذه الفائدة الخفية، وتناول الطعام مع الوالد ثلاث مرات في اليوم، مع الحفاظ على نغمة الموافقة أو الصمت أثناء الحديث، بهذه الطريقة سيكون لدينا فرصة إضافة ميزة للطعام وهي العثور على نقاط اتفاق، لابد من جعل الطعام تجربة عاطفية وروحية، الحديث هو الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يمنحنا فرصة طرد الملل أو الجنون، هناك فارق جوهري بين علاقتنا بهذه اللحظة الفاصلة، و بين ما تفرض علينا هذه اللحظة القيام به، ما يخص شؤون البيت من نظافة وترتيب وطبخ وغيرها، فهذه الأمور أنا معتاد عليها منذ اليوم الأول بعد نهاية زواجي،

الجديد حقا هو أنني عليَّ الاعتناء بشخص آخر، وهذا أمر يجعل هذه اللحظة التي اتخذت فيها قرار البقاء مرعبة أكثر، عليَّ أن أتكيف مع الظروف الحالية، عليَّ التفكير في الطقوس الخاصة بالطعام والحديث بدرجة عالية من العاطفة، لم يعرف والدي الأكل في المطاعم إلا نادرا، ويعتبر هذا النوع من الطعام خالياً من النكهة أو الهوية، ولا يحب الأجواء الصاخبة أثناء الأكل، و لأنه يعرف جيدا معنى الروائح والنكهات والألوان فمن الصعب أن ينال شيء رضاه بسهولة، بعد وفاة أمي لم يعد مقتنعا بوجود طعام في بيتنا، كل طعم زوجات أخوتي هو روث مطبوخ بالنسبة له، لكن عليَّ أن أحاول إرضاء هذا الذوق المرعب بأي طريقة، ما هو مهم هو ما قاله ليفي شتراوس: «الطعام لغة تنقل الألفة»، لكن في الوقت نفسه يجب أن لا أنسى استراتيجية المحافظة على كميات الطعام.هناك مسألة أخرى عليَّ التفكير فيها وهي أوقات الفراغ الطويلة، لابد من تناوب الليل والنهار، لابد من تناوب غريزة الحياة والموت، في العزلة يعرف الإنسان لون الوقت، في هذا البيت نحن لسنا الواقع، نحن جزء من الواقع معزولاً ومشوهاً، اليوم هنا سيكون مشوها، ليس هناك ليل ونهار، الدورة اليومية منفية من هذا البيت، لن يكون هناك منتصف النهار، المساء، الليل، اليوم من هذه اللحظة كله ليل، ماذا أفعل لكسر هذا الصمت الليلي، القراءة هي الشكل الحاد من الذكاء ضد الملل، لكن والدي وبسبب ضعف نظره الشديد لم يعد يمتلك هذا الذكاء منذ زمن طويل، أنا

سأكون إعادة مسار هذا الذكاء من خلال إعادة القراءة، القراءة هي الممر الأسطوري الذي سأتجول فيه معه، في أرض الأحلام التجول لا نهاية له، إنها صدفة جميلة يتذوق فيها والدي طعم علاقة جديدة بالآخر وبالوقت، لن يكون إقناعه سهلا بكل تأكيد، لكن العلاقة العميقة مع أشباح الكتاب لن تترك له مجالا للرفض، القراءة قد تجعل هذه العزلة غير الطوعية ناعمة أكثر، القراءة هي الشراع الذي سيدفع الوقت إلى الأمام، يجب أن أنسى كلام دريدا في كتابه «صيدلية أفلاطون» عن الفارماكون والكتابة، أنا أقف الآن إلى جانب أفلاطون، الكلمة الشفوية لها عنصر مجنح وخفيف الوزن، سادة الإنسانية هم سادة الفم، أنا مع فيثاغورس الذي اختار عدم الكتابة مع سقراط الذي لم يترك شيئا مكتوبا، سأكون الصوت الذي يحمل والدي بعيدا في مغامرة جديدة، الفم الذي يقرأ هو الحلم الذي يأخذه بعيدا عن الحرب وبعيدا عن التفكير في لون الوقت، سوف أمثل دور ألبرتو مانغويل الذي يقرأ لبورخيس الأعمى، ليس هذا فقط سوف أمثل أيضا دور أدولفو بيوي كاساريس صديق بورخيس الذي يجتمع معه في بيت صغير سري، يقومان بالتنقل بين غرفة الطعام والمكتبة، أصبح كاساريس صديق بورخيس بعد محادثة كانت في عام 1931 على الطريق من سان إيسيدرو إلى بيونس آيرس، بورخيس كان أحد أشهر الكتَّاب الشباب في الأرجنتين، أما كاساريس فكان ولدا صغيرا نشر كتابا واحدا بشكل سري، كان لديهما نفس الشغف بالكتب

وهذا ما كان يجمعهما، أنا ووالدي لدينا نفس الشغف وهذا ما سيجمعنا في الأيام القادمة.تأخر الوقت دخلت واستلقيت على الأريكة بجانبه، نظرت إلى وجهه الذي ينيره ضوء شحيح قادم من الصالة، نظرت إلى هذا الوجه الهندسي للغاية، كأن يد الفنان جياكوماتي لمسته لكي تنقذ ما تبقى منه، لا يحتاج هذا الوجه إلى مرآة، بل إلى مؤرخ أو عالم إيقونات لتفسير هذا المظهر الحزين للوجود، أغلقت عينيّ فرأيت وجهها هي بكل تفاصيله، لا أحد يعرف النكهة الرائعة فيه كما أعرفها أنا، هذا الوجه الذي يتم النظر إلى كل شيء فيه، كل شيء لا أراه أجده في هذه الليونة اللطيفة لخديها، في الخطوط غير الصلبة ولا الحادة لوجهها، الجبهة المتصلة بالأنف والعيون، وجهها حلم مذهل أحاول كل ليلة أن أصنع من تفاصيله الحياة نفسها.

استيقظت قبل الفجر بقليل أحضرت له ماء الوضوء، صلى وهو جالس كالعادة، كنت في الصالة أسمع همسه ببداية سورة الرحمن، وعندما انتهى من صلاته وضع رأسه على الوسادة، مسك يدي برفق كأنه أرد أن يقول كلمة شكر، اليد قادرة مثل العين على قول كلمات طيبة.الصباح جاء بسرعة كأن طريقه ليس فيها أي عقبات، كأن طبول الحرب لم تقف في طريقه، و لا الخريف بلسانه الأصفر العنيد، و لا الصابري وهو يجهز كفنه بيده، كانوا قادرين على تأخيره، عليَّ أن أترك الأريكة لدي أمور

كثيرة يجب القيام بها، للصباح دائما ذاكرة منفصلة، كأنه خارج اليوم، قبل أن يكون لديك أي عاطفة أو اشمئزاز تجاه اليوم، يأتي الصباح دون أي رغبة منه في إزعاجك أو خلق أزمة ما، الصباح لا يعرف مناوشات الليل الخبيثة، كنت على وشك ترك الأريكة والنهوض، لكني فتحت الهاتف فوجدت رسالة من بياتريس تعتذر فيها عن كلماتها في مكالمة البارحة ومعها صورة صباحية لها، الرسالة كلمات مخطوفة من اللغة، جسد غريب مقطوع من الوظيفة الاجتماعية للغة، عندما تنظر إلى اسمك في رسالة تشعر بأنه مكان الرغبة والصراع والاعتراف، الرسالة نداء مؤجل، لقاء مؤجل، إنها العنصر الذي يربط الماضي بالحاضر، الرسالة هي هذا الحنين الذي يسد الفراغ، هذه الرسالة كانت تمثل بالنسبة لي ملاذا داخل ملاذ، أما ما يجعل الرسالة حميمة أكثر فهو السرية، إنها عمل خاص، وإذا نظر إليها شخص آخر ستكون مستحيلة ولغة بدون معنى، وجهها الصباحي، الكتف، الرقبة، كل ملامحها تقول جرب أن تفطم نفسك عن الحزن.ذهبت إلى الحمام وعندما عدت كان والدي قد استيقظ، ساعدته على الوقوف وأخذته إلى باب الحمام على مهل، وانتظرت في الخارج إلى أن خرج وساعدته في العودة إلى سريره، إعداد الفطور أخذ مني وقتاً طويلا، البحث عن كل صغيرة وكبيرة أمر ممل، لكن في النهاية كان الفطور جاهزا، أومليت بالخضار وقطع جبن شيدر أبيض بنكهة حامضة مع كوب حليب له وقهوة لي، وضعتها على

الطاولة أمامه، و جئت بكرسي من الصالة وجلست قُبالته، نظر إلى الطاولة مبتسما وجال بنظره في الغرفة والصالة، لم يعرف والدي معنى المنازل الذكية، و لا يمكن أن يحتمل هذه الفكرة، هذا البيت الذي بناه قبل أكثر من ستين عاما يشكل معنى الألفة بالنسبة له، لقد أصبح بيتنا من منازل الأمس، الشبابيك الخشبية، إطارات الأبواب القديمة، البلاط عتيق الطراز، لا يفكر والدي أبدا في الجوانب السلبية لهذا البيت، و الحقيقة أنا أيضا لم أفكر فيها، ثلاث غرف وغرفة الزوار وحمام ومطبخ، بيت ليبي تقليدي جدا، ربما لم يكن المنزل المثالي بمواصفات هذه الأيام، لكن يبقى أن ذاكرتنا انتقائية ولن تختار إلا هذا المنزل لتكوين علاقة حميمة مع مفهوم المأوى، صحيح لا يوجد ديكور، أو زخرفة من أي نوع، لا يوجد جاكوزي أو مكان للتريض، لكن هذا البيت يتشابك من خلال الخيال مع الطيف اللذيذ لأمي، اختياراتها، ترتيبها، الصور التي علقتها على الجدران، كل شيء هنا له هوية ترتبط بهويتها الشخصية، ذكريات الطفولة والذكريات المتعلقة بالعائلة في كل زاوية من زوايا هذا البيت، ثم هناك البحر الذي يشكل جزءا من نسيج المنزل، أتذكر الآن أمي وهي تصرخ فينا بعد عودتنا الجماعية من البحر، كان تنظيف الرمال القادمة معنا من الشاطئ أمرا مزعجا بالنسبة لها، هذا البيت تجربة مشحونة عاطفيا، لا علاقة لهذه التجربة بالديكور أو الزخرفة أو البلاط، لها علاقة فقط بحميمية الطقوس والممارسات اليومية في هذا البيت.والدي يتناول فطوره

ببطء وأنا أتذكر معه تفاصيل رائحة بيتنا القديمة، وعندما انتهى من فطوره لمحت له عن تشائمي تجاه فترة بقائنا هنا، كان لديه نفس الشعور وقام بحركة تنطوي على تأكيد أنه لم يكن ينوي الذهاب إلى أي مكان قبل بداية الأحداث ولا ينوي ترك هذا البيت تحت أي ظرف، في هذه اللحظة المناسبة أخبرته أن علينا أن نخترع طريقة نجتاز بها هذه الفترة من الزمن، و اقترحت أن أكون بصره الذي ينظر به إلى الصفحة، ابتسم وأعلن موافقته دون تردد، وعندما سألته عن الكتاب الذي يريد قراءته قال دون تردد:الكوميديا الإلهية لدانتي، لا أدري لماذا اختار هذا الكتاب بالذات، كأنه كان يعرف بأمر بياتريس وأراد أن تكون حاضرة معنا في هذا المنفى الاختياري، أخذت الصحون من أمامه دون أن أقول أي كلمة، حملت فنجان القهوة وخرجت للتدخين في الفناء الخلفي، كانت السماء غائمة وملامح الشتاء بدأت تظهر في الأفق، الصابري هادئ لدرجة أنك تشعر ببرودة الحي، لا أدري ما إذا كان هذا أمرا مشجعا أو أنه هدوء ما قبل يوم القيامة، هدوء يحجب سر الأيام القادمة، لم ينقطع التيار الكهربائي إلى الآن عن الحي، الاتصالات تعمل بشكل طبيعي، لا شيء يدل على أن هناك أي أحداث قادمة، وأنا في الفناء الخلفي أشعر أني الكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثورو الذي عاش لعامين في كوخ بسيط، أراد أن يعيش تجربة روبنسن كروزو، العزلة كانت موضة ذلك العصر، لقد خلق هذا الكاتب كلاسيكيات العزلة، كان يكره المجتمع،

ويكره ما يرغب فيه المجتمع وما قد يود المجتمع الحديث عنه.

دخلت وأقنعته بالخروج إلى الفناء قليلا، وضعته على الكرسي المتحرك وضعت على رجليه غطاء خفيفا، عندما وصلت به إلى الفناء نظر إلى السماء ثم أغلق عينيه لبضع لحظات، ربما فكر في هواء فصل الشتاء الذي يحبه، أو في أمي وهي تضع يدها على ركبته وتتذكر معه أيام الشباب، وضعت يده جيدا على مسند الكرسي، أخبرته أن لدي أعمال منزلية يجب أن أقوم بها، مازلت أجد صعوبة في القيام بأعمال التنظيف المنزلية، هذه الأعمال بالذات تتحدى كفاءة أي رجل، وهي أيضا أكبر دليل على أن الإنسان قادر على تحدي الظروف، غيرت ملاءات سريره، دخلت إلى الحمام الذي يبدو شديد الرضا عن نفسه ولا يحتاج إلى تنظيف من أي نوع، ومع ذلك قمت بتنظيفه، ثم دخلت إلى المطبخ وانتهيت هناك من هذه الأعمال الشاقة، جلست على درج البيت ودخنت سيجارة، ثم رجعت به من الفناء وقبل أن أصل إلى غرفته سألني: «هل ستقوم بإعداد وجبة الغداء»، «نعم سأفعل»، «ضعني بالقرب من باب المطبخ»، فوجئت بهذا الطلب لكن من المهم للغاية قول حاضر في كل الأوقات، بدأت في إعداد حساء الدجاج بالخضار مع الرز الأبيض، كان يراقب بعيونه الصغيرة والضعيفة كل حركة أقوم بها، لا أدري لماذا يرفض تماما استخدام نظارته الطبية، ربما لم يعد لديه الحماس أو

الفضول لرؤية أي شيء بوضوح تام، فجأة مرة أخرى سألني:لماذا طلقتها؟ لم تتحدث أبدا عن هذا الموضوع»، فكرت قليلا ثم قلت:الزواج يحتاج إلى رجل محنك للغاية، رجل لا يحتاج أعصابه بقدر ما يحتاج زوجه، الحياة في الزواج ليست عادية، إنها دون العادية بكثير، في عصر ضعيف ثقافيا لا أحد يفكر في ما الذي دفعه للزواج! لا أحد يفكر في معنى العلاقة الجيدة، نحن يا أبي ورثة قرن عنيف وحزين بشكل مفرط، قرن معقد وغريب الأطوار، نواجه صعوبة في فهم الحب والسلام والحميمية، الزواج نفسه تغير وأصبح علاقة معقدة، كان عليَّ أن أتخلى عن كل شيء آخر في حياتي مقابل زوجة، هل تقبل هذا الخيار؟الإنسان يحاول الحصول على أفضل ما فيه، لكن الزوج يجرك رغم أنفك إلى أسوء ما فيك، وهذا لا يعني أبدا أنها كانت إنسانة سيئة أو زوجة سيئة، أبدا، أنا لم أقصد ذلك، الزواج نفسه مؤسسة خام وعمياء وخطيرة، في الزواج يصبح الواقع عقيدة، وأنت ترفض ذلك في قرارة نفسك، تريد أن تحلم وقمع الحلم يولد الشك وعدم الثقة في هذه المؤسسة.لم يتحرك حركة واحدة وأنا أتكلم، وعندما توقفت، نظر إلى الأسفل طويلا وقال:لقد أدمنت العزلة، هذا الإدمان هو ما يقود الإنسان إلى لحظة الاختيار، الآخرون الذين ينظرون إلى الواقع كعقيدة ليس لديهم وقت للتفكير في الاختيار، هؤلاء لا يفكرون في اختيار اليوم أو الغد، هذا الخيار غير مطروح في الحياة الزوجية، في الزواج الحياة تسير في خط مستقيم، في

العزلة الحياة دائرية، هذه الحركة الدائرية تحافظ على استقلال صارم، العزلة تجعلنا نشعر أن الحياة تحمل في داخلها أكثر مما يتحدث عنه الزواج، إنه الحب الذي يجعلك تتغلب على الشعور بالانفصال، أنت لم تكن تحبها وربما الحنين إلى رفض دمج أي إنسان في حياتك هو ما دفعك إلى الطلاق، منذ طفولتك وأنت مثل عمود الضباب الأبيض، واخترعت مساحة للعزلة وسط تلال الآخرين، هذه العزلة التي فرضتها على نفسك هي عزلة كاتب، لكنك لم تكتب شيئا إلى الآن، مشغول بالقراءة كنحلة لكنك لم تنتج شيئا يذكر، كان في كلامه جزء كبير من الحقيقة، لم أعلق ولا بحرف واحد، طلب مني العودة إلى غرفته ليصلي الظهر، وعندما جلس على السرير قال:رائحة الطعام رائعة، لم أشم هذه الرائحة منذ موت أمك، أما زوجات أخوتك فعليك أن تغمض عينيك وتسد أنفك لتناول وجبة من صنعهن، قال ذلك وضحك وضحكت بدوري من هذه النميمة المفاجئة قبل الصلاة، عندما وضعت وجبة الغداء أمامه كان مستمتعا بالرائحة، و أكل باستمتاع كبير إلى درجة أنه أصدر أصواتا تدل على ذلك، وقال دون أن ينظر إليَّ:الطعام الجيد يجعلك تشعر أنك على قيد الحياة، بعد وجبة الغداء نام، القيلولة أمر مقدس، إنها إحدى العادات العميقة في المجتمع، ذهبت إلى الفناء واتصلت بالجميع لطمأنتهم على الوضع، أخبروني أن التفاؤل كان خطأ وأن المدة قد تطول وعليَّ محاولة إقناعه مرة أخرى بالخروج من هذا المأزق، لكنهم يعرفون

أن والدنا مثل القاع الصلب الذي تتحطم فيه كل محاولات تغيير رأيه، انتهيت من الاتصالات ذهبت إلى الأريكة فبعد التعب الذي عرفته اليوم كنت أراها زهرة العالم.

في المساء نزل مطر خريفي ليسقي أرض الحزن والجفاف، أرض أحرقتها الشمس ورياح باردة تكسر الحلم، القهوة أمامي والدخان يعبر الفناء إلى حيث ترسله العواطف، الدخان يسير بسرعة، إنه على وشك الخلاص مني ومن الفناء ومن الصابري، كم أتمنى لو يأخذ معه ظلي بعيدا عن الخريف، وعن مناطق الحزن المظلمة، عن المكان الذي يتحدث فيه الصمت لكن بعنف شديد، بياتريس كانت تقول نحن من طينة واحدة، من جنس القصب العنيد الذي ينحني لكن لا ينكسر، قلبي يتوق إلى مسك يدها، إلى مكان جلسنا فيه معا، الجلوس معها يشبه الخلاص من الفراغ، معها المدن ليست هي نفسها، الشوارع تلبس قبعة قش هروبا من حرارة الشمس، بيروت دائما في عيونها أجمل من الحقيقة، في عيونها سائق التاكسي، طاولات المقاهي، طوابير الكتب المستعملة، ديكور غرفة الفندق، شباك يقف على حافته عصفور يغني، هذه هي بياتريس وهذا أنا هنا في الفناء الخلفي بلا فضاء آخر أو طمأنينة، في شارع كان يعيش في عيون جاراتي وصديقات أمي، الحاجة عائشة، الحاجة حليمة، الحاجة صالحة، الحاجة ربيعة، لقد ذهبن مع أمي إلى الموت في هجرة جماعية،

تركن الشارع يتيما لا يعرف إلا الخوف والندم، شارع ممنوع من الرغبة في سماع صوت بنادير (دفوف) زوايا الصابري، و لا أعلام وحلوى المولد النبوي، ولا صوت بنات الجيران الذي يسكن فيه الحنين والحلم، عدت إلى الفناء على صوت طلقات بعيدة، أطفأت السيجارة ودخلت لقد حان موعد القراءة وعليَّ أن أستعد. علينا أن نقترب الآن من هذه التحفة الفنية، جلبت المجلدات من المكتبة، وضعته برفق على الكرسي المتحرك ودفعته إلى الفناء والمجلدات بين يديه، كان قد قرأ الكوميديا الإلهية عشرات المرات قبل هذه المرة، لكنه دائما ما يعود إليها ليسترجع الرؤى المصورة، أو الألم العميق بسبب التفكير، دانتي من الكتَّاب الذين يكتبون ضد القارئ، وهو يضع كتاباته في مكان نظيف ومغلق ويحرسه سوء الفهم، وهذا كان رأي بودلير فيما بعد، فبعد أن حاول فيكتور هوغو جعل الشاعر صوت الإنسانية، هاجم بودلير القارئ المنافق وقال القارئ وحش لهذا دعونا نحب شعرنا سرا في المكان الذي يختبئ فيه، دانتي وبودلير يحتقران القارئ الذي يبقى على حواف الكتاب الخارجية ولا يدخل إلى العمق، والدي كان مع هذا الرأي ودائما يقول:الكتب تحتاج إلى أوعية جيدة، وتهرب من الوعاء المجوف بطريقة سيئة، تهرب من الوعاء الجاف والبارد، أنا قرأت الكوميديا أكثر من مرة، دائما ما أتعثر في دانتي، بسبب سطوع الضوء في الكوميديا، بسبب الضجة الهائلة التي تحيط بها من كل جانب، الآن هذه تجربة فريدة مع قارئ يرفض مقاومة الكتاب له،

نظر إلى المجلدات بين يديه وقال:هناك أمور عليك أن تعرفها قبل قراءة الكوميديا الإلهية، عليك أن تفرك عقلك قبل عيونك لقراءة هذا الكتاب، هناك أشياء يجب أن تعرفها عن دانتي وأشياء عن كتاب الكوميديا الإلهية نفسه، لكي تكون البداية صحيحة لابد أن تقرأ فيتا نوفا (الحياة الجديدة) لدانتي، في هذا الكتاب يلتقي دانتي وبياتريس، و أنا أحب أن أتخيل اللقاء كما صوره الفنان هنري بريرافاييليتي في بونتي سانتا ترينيتا، يقف دانتي عند نهاية الجسر فتمر من أمامه ومعها صديقاتها الأخريات ينظرن إليه أما هي فتتجاهل وجوده تماما، لكن هذا التفاخر في شكل رضا عن النفس كان يخفي مقاومة النظر إلى دانتي، نظرته كانت تقول ما أراه هو أنتِ، ما أراه هو هذا الوجه وكل الباقي في المشهد لا يهمني، الوجه يعلن الغياب البدني للآخر، الجسم يختفي ويبقى الوجه الممتلئ بالمضمون، الوجه هو بداية المغامرة مع الآخر وهو الممر الذي نجد فيه المألوف والغريب، لا يمكن قراءة دانتي دون فهم هذا اللقاء المفاجيء والذي تشعر بأنك قبله كنت تعيش رعب الفراغ.

كنت أرتعش وهو يقول هذه الكلمات، مجرد نطقه لاسم بياتريس كان يجعلني أنتفض مثل ورقة في الخريف خطفتها الرياح من غصن شجرة، في كلماته حقيقة فائقة تجاوزت إدراكي لمعنى اللقاء، كان وجه بياتريس في أول مرة أنظر إليها ما هو إلا عملية

إفراغ نقية لكل الوجوه التي عرفتها من قبل، عندما أغلقت عيناها للحظة كانت قد فتحت ردهة أسير فيها للجنة التي لا يمكن التنبؤ بها، كانت تحاول أن تصل إلى الحد الأدني من الظهور، الحد الأدني من الحزن الذي ينهض ويعرض نفسه كمشهد أخير للوجه الإنساني، كنت أتابع كلماته بشغف وهو يقول:بكل تأكيد أنت تعرف أن دانتي ولد في عام 1265 في فلورنسا، كانت مدينة جميلة وغنية ويسكنها سبعون ألف نسمة في ذلك الوقت، عائلة دانتي فقيرة جدا بالرغم من أن والده كان يقرض المال بمعدل فائدة عالٍ جدا، و الده المرابي سبب له الكثير من الإحراج، بل تم الهجوم على دانتي ونسبه بسبب أعمال والده المشينة، توفيت والدته وهو في الثامنة من عمره، و في التاسعة التقى فتاة كان يدعوها بياتريس، وجد في هذه الفتاة حب الأم المفقود، ذهب إلى المدرسة في فلورنسا، و لم يذكر دانتي أيا من المدرسين الذين علموه إلا برونيتو لاتيني مدرس البلاغة الذي يضعه في الجحيم الذي اخترعه، دخل دانتي الحياة السياسية في فلورنسا، السياسة في فلورنسا كانت صراعا بين حزب الغبليين الذي يجمع من كان ولاؤهم للإمبراطورية، و حزب الغلفيين الذي يجمع من كان ولاؤهم للبابا، الغبليون معظمهم من الإقطاعيين، أما الغلفيون فمعظمهم من الصناع والتجار، وينقسم هذا الحزب إلى الغلفيين السود المناصرين لمصالح البابا، و الغلفيين البيض المعارضين لمصالح البابا في فلورنسا، دانتي كان مع الغلفيين البيض، في عام 1302

يذهب دانتي في وفد من فلورنسا للتفاوض مع البابا، لكن كانت هناك مؤامرة ضد هذا الوفد دبرها البابا ومن حوله، قام بحبس الوفد إلى أن وضع الغلفيين السود في السلطة ثم أطلق سراحهم، لم يرجع دانتي إلى فلورنسا مباشرة، واختار الانتظار قليلا، علم أنه حوكم غيابيا بتهمة الابتزاز والربح المحضور، وعصيان البابا يمنع من العودة إلى المدينة بسبب مكائد من أعدائه، ويتم توزيع ملكيته ويطلب رأسه، وهذا الحدث هو بداية حياة جديدة بالنسبة لدانتي، يعيش في المنفى، وهذا أبشع ما كان يمكن أن يحدث لإنسان في العصور الوسطى، أنت بلا مدينة يعني أنت لا شيء، وعليك أن تتسول مدينة، لكن هذا المنفى الداكن جدا تحوّل إلى نعمة مع الوقت، لم يعد دانتي ينتمي لأي حزب أو جماعة أو إنسان، لقد أصبح ولاء دانتي التام للأدب.المنفى سمح له برؤية أفضل للناس والمدن، تعلم كيف ينظر إلى العالم المجزّأ والمؤقت ثم يجمعه هو برؤيته في كتاب.المعروف عن دانتي أنه ينتقل من كتاب إلى كتاب دون إكمال أيٍّ منها، وينطبق هذا الأمر على فيتا نوفا، تشير الحكاية إلى شباب دانتي، ويتخيل نفسه الشاعر الذي يقع في حب بياتريس التي عرفها في حياته المبكرة، يصف دانتي في فيتا نوفا حبه لبياتريس وموتها، وذهاب دانتي إلى الحج بعد هذه الخسارة الفادحة، وينتهي الأمر برؤية فيها حياة جديدة مليئة بالشباب، يمكن اعتبار فيتا نوفا سيرة ذاتية لدانتي، لكنها سيرة غريبة، فإلى جانب معنى جديدة كلمة نوفا في الإيطالية

تعني مفاجأة، غير متوقع، غريب، حكاية، وعلينا أن نفهم معناها من خلال السياق في كل مرة، ليس هناك شيء ملموس في فيتا نوفا، القصة في فلورنسا لكن دانتي لم يذكر فيها فلورنسا أبدا، نحن نستنتج ذلك بسبب وصفه لنهر يعبر المدينة فقط، كتب دانتي فيتا نوفا وهو في العشرين من عمره، وعندما أكمل كتابتها أرسلها إلى صديقه المقرب جدا غويدو كافالكانتي فيرد غويدو بأن دانتي على حق، وأنه لا يمكن الوثوق في الحب، و أن عليه أن يترك الأمر ويتراجع، يرسلها إلى صديق آخر هو الطبيب دانتي دا مايانوا، فيقترح على دانتي أخذ حمامات باردة لأنه يعاني من مشاكل روحية، لم يكن مفهوم الحب واضحا في تلك الفترة، الصداقة كانت معروفة وواضحة أما الحب فهو غامض، وعادة ما تكون علاقة الحب سرية جدا، أما الزواج فمرتبط بالأعمال والمصلحة، الحب موضوع محرج ومؤرق بالنسبة لشعراء تلك الفترة، هل يمكن أن تقع سيدة في حب عبد؟هل يمكن أن يقع أحد النبلاء في حب امرأة من عامة الناس؟هذه الأسئلة وصعوبة الإجابة عنها تجعل من الحب شبحا ليس له مكان بين الناس.

صوت والدي يبعثر النور في الفناء، في زمن الإغريق كانت المرثية قصيدة مكتوبة بحب، وكانت تستخدم في النقوش على شواهد القبور، والدي كان يقول مرثيته بأناقة شديدة ومفرطة في حزنها، كان يكتب مرثيته على جدران الفناء، مرثية بنغازي،

الصابري، يكتب مرثيته الخاصة، أليس هذا هو الثمن الذي يدفعه الإنسان في كل حرب، ليست المرثية سوى عجز اللغة أمام قوة الحرب والموت، عجز أمام الكارثة التي لا يمكن التغلب عليها أو إيقافها، حتى في الحرب يمكن للإنسان أن يتحدث عن الحب، أليست هذه الحرب لإنقاذ بنغازي؟هذا يعني أنها حرب متوحشة، لكن فيها بقعة حميمة يتم قبولها بشكل مأساوي، صوت والدي يزرع الفناء بقطرات عرق تسقط الآن من على جبينه إلى الأرض، لم يكن الجو حارا، هذه القطرات هي ندى الحياة فيه، هي متعة التنصل من الزهد الكاذب، أو ربما مرارة الاستياء من فصل الحياة عن متعة الحياة، مسح بيده حبات العرق التي اختارت البقاء على جبينه وهو يقول:لقد أخرج دانتي في فيتا نوفا الحب من الظلام إلى النور، كان شعراء البروفانس لا يستطيعون حتى وصف حبيباتهم، يجب حفظ الشغف بالحبيب بعيدا عن عيون المتطفلين، لأنهم سينتهكون سر الشاعر، يجب حماية السر، يجب عليه الانفراد بشغفه، يجب أن لا تظهر على الشاعر أعراض الحب، عليك بكبح جماحك، عليك بنسيان تكثيف البهجة أو الكآبة أمام الآخرين، دانتي ينظر إلى الحجاج–وهو يقصد بهم الشعراء هنا–في شوارع فلورنسا، يفكر في الناس والأشياء التي تركوها خلفهم في منازلهم، هؤلاء القادمون من أماكن بعيدة، لا وجود لعلامات حزن على وجوههم وهم يمرون بطرقات المدينة، في فيتا نوفا يؤكد دانتي أنه ليس مثل هؤلاء الحجاج أو الشعراء،

هو لا يذهب إلى أي مكان، يتحرك فقط في دوائر لا نهائية، كل ما قاله هو دوران لا نهائي حول بياتريس، هؤلاء تركوا العالم من أجل عالم آخر، هو ترك العالم خلفه من أجل بياتريس، لقد حوّل دانتي أسطورته الخاصة إلى أسطورة عامة، لم يعد الحديث عن الحب عاما وغامضا وغير مفهوم، لقد تحدث عن الحب الخاص، الحب لكائن محدد وهو بياتريس، وهنا النقلة التي كانت في الكوميديا الإلهية.طرحت عليه فكرة أن يرتاح قليلا لكنه رفض، ربما هذه هي المتعة التي كان ينتظرها، متعته بالحديث، الكوميديا تقول:أنا أكره كل شيء خارج الأدب، الأدب وحده هو ما يبرر وجودي، إن كل ما تبقى مني هو الجملة، الحرب كلها لا تكفي لنصف محادثة مع كتاب.

في حركة يديه شيء جذاب، كأنه يجلس في وسط العالم فوق تربة عذراء لم تعرف الدم، نظر إليَّ بحزم وهو يقول:فيتا نوفا كانت ممارسة لتقنية كتابة الكوميديا الإلهية، لقد كتبها دانتي بطريقة شعرية كانت تُقاوم بشدة من قِبل الشعراء، و عرض فيها طريقة في الحب تُقاوم بشدة من قِبل المجتمع، لكن الأهم من ذلك كله هو منح كاتب الأدب سلطة لم يحصل عليها من قبل، كان اللاهوتي يتوسط العلاقة بين الله والإنسان، دانتي من جعل الكاتب يتوسط العلاقة بين الإنسان والحياة، كان دانتي ضعيفا، لم يكن لديه أيا من الصفات التي قد تساعد في تحويل طموحاته ورؤاه الأدبية إلى

سلطة، بالنسبة لعالم القرون الوسطى في أوروبا كان الله هو أعلى مؤلف ؛ لأن الكتاب المقدس من تأليفه، ثم يأتي كتَّاب الكتاب المقدس، ثم المعلقين على الكتاب المقدس، ثم أرسطو وفرجيل، في عالم يسيطر عليه رجال الدين وأصحاب المناصب العامة، لم يكن لديه أي فرصة لطلب سلطة مستمدة من كتاباته الأدبية، الأدب لم يكن مؤسسة حاكمة، خاصة وهو يكتب بالعامية، وفي هذا إبعاد لنفسه عن الجوهر المتعالي للثقافة اللاتينية، لم ينظر إلى دانتي إلا كمعلق على المؤلفين الكلاسيكيين، في الإيطالية autore تعني مؤلف، auetorites تعني سلطان، auctoritates تعني سلطات، لكن السلطة في النص لا تأتي إلا من المؤسسة التي تمنحه هذه السلطة، و الكاتب في مجال الأدب يعمل خارج كل السلطات، هناك سلطة واحدة يمتلكها الكاتب هي سلطة جودة النص، الجودة وحدها تجعل الكاتب يستحق القراءة، فقط بعد ظهور التعليقات الواسعة على الكوميديا الإلهية التي كتبها من أجل هذه السلطة، تم التعامل مع دانتي بنفس الاحترام الذي يعامل به كتَّاب الكتب الكلاسيكية المقدسة، هناك سلطة جديدة ظهرت مع الكوميديا الإلهية وهي سلطة حسن الاستقبال، الاستقبال الجيد والواسع يمنح الكاتب سلطة وهذا ما فتح الطريق أمام مفهوم الكاتب الحديث، ظهر هذا المفهوم تدريجيا ما بين القرن الثالث عشر والثامن عشر.

بين الكلام الذي قاله والدي وبيني مسافة سرية، كان صوتا في داخلي مخنوقا بالدموع، كان صمته بعد كل ما قاله مجرد لحظة مستديرة من الحزن والتعب، قلت مازحا لتغيير الأجواء الحزينة والجدية : لقد قلت ما فيه الكفاية عن الحب اليوم وعليك أن تستريح الآن، ضحك من صميم قلبه، كأنها الضحكة ما قبل الأخيرة، دفعت الكرسي المتحرك ومعه الحياة غير المتقنة، دفعت معه الارتباك أمام كلماته البالغة الروعة، وضعته في سريره وذهبت إلى المطبخ وجئت بكوب ماء، وجهه لم يكن متجهما كما هي العادة، كأنه مستسلم لمتاهة ساحرة هو فيها غريب وعابر، عدت إلى المطبخ لعجن الخبز، أرهقني تخمين أين أجد ما أحتاج إليه، لكني وجدت كل شيء في النهاية، وضعت بعض الدقيق في الغربال، الدقيق يهبط ببطء، كنت أفكر في بياتريس وكيف نطق والدي اسمها مرات عديدة، الدقيق يتسلل من عيون الغربال وشوقي إليها يتسلل إلى روحي، أتذكر الآن اتصالها بعد يومين من اللقاء الأول، التقينا في المساء في مقهى بزيتونة باي، وبعدها ذهبنا لتناول العشاء في مطعم عنب، الطعام يجعلنا نفكر في محادثة حية ولذيذة، المحادثة تشبه عجين الخبز، الدقيق بملمسه الناعم، القليل من الملح، القليل من السكر، و خميرة الخبز، ثم يأتي الماء ليختلط كل شيء على مهل، مزاجك يؤثر في طريقتك في عجن الخبز، لكي تكون للخبز نكهة غنية بالحياة لابد من تعديل مزاجك مع حركة العجن، يجب لمس العجينة وكأنك تلمس

حبيبتك، الدقيق يهبط من الغربال إلى الصحن ببطء، وبياتريس تشبه أحلام النهار التي تتحقق، النظر إليها يشبه تخلي الليل عن وسادته القديمة، بياتريس كوكب يدور كل شيء في فلكه لا إراديا، لكنها تعرف جيدا كيفية التعامل مع المسافات، تبقى دائما هناك حيث الحقيقة شديدة الوضوح، دخان سيجارتها وحده يبقى قريبا من شفتيها ويرفض الابتعاد عنهما، بحيويتها تبدد انزعاجك من العالم السطحي والجاف وغير القابل للفهم، خجولة وفي لحظة خجلها تتظاهر بعمل شيء، تدخل في دردشة عن أي موضوع، بياتريس دليل حي على أن المرأة ليست لغزاً، بل علاقة مميزة بين الأنوثة والذكاء، أخبرتني بصوتها العميق أنها لم تعرف منذ طفولتها الاعتناء بملابسها، و أنها كانت ترتدي ملابس أخوتها بتعمد، وأنها دائما فهمت أن الأناقة موجودة في القلب وليس الملابس، لعبت مع الأطفال الذكور، ضربوها، ضربتهم، شعرها مبعثر، نظرتها للحياة رطبة، و عالمها متختلط بالضحك والدموع، بياتريس من عائلة غنية، والدها ورث ثروة هائلة، أما أكبر أخوتها فقد كان يساريا ولديه صحيفة يسارية، عاشت هذا التناقض في البيت، أما أمها فهي شخصية لا يمكن التعرف عليها بسهولة، و لم يكن هناك تواصل واقعي معها، هي كانت إلى جانب أخوها في إطار الصراع الأسري، لكن بعد وفاة والدها تحوّل الأخ الأكبر باسم الحفاظ على ثروة العائلة إلى رأسمالي متوحش، أبعدها إلى باريس فترة، لكنها عادت ككاتبة وصحفية، و على الرغم من كل التدابير

المتخذة من قِبل أخيها لقمعها إلا أنها تكتب وتعمل بجد، وأحيانا تتعمد ارتكاب بعض الأعمال التي تعتبرها العائلة جريمة، «لقد وقعت في غرام صحفي ياباني» قالت ذلك وهي تضحك، واستمرت في حديثها قائلة:لا يجب أن تحكم على المرأة بسبب اختيارها، الرجال مثل القطع الأثرية الأصيلة المغطاة بأوراق الشجر الجافة، أنت قد لا تراها، لكن المرأة التي لا تدير ظهرها للأشياء بسرعة تكتشفهم، يوكيو واحد من هؤلاء الرجال، يعمل كمصور فوتغرافي لدى صحيفة في اليابان، لكن العلاقة كانت تشبه حديقة مائلة، أو تشبه بناء عش على جرف بحري تصل إليه الأمواج بسهولة، الحقيقة أنها علاقة خفيفة، كنت أشعر بذلك ؛ لهذا انتهت بسرعة، لكن في اللحظة التي وصلت فيها إلى نهايتها كنت أنا على كل لسان في بيروت، وهناك من وجد هذه العلاقة فرصة لينتقم من أخي والعائلة، لم أهتم ؛ وبسبب هذه اللامبالاة تم معاقبتي بالسفر سنة كاملة إلى أمريكا، في هذا المنفى تعلمت كل شيء، كانت هذه السنة نقطة مضيئة في حياتي، كنت في نيويورك أقرأ وأذهب إلى المعارض، القراءة هي كل ما كنت أحتاج إليه والأكثر أهمية هو دراستي التصوير الفتوغرافي.

خرجنا من المطعم ووقفنا دقائق على الرصيف، لم نتفوه بكلمة واحدة، فقط النظر واستحضار المشهد بكل تفاصيله، تاريخ الفن كله لا يمكن أن يفسر تلك الإيمائة الجميلة من يدها وهي تركب

سيارة الأجرة، قررت المشي قليلا قبل الذهاب إلى الفندق، و فكرت في أن بياتريس مثل الكلام الذي يفسد الوضوح حيويته وقوته، مثل هذا الليل الذي يخبرك بنوع الحياة التي تعيشها، حديثها جميل لأن بياتريس هي الاستخدام المتعلم للكلمات المبتذلة، هي هذا الليل المرصع بالنجوم، أريد أن أنظر إليها الآن كما هي في ذاكرتي، حزينة وشهوانية وعاطفية مع ابتسامة طفولية أحبها كثيرا.أصبح الخبز والبيض المسلوق جاهزاً، وضعت العشاء أمامه وساعدته على الجلوس، و أنا بدوري جلست على الأريكة أنظر إليه، تذكرتُ كل كلمة قالها اليوم، كنت أنظر إلى التفاصيل الصغيرة، كيف أخذ الخبزُ وضْعه أمام أنفه، الرائحة تجعلك قادراً على الرؤية عندما تكون كل العيون مغلقة، أنظر إلى شعره الأبيض الذي يشبه الثلج، ضعف البصر هو كسر بينك وبين العالم، مختفيا في ظلامه الخاص، بعيدا عن الصابري وعن بنغازي، أفكر فيه كما كان ألبرتو مانغول يفكر في بورخيس وهو يقرأ له، العمى شقيق الصمت والموت، ماذا عن العمى تجاه المعرفة؟ماذا عن العمى تجاه القانون؟ماذا عن العمى تجاه الفقر والمرض والجوع؟هذا العمى الرمزي يجعل العالم وحشا مشوهاً، بورخيس قال ذات مرة:هناك الكثير مما يجب أن نأسف له. نعم هذا صحيح تماما، أنا آسف لأنك حزين يا أبي مثل بورخيس الذي فقد بصره بشكل كامل عام 1955 ورفض أن يكتب بعدها، لكنه عاد إلى الكتابة عام 1970، النقاد قالوا لقد فقدت كتاباته بعد عودته نوبات

إبداعه والدهشة المرعبة، لقد أصبح فضفاضا وشفاهيا بشكل مباشر، الحقيقة أن بورخيس تحوّل إلى رسام ولم يعد يكتب، قصص بورخيس وكتاباته بعد العمى الكامل تحتاج إلى تأويل بصري، لقد أصبح الأعمى رساماً وهذا صادم أكثر من الأعمى ككاتب، بورخيس رسام واقعي وأحيانا تعبيري، يصور بورخيس بكلماته الشفاهية الأحداث، و التعابير المرئية، لم يعد يتكلم عن الأفكار التي تخفيها شخصياته، بل يرسمهم ليفضح أفكارهم، في العصور الوسطى كان العمى علامة على الخطيئة أو الخلل الأخلاقي، يتسول الأعمى ليبقى على قيد الحياة، و هو مادة للضحك في المسرح والأدب، في أيام دانتي فقط أصبحت هناك مؤسسة مصممة لاستيعاب هؤلاء المساكين، لا يكون الأعمى محط إعجاب إلا عندما يكون تجربة فريدة كتجربة بورخيس، مع رجوع إلى هوميروس الأعمى، وكاهن طروادة الأعمى وغيرهم، أصبح الأعمى هو الإنسان القادر على اختراق الظلام، تحوّل العمى إلى معنى السمو والتبجيل.كان والدي يأكل على مهل لهذا يأخذ وقتا طويلا في تناول وجبته، أخذته إلى الحمام للوضوء، صلى العشاء وساعدته في وضع رأسه على الوسادة، أشعلت سيجارة في الفناء بعد يوم حافل وفكرت ماذا لو كتب والدي قبل سنوات طويلة؟هناك بعض الأشياء التي لا يمكن التعبير عنها، الأبناء فعل إيمان، صلاة، الأبناء هم قصصنا الخاصة التي نكتبها لأنفسنا، الأدب لا يمكن أن يعلم شيئا آخر إلا هذه القصص الحميمة،

إذا تنازلت عن عزلتك الموهبةُ تنطفئ وتلغي نفسها، وتعيش باقي حياتك بين أسنان عدم الارتياح، لكن التضحية تكشف عن قيمتها في الأوقات الصعبة، الكتابة أنانية جذرية، لكنها أنانية تحمل في طياتها الاعتراف أمام الجميع، الكتابة مشروع مغامرة يعزز الفردية، و الأبناء مشروع مغامرة أيضا، لكن في هذا المشروع نترك الشرب من نبع العزلة والأنانية، مع مشروع الأبناء كل مشروع آخر هو مجرد حافز راكد، كان والدي ينظر إلى العالم كشيء ثقيل، جامد، معتم، ربما السبب الوحيد لبقائه فيه هم أولاده، لكن الأولاد هم نظرة ميدوزا التي تجعلك تتحجر في عالم الروتين اليومي، العمل، ثم العمل، ثم العمل، لا مفر من عيون ميدوزا التي لا ترحم، أطفات السيجارة وكنت على وشك الدخول عندما انقطع التيار الكهربائي عن الحي كله، دخلت مسرعا إلى والدي، عندما وقفت بقربه قال:لقد انحنى العالم لربط حذائه، لن يرانا أحد، لن يسمعنا أحد، لقد انتهت أيام الليل الصامت والبطيء جدا، كان يحك بأصابع يده اليمنى راحة يده اليسرى، ذهبت إلى المطبخ أشعلت شمعة وعدت إليه، قال بمجرد دخولي من باب الغرفة:من هذه اللحظة سيصبح الليل كلباً جائعا، من هذه اللحظة كلكم في الظلام وليس أنا وحدي.

أشعلت شمعة أخرى وذهبت في جولة في البيت، لا أدري حتى لماذا فعلت ذلك، يقال أن الفئران في الظلام تصنع متاهتها

الخاصة، لا أحد يعرف السبب وراء كل هذا الجهد الذي تبذله الفئران لبناء متاهة، ربما الإجابة هي:الفئران تفرض قيوداً على نفسها بهذه المتاهة، و أنا مثلها يجب أن أضع قيوداً على نفسي في هذا الظلام الذي سأعيش فيه لفترة قد لا تكون قصيرة، عليَّ أن أعرف مكان كل شيء بشكل دقيق، عليَّ أن أتعلم السير وسط هذا الظلام، عليَّ أن أصنع متاهتي الخاصة، كنت أسير في أرجاء البيت وتوقفت عند صورة معلقة على الجدار، أمي تحمل أخي الصغير، أما أنا والبقية فقد كنا نقف حولها كالحملان البريئة، كانت صورة قديمة جدا بالأبيض والأسود، لا أتذكر لون ثوبها أو ألوان ملابسنا، كل ما أتذكره هو هذه النظرة الحزينة التي لم تفارق وجهها، رأسها متراجع قليلا إلى الوراء، نظرتها الحزينة تشبه السؤال الذي لا ينتظر إجابة، أنا كنت أنظر إلى شيء خارج الكادر، ربما كنت أنظر إلى الفضاء أو إلى الحياة خارج الصورة، أتذكرها الآن بكامل قوة شغفها بالحياة، كشفت لنا جميعا طريق الهروب من الحياة السطحية والتافهة، أكثر ما أحبه فيها هو هذا الفهم للفرق بين الحياة الميكانيكية والحرية، تركت الصورة وذهبت إلى الأريكة كي أكون بجانب والدي، لم يكن نائما لكنه لم يتكلم أو يتحرك، أنا كنت أفكر في نتائج انقطاع الكهرباء، هناك حلول لموضوع الإضاءة، لكن هناك أشياء لن تصمد، كل ما هو موجود في الثلاجة والفريزر الكبير لن يصمد أكثر من يوم واحد، لحوم وخضروات والكثير من الأكياس التي لا أعرف ما فيها، لابد من

القيام بجرد سريع وتقليل حجم الخسائر، و أنا افكر في كل هذه الأمور جاء صوت والدي قائلا:هل تعلم أن هناك أقاويل كثيرة حول اسم الكوميديا الإلهية؟لم ينتظر إجابة عن السؤال واستمر في حديثه قائلا:يقال أن الاسم لم يُصَغْ من قِبل دانتي نفسه، و لا حتى في حياته، بل كان من صياغة الناشر لودفيكو دولسي، وهناك من قال إن عنوان الكتاب الذي وضعه دانتي هو «الكوميديا»، وهناك من قال أن بوكاتشيو هو من أضاف كلمة الإلهية، وهناك من قال إن كلمة الإلهية تم إضافتها من قِبل القراء عبر القرون، ربما بسبب جودة النص ومحتواه، لم يتكلم أحد من القدماء عن الكوميديا كشعر أو نثر، هل هي ملحمة؟هل هي سيرة ذاتية؟هل هي قصة حب؟ربما هي كل ذلك، كانت هناك فكرة كلاسيكية في الكتابة مستمدة من «فيترفيو» المهندس المعماري والكاتب والمسؤول عن الآلات الحربية في أيام خدمته بالجيش الروماني، أليست هذه مفارقة عجيبة، أن يكون مهندسا معماريا وكاتبا هو نفسه مصمم للآلات الحربية؟و هذه المفارقة مدهشة أكثر عندما تعلم أن ليوناردو دافنشي نفسه رسم جسم الإنسان بحسب النسب التي وضعها فيترفيو، وقد سمى أول لوحة رسم فيها إنسان بـ «الإنسان الفيتروفي»، التاريخ مليء بمثل هذه المفارقات العجيبة، عموما الفكرة المستمدة من هذا المهندس والفنان والقاتل في الوقت نفسه، هي فكرة الدائرية، هذه الفكرة بالغة الأهمية، وهذا يعني أنك إذا أردت أن تعرف شيئا، فيجب

أن تكون لديك نقطة انطلاق، هذه النقطة تمر منها إلى جميع الفنون، وهذه الرحلة الدائرية إذا كانت تسير في الطريق الصحيح فسوف تعود إلى النقطة التي بدأت منها، يجب أن يتزامن هذا الوصول بطريقة أو أخرى مع استكشاف الأشياء على طول الطريق إلى نقطة البداية، هذا الدوران الذي يشبه الدوران في متاهة يسمح بأن ترى الأشياء بطريقة مختلفة ومن زاوية مختلفة ومنظور مختلف في كل مرة تدور فيها، لهذا كانت المكتبات تصمم بطريقة دائرية في العصور القديمة، لهذا قال بورخيس:أنا أزعم أن المكتبة لا حصر لها، من خلال هذا التصور ربط بورخيس وغيره بين نسيج العنكبوت الدائري والمكتبة والكتابة، المتاهة تتميز بعمق علاقتها بالتحوّل وخلق المسارات الجديدة، وهذا ينطبق أيضا على القراءة، فإذا كان الكاتب هو العنكبوت الذي ينسج المتاهة الدائرية لمحاصرة القارئ، فعلى القارئ أن يجد الطريق للهروب من المتاهة، في المتاهة الحدود سائلة وتتداخل ؛ لهذا المتاهة قادرة على بناء نفسها المرة بعد المرة، يرتكز بورخيس على هذا المفهوم للمتاهة في العديد من كتاباته، إنه يكتب على طريقة الإنسان الفيتروفي، أُخِذت فكرة المتاهة في أيام الإغريق من أنفاق البحث عن الذهب، ثم أصبحت تقال عن المنزل الكثير الممرات والسلالم، هذا المنزل يشعر الزوار بالإحباط والإرباك، ثم أصبحت المتاهة تعني موضوع لا نهاية له، إنها الحديقة الساحرة والمليئة بالممرات وقيعان الزهور، لكنها دائرية ولا مخرج منها، الحديقة

الساحرة ما هي إلا لغز كبير.

استيقظت قبل الفجر بقليل، لا أدري متى بالضبط نمت، هل توقف هو عن الكلام ونام قبلي؟ لا أدري، لكني أرجو أن لا أكون قد فوتُّ أي كلمة من كلماته، أخذته للوضوء وعدت به إلى السرير وذهبت إلى المطبخ لإعداد الفطور، بعد الانتهاء من وجبة الإفطار أخذت فنجان القهوة وذهبت إلى الفناء، كان عليَّ التفكير في بعض الأمور، لدينا في البيت مولد كهرباء وجالون كبير من البنزين في غرفة الخزين، لكن صوت المحرك يحتاج إلى حل مناسب، عليَّ أن أجرد محتويات خمس ثلاجات وخمسة فريزرات للنظر فيما هو صالح للبقاء والتخلص من الباقي، تحويل كل اللحم إلى لحم مقدد للاحتفاظ به أطول فترة ممكنة، الصعود إلى خزان الماء والكشف عن كمية الماء، لن تعمل مضخة رفع المياه بدون كهرباء، بمجرد ارتفاع الشمس قليلا كان الاتصال يأتي بعد الاتصال من أخوتي، أرادوا سماع صوت الوالد قبل أن تنقطع الاتصالات أيضا بعد انقطاع الكهرباء، كان يكلمهم بشيء من البرود، على طريقة كلام يعقوب لإخوة يوسف، و كان هناك سيل من التوصيات وأماكن بعض الأشياء، مثل شموع كبيرة في منزل فلان، هناك بنزين على السطح بجانب خزان المياه، هناك بقوليات في فريز فلان، إلى آخر هذه التوصيات والتذكيرات التي لم أعد أتذكر منها إلا القليل، أخذت الصحون من أمام

والدي فسألني:هل سنتوقف عن القراءة؟ قلت:لا لن نتوقف عن قراءة الكوميديا الإلهية حتى لو أصبحت الحرب داخل هذا البيت نفسه، ابتسم ابتسامة عريضة كأنه كان يعرف الإجابة، أخبرته عما سأقوم به وأني أحتاج إلى مساعدته في معرفة كيف كانوا يحتفظون بالأطعمة قبل الثلاجة، ثم خرجت إلى الفناء مرة أخرى للاتصال ببياتريس، جاء صوتها مع بحة صغيرة دائما ما تكون موجودة عندما تستيقظ، قالت كلام كثير عن متابعتها الأخبار، وعندما علمت أني أقرأ مع والدي الكوميديا الإلهية ضحكت واتهمتنا بالجنون، حاولت أن أجعلها تستعد لانقطاع الاتصالات في أي لحظة، عاد صوتها إلى حزنه وقالت:هل تذكر رحلتنا إلى الجبل؟هذه الأيام لا أفعل شيئا سوى تذكر تلك الرحلة، الغابة والأفق ومياه الجدول وأنت، توقفت عن الكلام فجأة وساد بيننا صمت يشبه الصمت الذي كان على رصيف مطعم عنب، كانت تبكي خلال تلك الدقيقة الطويلة جدا، أخبرتها أن عليَّ أن أذهب وأغلقت الخط، وضعت الهاتف أمامي ولم أقوَ على الحركة، تذكرت أنا أيضا تلك الرحلة، أتذكر كيف قالت وهي تلمس التراب:لدي توق لفهم الروح الأسطورية للأرض، روح الشجر الذي يتمايل أمامنا الآن، روح المياه التي تدفق من أعلى الجبل لتمنح كل شيء هذه الحياة المتوهجة، هذه الروح الثابتة لعدة مليارات من السنين، كل زمن الإنسان وإلى الأبد، أحب استخدام المسارات في هذه الغابة، المسارات التي تتحول إلى متاهة كلما توغلت إلى الداخل، لدينا

بيت بالقرب من هنا، لكنه لا يشبه المكان، أصبح بيتا عصريا بسبب الأثاث الحديث وكل مظاهر الرفاهية، لا أحد منا يفكر في عزلة براعم الربيع، أو المطر الذي يأتي في أواخر الخريف، سرنا في الغابة على الحصى نحو الأبدية، في كل مرة لمست فيها يد بياتريس كنت أشعر بأن روح الأرض تتسرب إلى روحي، في هذه اللحظة التي لمست فيها بيد بياتريس دون قصد تذكرت قول دي. إتش. لورنس:أنا جزء من الشمس، لأن عيني جزء مني، قدمي تعرف أنني جزء من الأرض، ودمي جزء من البحر، لا يوجد جزء مني موجود من تلقاء نفسه.لا يوجد جزء مني لا يعرف الحنين لبياتريس، هذا العالم مسامي وتتشابك فيه الأيدي والناس والكائنات الأخرى، بياتريس تخرج من حقيبتها كراسة ملاحظات وقلم رصاص، تسجل ملاحظاتها الصغيرة، بياتريس بوهيمية، مغامرة، معارضة لكل قواعد المجتمع، لديها صورة سلبية للغاية عن العالم المتحضر، في الريف حلمها المثالي، العيش في منتصف الغابة بجانب نهر، الطبيعية بالنسبة لها هي مكان المعجزات، قلقة، جريئة، غريبة الأطوار، لكنها جزء من جمال أبدي لا يعرف البداية أو النهاية، كان عليَّ العودة إلى الواقع، إلى هذا العالم المجنون الذي أعيش فيه، لابد من التعامل مع الأشياء الآن؛ لأنها هي كل ما لدي، كان الفناء ينظر إليَّ بعيون فارغة، رأيت في عيونه بنغازي التي أحبها بكل فشلها، أمراضها، جنونها، إنها إحدى المدن الخفية التي تكلم عنها إيتالو كالفينو، بنغازي

مدينة الرغبة، مثل مدينة دوروثيا لا أرى فيها إلا اتساع الصحراء ومسارات القوافل، وقفت في وسط الفناء رميت عقب السيجارة على الأرض، وقلت في نفسي:بغض النظر عن الحقائق التي لا تصدق علينا أن نعيش، علينا السير في هذه المتاهة والدوران على كل الأطلال الدائرية، علينا خلق ممرات جميلة ولا تنسى، علينا أن نقف ضد هذا الكابوس الظلامي حتى ولو كان الثمن هو العيش في عالم قديم وشبحي.

العيش من أجل العمل يعني عدم الموت هكذا يقال، أنا مشغول بالأشياء، من أين تأتي الأشياء؟إلى أين تذهب؟ربما لم يخطر ببالي هذا السؤال من قبل، أو قد أكون فكرت فيه بشكل عام، لكن الأشياء التي أتعامل معها لم أفكر فيها كثيرا، الأشياء هي ما نعرفه، لكن في أغلب الأحيان لا نعرف مكانه، الأشياء عندما نتوقف عن استخدامها تختفي، أنا الآن أفهم تماما كيف أن الأشياء غير الحية لها حياة خاصة بها، عالمي في الفترة القادمة مكوّن من أشياء قليلة، وهذه علاقة غير مسبوقة معها، الأشياء تدخل في حياتنا كما تدخل الأفكار، لكن الأشياء لا تكون مستأنسة مثل الأفكار، ما يجمع الأشياء والأفكار هو أنها تستنزف وقتنا، هذا سيتغير من هذه اللحظة، عليَّ أن أنسى الكثير من الأشياء وأخرجها من حساباتي، و المؤسف أنها هي ما يجعل الحياة أسهل، غسالة الصحون، المكنسة الكهربائية،

سخان المياه، الخلاط، الماكرويف، غلاية الماء، الثلاجة، الفريزر، التلفزيون، الهاتف، هذه الأشياء وغيرها مع الوقت ستختفي من حياتي، هي موجودة في مكانها لكنها ستختفي بطريقة ما، صعدت إلى كل شقة وأخرجت ما في الفريزر والثلاجة من أشياء، وبدأت في رحلة الصعود والنزول إلى أن أصبح كل شيء في الفناء، وضعت والدي على الكرسي المتحرك وخرجت به إلى هناك لكي يكون معي، فرشت قطعة من القماش المشمع وبدأت في جرد محتويات الأكياس وحفاظات الأكل، لا أعتقد أن هناك نوعاً من اللحوم أو الأطعمة لم يكن موجودا، كان مهرجانا لكل أنواع الأغذية والعصائر والمرطبات، لحوم، أسماك، خضروات، بقوليات مطبوخة ومحفوظة، آيس كريم، زميتة، كنافة، فواكه، توابل، ...إلخ، تركت بعض الأشياء ليذوب ثلجها تماما، جلست على القماش المشمع وقلت لوالدي:الأخبار السيئة أو الجيدة؟ضحك وقال:هات الجيدة أولا، قلت: «اكتشفت أن لدينا ثمانية اسطوانات مليئة بغاز الطهو، وهذه هي فائدة أن في كل بيت ليبي اسطوانتان، الأخبار السيئة هي أن جزءاً كبيرا من هذا الطعام سيُرمى ومعه العظام التي سنجردها من اللحم، لن نرمي أكياس قمامة في الشارع بكل تأكيد. صمت قليلا ثم قال:هناك مسافة متران بين الفناء الخاص بنا وفناء جارنا، عليك أن تقفز إلى هناك وتحفر حفرة عميقة تكون هي مكان القمامة في الفترة القادمة. تسلقت السور وألقيت نظرة على المكان وكان

كلامه صحيحا، جلبت الفأس والمجرفة من غرفة الخزين وقفزت إلى هناك، بعد ساعات كانت الحفرة عميقة كفاية، خرجت من الحفرة ورجعت إلى حيث الوالد، رجعت به إلى غرفته وذهبت لأخذ دش سريع، وبعدها دخلت إلى المطبخ لإعداد طعام الغداء، كان السمك قد تخلص من طبقة الثلج وأصبح جاهزا لإعداد وجبة منه، فكرت فيما قد يحبه الوالد، شوربة رؤوس السمك، وسلطة تفاح أبيض وجبن وبنجر أحمر، وشرائح فيليه السمك، إعداد هذه الوجبة سهل جدا ولا يأخذ وقتا طويلا، فقط ست شرئح سمك، دقيق، شرائح الليمون، ودق خمسة أو ستة فصوص ثوم، كوب من عصير الليمون، القليل من الملح، ملعقة من الفلفل الأسود، بعض البقدونس الأخضر، كوب ونصف ماء، توضع فيها شرائح السمك لمدة نصف ساعة، يتم إخراج الشرائح من الصلصة وتوضع في الدقيق، توضع باقي مكوّنات الصلصة على النار، و توضع مقلاة كبيرة على النار وفيها ثلاث أو أربع ملاعق زيت ومثلها من الزبدة، ثم توضع شرائح السمك في المقلاة إلى أن يصبح لونها بنياً ثم تقلب، و بعد أن تصبح كل الشرائح بنفس اللون تضاف شرائح الليمون، توضع شرائح السمك في طبق وتوضع الصلصة على كل شريحة وحولها، عندما تذوق والدي هذه الوجبة عرف مباشرة أنها إيطالية، الطعام لديه تاريخ خاص وأيديولوجيا خاصة تختلف عن تاريخ العالم، روما القديمة جعلت من البحر الأبيض مجرد بحيرة، ثقافة الطعام كانت تتنقل بسهولة بين الشعوب،

الرومان ينظرون إلى باقي العالم على أساس أنهم برابرة، لكن إذا تعلّق الأمر بالنكهات والمذاق فإنهم يتساهلون جدا في تقبلها داخل ثقافتهم الراقية، في العالم الغربي كان الخبز والنبيذ واللحم هي شخصيات تاريخ الطعام الرئيسة، لكن مع الوقت واستعمار الشعوب اكتشفوا أنها ثانوية في ثقافات أخرى، ربما خسرت روما عظمتها وأصبحت مجرد إيطاليا، لكن طعامها حافظ على هذه العظمة، بعد الاستعمار الإيطالي لليبيا سيطرت مكوّنات المطبخ الإيطالي على مطبخنا المحلي وتحوّلت الأكلات الليبية إلى وجبات تراثية، هناك مطابخ تعيش على ثراء الدولة مثل ما كان في روما، وهناك مطابخ ولدت في المجاعات والفقر والحرمان مثل المطبخ الليبي، فكل الأطعمة الليبية الأسس فيها هو اختراع وجبة من لا شيء، كان والدي ينظر إليَّ وهو يأكل ببطء كالعادة، وقال: «هناك كاتب إيطالي يدعى جيفيدو بودريكا كتب كتابا عن ليبيا بعنوان «ليبيا:انطباعات ومجادلات»، هذا الشاب من الحزب الاشتراكي الإيطالي، يعيش التناقض بين مثاليات الحزب وربطها مع مصالح البروليتاريا وراء القارات، رجال الحزب الذين يتحدثون عن كرامة العمال وحقوقهم هم أنفسهم من يتحدث عن ضرورة التوسع الاستعماري.

يقول هذا الشاب عندما يصل إلى بنغازي:برنيق هذا الاسم المفعم بالحيوية، لا يمكن أن ترى عينك أجمل من هذه البنوراما

السحرية، تقع بنغازي فوق رأس أنف منطقة جليانا الذي يتسع تدريجيا إلى الداخل، إلى أن تصل إلى السهل الذهبي، المدينة مثل المقبض في نهاية مروحة لا نهاية لها، في ليلها الكثير من السلام والجمال، فيه هدوء مفاجئ تحبه الأرض والسماء، القمر يغمر اللانهائية الزرقاء بضوء هادئ.لقد أحب هذا الشاب البيوت العربية وأشجار النخيل الداكنة، وهذه الأرض الغامضة والرائعة، لا أدري لماذا أتذكر هذه الكلمات الآن، ربما بسبب هذه الوجبة الإيطالية، ربما لأن بنغازي لم يعد لها هذا السحر، حتى البيوت لم تعد مفتوحة على السماء كما كانت، أعتقد أن هذا الشاب كان يبحث عن شيء ما بنفس الطريقة التي كان هرقل يبحث بها عن هسبيريدس، في الجدارية التي رسمها صديق الفنان غاودي وهو أليكس كلابيس بعنوان «هيرقل يبحث عن هسبيريدس» يظهر هيرقل الضخم وسط ظلام وفي يده مشعل باحثا عن شجرة التفاح الذهبية في هسبيريدس أو بنغازي، أكل تفاحة من هذه الشجرة يمنح الخلود، لهذا يبحث عنها هرقل بكل حزم، يقال أن اسم هذه المدينة يعني نجمة المساء، المدينة التي تحيط بها المياه، و بسبب ارتفاعها تظهر للبحارة كنجم وسط الظلام، تماما كما صورها الشاب الإيطالي في كلامه، هذه الجدارية موجودة في برشلونة، في منزل من تصميم أنتوني غاودي، المنزل كان لعائلة بالاو غويل، هسبيريدس في هذا المكان حيث نجلس الآن، تمتد من مقبرة سيدي عبيد، إلى حيث جامع العلوة في الزريبعة وحتى

موقع هذا البيت، لهذا السبب قررت أن يكون بيتكم هنا. تنهد بحرقة ثم قال: يبدو أن هرقل قد وجد هسبيريدس في نهاية رحلته. كان قد توقف عن الأكل، كأن تكتل هذه الكلمات قد أرهق روحه، قالها دفعة واحدة ثم أعاد بناء الصمت المطلق، كلماته دائما فيها شيء من الباطنية وعليك أن تتأمل قبل تأويلها، الكلمات هشة عندما يتعلّق الأمر ببنغازي، و أنا طفل كان يمسك بيدي، ونمشي من دكاكين حميد إلى مستشفي الجمهورية، من الفندق إلى سوق الجريد، من ميدان الحدادة إلى سوق الظلام، من ميدان البلدية إلى شارع عمر المختار، يصفر أغاني فريد الأطرش، ويبتسم في وجه الحياة، نصل إلى محل باتا للأحذية، لن أنسى هذا المحل أبدا، تلك الفخامة والنظافة والخدمة، عرفت بعدها بسنوات طويلة أن أحذية باتا دخلت موسوعة جينيس بعد بيعها 14 مليار حذاء حول العالم، أنا كنت ألبس واحدا من هذه الأحذية، في تلك الأيام كانت أكبر ماركات العالم لها وكلاء في بنغازي، الملابس، السيارات، المواد الكهربائية والمنزليةويستنغهاوس الأمريكية، فيجا الألمانية، هواردس الانجليزية، إلخ، يصعب الحديث دون دموع عندما يكون الحديث عن بنغازي تلك الفترة، بعد غسل الصحون والقيام ببعض الأعمال الأخرى أخذت والدي معي إلى الفناء، جردت كل اللحم الموجود على القماش المشمع، قطعته إلى شرائح ووضعته في كمية من التوابل، فلفل أحمر، بزار أصفر، كسبر مطحون، ملح، نعناع يابس، ثم نشرته كله في المنطقة

المغطاة من الفناء، و بحثت عن قماش الشاش إلى أن وجدت قطعة كبيرة وغطيت اللحم بها حتى لا تصل إليه الحشرات، بعدها شققت الطمام كله، والفلفل كله وتركته على القماش المشمع ليجف، ثم وضعت كل ما قد يفسد بعيدا عن الثلاجة في أكياس القمامة ورميته في الحفرة وأهلت عليها بعض التراب، كان صوت الاشتباكات في الخارج ضعيفا وبعيدا، لكنه كان يشتد من لحظة إلى أخرى، ثم بدأ صوت قذائف الدبابة يصل إلينا واضحا مثل الرعد، دفعت الكرسي المتحرك إلى الداخل، ساعدت والدي في الجلوس على السرير وصعدت إلى السطح، كانت قذائف الدبابة تصل إلى «الزريريعية»، لكن لم أتبين من أين تأتي القذائف، نزلت بسرعة حتى لا يشعر الوالد بأني كنت على السطح، كان متوترا ويحك راحة يده اليسرى بأصابع يده اليمنى، كان خوفه على الصابري وبنغازي يجعله يحترق مثل الشمعة التي أمامه، قطرات مطر خريفي خفيف تنقر زجاج الشباك، ربما تريد الهروب من سماع صوت الحرب، ربما تريد الدخول والجلوس معنا حول ضوء الشمعة، قلت لوالدي:لابد من إيقاف هذا المشهد الهمجي في بنغازي، لن تحل الأمور مع هؤلاء القتلة بطريقة ودية، أنا وأنت نعرف أنها حرب لا رحمة فيها. نظر إلى لهب الشمعة، كأنه يقول أعرف أنها حرب، لكن دمار ما بعد الحرب أكثر رعبا من الحرب نفسها، أثناء الحرب أنت لا ترى شيئا، بعدها ستكتشف أن الجحيم طويل القامة وقادر بنظرته الخبيثة أن يصل إلى كل شيء.

في المساء توقفت الاشتباكات وشعرنا بعد العشاء بشيء من الهدوء المخيف، كانت الشمعة تصنع ظلالا ليست حقيقية أو مزيفة، تحكي الظلال حكاية الشمعة التي تدمر ذاتها، تتخلى بسهولة عن ذاتها ومصيرها، الشمعة تعرف جيدا كيف تخدر الألم الذي تشعر به، تعرف جيدا كيف تسيطر على الوحدة الموجعة، الشمعة تستدعي اللهب لتغرق في النسيان الحميم، في الوقت الذي أنظر فيه إلى اللهب وأفكر في جحيم دانتي قال والدي:لا تستعجل، اترك مجلدات الكوميديا جانبا، هناك أشياء كثيرة يجب أن تعرفها، هل تتذكر المتاهة؟علينا أن نسير خلف الكاتب الذي لا يزال مجرد ظل إلى الآن، الكاتب يتوق إلى أن يكون سرا، أسطورة، هكذا يحمي نفسه من التاريخ ونصوصه من النسيان، لن نمشي في المتاهة خلف ظل دانتي، هذه حماقة، سوف نمشي خلف بورخيس الأعمى، هذا الأعمى هو مرشدنا في عالم دانتي، سألته:لماذا بورخيس بالذات؟فقال:هذا سؤال جيد، كل شاعر كبير عليه أن يتغلب على من كان قبله، الأسلاف لا يمكن التغلب عليهم إلا بقتالهم داخل نصوصهم، هكذا فعل دانتي مع فيرجيل، و بورخيس كان في صراع مع سلفه دانتي، ليس من السهل أن تمشي خلف ظل دانتي، إذا لم يكن لدانتي مأوى في فلورنسا، فقد أصبح لديه مأوى في قلوب الآلاف من الكتَّاب والشعراء، و في قلوب ملايين القراء عبر العصور، عالم دانتي واسع وغير محدود، وعالم الكوميديا غامض ولا يفهم بسهولة،

هناك من قال إن الكوميديا كتاب سياسي، هجاء انتقامي لخيبة الأمل، هرطقة، متعصبة، وحشية، غامضة، لاهوتية، مدرسية، و الحقيقة أنها كل ذلك وأكثر بكثير، لن ندخل هذا العالم لوحدنا، سنفعل ما فعله دانتي نفسه عندما استعان بفيرجيل واتخذه مرشدا له في الجحيم، نحن سيكون بورخيس مرشدنا في عالم دانتي، تأثير فيرجيل على دانتي واضح ؛ بدايةً من استخدام تقسيمات العلم السفلي التي كانت تزين درع إينياس في الإنياذة، إلى تسلسل العمل وحتى الوظيفة الرمزية للشخصيات، هناك عدد كبير من أوجه التشابه بين الكوميديا والإنياذة، لكن دانتي فعل ذلك تكريما لسلفه المبجل بالنسبة له، لكن في النهاية جاءت اللحظة التي لابد أن يتركه خلفه وأن ينتصر عليه، فيرجيل يتوقف عند نقطة معينة في الرحلة، أما دانتي فيستمر في الصعود، في كل كتابات بورخيس هناك أثر لدانتي، عندما كان بورخيس ولدا صغيرا قرأ ستيفنسون، تشيسترتون، كبلينغ، في مكتبة والده في بيونس آيرس، لكنه أراد حفظ الكوميديا الإلهية عن ظهر قلب، ونجد الدليل على هذه الرغبة في سلسلة محاضرات عن دانتي والكوميديا، قام بورخيس بتدريسها عام 1977، وفي كتابات كثيرة بعدها، قاموس دانتي الكبير جدا، علينا تحسس وجود دانتي في قواميس الآخرين لنفهم قاموسه الخاص.لهب الشمعة يضع والدي خارج العالم، في الفضاء الذي يجد نفسه فيه، فضاء مصنوع من الكتب، من الظلال، من تذوق المشي مع دانتي وفيرجيل وبورخيس، والدي

هو هوميروس آخر يلهمه لهب الشمعة على قول المعجزات، ضاع والدي قليلا في المتاهة، في ممرات الاقتباسات التي تملأ كتب دانتي وبورخيس، في مقتطفات من القواميس، في دهشة الموسوعات، غاب في متاهة التذييل، في نقطة نظر خفية عنّي أنا، هناك هو الآن في نقطة الشغف بالأرشيف، في اللحظة التي كانت فيها أصابعه تلمس التراب البارد على الأوراق، في اللحظة التي تقع فيها عيناه على البقع الداكنة على الورقة، أوراق لم يتم الاطلاع عليها من قبل، أوراق لم تحزم جيدا بعد قراءتها، والدي كان يسافر من أرشيف إلى أرشيف، بحثا عن المخطوطات الأصلية للكتب التي أحبها، بحثا عمّا يخص ليبيا في المتاهة، نظره يذهب معه في المتاهة، يضعف، يتراجع بسبب طول الطريق، لكن هو لا ترهقه النصوص المطبوعة بشكل غير متقن، الحواشي، الهوامش، عبرات بخط اليد، معنى كلمة فوق السطر، هو هناك الآن بكل جوارحه، وحين عاد قال:ماذا لو قال لك أحدهم أن هوميروس هو في الحقيقة رجل من بابل يدعى تيغران، كان رهينة عند الإغريق ثم أُطلق سراحه، و خوفا على نفسه اختار اسم هوميروس ولم يكن أعمى؟ عليك أن تنتبه نحن هنا نواجه الأساطير وليس الواقع في هذه المتاهة، ومرشدنا لابد أن يكون بورخيس عاشق المتاهة والأساطير الضائعة في ممراتها.

شعرت أن والدي قد تعب من الكلام وربما الذكريات وهذا

ما جعل الوهن يظهر على وجهه، طلبت منه أن يرتاح وخرجت إلى الفناء للتدخين، الهواء كان باردا ورطبا، الليل بدأ يفقد الكثير من ثقته، لم يعد مكان الاسترخاء، الاشتباكات في الخارج تزيد حدتها في كل دقيقة، العالم كله تحول إلى غرفة انتظار واسعة، نظرت إلى الهاتف، شرطة واحدة بيني وبين الاتصال بالعالم خارج الصابري، يجب أن تستمر الشرطة الصغيرة في طريقها، لا معنى لمحاولة الاحتفاظ بها، دقيقة أخرى إضافية لن تقدم أي مساعدة في المواجهة مع الوقت أو العزلة، لن تغفر لي بياتريس ذلك، ستضرب بقدمها الأرض وتلعنني من صميم قلبها، أتذكر الآن خطواتها ونحن نتنزه في الشارع، تأخذ خطوة أمامي كما يفعل فيرجيل وهو يقود دانتي، صامتة، تنظر إلى الجانب الآخر من الشارع وتشير بإصبعها الجميل إلى جداريات مرسومة برقة، المشي معها هو إعادة صياغة للشارع، تنظر بيقظة إلى كل التفاصيل وتنبهني إليها، فانوس قديم في زقاق، شرفة مليئة بالورد، باب يفكر في سوء الحظ، أحب بيروت صاحبة المزاج الذي يشبه مزاجها، بياتريس تتكلم أحيانا وفي بعض الأحيان تهرب من ظل الكلمات إلى شمس النظرات، مبهمة وذكية ككل الأشياء الجميلة في هذا العالم، نتسكع بلامبالاة، تطلب مني الاستماع إلى المدينة، إلى صوتها المتمرد على كل شيء حتى نفسها، تتراجع خطوة وتمسك بكوع يدي، تنظر إليَّ بنظرة تحرضني على تقبيلها، ثم تقف أمامي وتبدأ في التراجع إلى الخلف كأنها سحابة مع ضوء

ملائكي، تخرج من الجيب الخلفي لبنطلونها دفتر الملاحظات الصغير وتكتب بقلم رصاص صغير:المعزولون عن حياتهم اليومية. كلماتها المكتوبة دائما أكثر كثافة من الحقيقة نفسها، تجري بضع خطوات، ثم تقف أمام شيء يثير التأمل، بعض العبارات المكتوبة لا يمكن أن تصف عمق هذا الجمال القابل للتحقق في كل لحظة، الناس تنظر إلى المدينة من خلال كوة صغيرة، أما هي فتنظر إليها بطريقة حسية، ذات مرة أخبرتني أن هناك مُدناً تفكر بشكل حزين، و مدناً تفكر بنشوة مثل بيروت، لم أخبرها أن بنغازي من المدن التي تفكر بشكل حزين، مدينة الملح والصبر بالكاد تحاول المحافظة على حياة المدينة، لكن العين الداخلية تصنع منها صورة تطغي على كل مدن العالم، لا يمكن التفكير في بنغازي بسياق أدبي، فقط يمكن حبها عندما نفكر فيها في سياق اجتماعي، في حديث الأمهات الواقفات على الأبواب وكأنهن جالسات في مقهى الفنون في باريس، في الأولاد وهم يخرجون من البيوت في الصباح الباكر إلى البحر، يستيقظون من النوم وفي أنوفهم رائحة الملح، أجسادهم عارية وينزلقون بسهولة إلى الماء، أتذكر الآن في صعوبة الحياة عندما تعيش في حي كل المدرسين وناظر المدرسة جيرانك، أنت مراقب بألف عين وتُضرب بألف يد ووالدك لا يحرك ساكنا لأنهم جميعا والدك، وكل نساء الحي أمك، أشعر أنه لا توجد مسافة بين الخيال والصابري، الكثير من الضجة في الخارج وأصوات سيارات وصرخات وطلقات، بياتريس

كانت تتحدث دائما عن الحرب اللبنانية، عن الموت والفزع الذي عاشه سكان بيروت أثناء الحرب، لم أتخيل أني سأحكي لها يوما ما عن الحرب في بنغازي، عن الحياة وهي تتحرك فيها ببطء خوفا من رصاصة طائشة، الحرب لا تعرف سوى التجول الحر في عيون الجثث، أما بياتريس فتتلاشى أمام المقاهي الصغيرة والساحات، تضع يدها على كتفي فيختفي الناس الذين يملأون الشوارع، دائما كان المشي مرتبط بالحرية، مرتبط بالأرض والطبيعة، بياتريس تحب وايتمان كثيرا، تعلمتْ منه المشي وتذوق الشعر، عندما تقابلنا أول مرة أخبرتني أنها تكتب عنه في هذه الفترة، و لا تدري ما إذا كان ما تكتبه مقالا أو كتابا ؛ لأنها تسرد فيه علاقة المشي بالشعر بشكل موسع وعبر قرون من الزمن، وايتمان الذي يتحدث عن الأرض، سبات الأشجار، غروب الشمس، الجبال الضبابية، و عن القمر المشوب باللون الأزرق، وايتمان الذي يمشي في الحقول، بين البيوت الريفية القديمة، و أكواخ القش، لا أتذكره الآن إلا بصورة شاحبة، أتمنى لو أخبر بياتريس الآن أنني تذكرت في هذه الأيام حديثه عن الحرب وعن الأرض الباردة مكان القبور، يكتب في دفتر ملاحظاته الذي يشبه تماما دفتر بياتريس: كنت أقوم بزيارة المستشفى الميداني، جلست تحت شجرة، على بعد عشر يارادات من القصر الذي تحوّل إلى مستشفى، لاحظت وجود كومة من الأقدام والأذرع والسيقان والأيدي، محمولة على عربة يجرها حصان واحد، وعدة جثث قريبة مني، كل جثة مغطاة

ببطانية بنية اللون، هذا ما أتذكره الآن من وايتمان يا بياتريس، و أتذكر أيضا أصابعكِ وهي تلمس كتفي كأنها وعد بالحب، دخلت إلى الغرفة في وقت متأخر، كانت الاشتباكات قد توقفت، والدي نائم ولهب الشمعة يخبرني أنه قد تحدث معه بعض الوقت، كدت أبكي وأنا أنظر إليه لكني تمالكت نفسي، أطفأت الشمعة ورميت بجسدي المحطم على الأريكة.

كم أتمنى أحيانا أن أعلق الواقع من عنقه في حبل يتأرجح في الهواء، و أمسك بكل الورق الذي كتب عليه كلمات الأدب عبر القرون وأضعها في فمه بالقوة، فمه الذي كان دائما ساحة للنضال ضد الموت، استيقظت قبل الفجر بقليل وأنا أرى الواقع يتأرجح أمامي، كان نومي متقطعا وفيه كوابيس كثيرة، هناك عطبٌ ما، في جزء مخفي من الروح، الغرابة التي لا يمكن فهمها تجعل حتى الأشياء والكلمات المألوفة غريبة، صباح مثلا، لا تعني هذه الكلمة أي شيء، إنها كلمة غريبة، كلمة يتقاسمها كل الناس، لكن أنا لست منهم، لن أقبّل صورة بياتريس قبل الخروج من السرير، لن أذهب إلى العمل، لن أذهب إلى المقهى، أنا هنا في الصابري بين هذه الجدران، مع والدي ودانتي وأشباح أخرى كثيرة، كلمة الصباح ليس لها معنى فعلي إنها مجرد استعارة، ساعدت والدي على الجلوس للصلاة، وذهبت إلى المطبخ لتجهيز القهوة، والدي لا يحب الفطور في هذا الوقت المبكر، ينتظر ارتفاع الشمس كي

تتناول معه فطورها، وضع رأسه من جديد على الوسادة، أخذت فنجان القهوة وصعدت إلى الدور الثاني، فتحت الشرفة المطلة على البحر، وجلست أدخن في انتظار أن أراه بشكل واضح بعد شروق الشمس، كنت في حاجة إلى أن أرى خط الأفق قبل استئناف الروتين اليومي الذي أصبح الآن واضحا تماما، الوجبات، مواعيد الصلاة، مواعيد الدواء، قراءة الكوميديا، النوم، أحاول بكل الطرئق أن لا تفسح خيبة الأمل المجال للحزن، لكن الأمر صعب جدا عليَّ أما والدي فقد غرق منذ البارحة في نوبة همٍّ ثقيل، لقد تلاشى صدى الأمل وأصبح الواقع ثقيلا لدرجة أن الحبل الذي علقته فيه قد انقطع، ها هو الضوء قادم ببطء، ليس النور الذي تصارع حوله توماس إديسون وجورج وستنجهاوس، ليس النور الذي تحدث عنه أرسطو وإقليدس وبطليموس وابن سهل وابن الهيثم وكيبلر ونيوتن وغاليلو، هذا الضوء من نوع آخر، ضوء أدبي تحدث عنه دانتي، الليل مثل كلب ينبح على كل الطيور التي يراها، ديموقريطس فيلسوف الضحك عندما زار أبقراط طلب منه تشريح الحيوانات والبحث عن العصارة السوداء التي تسبب الحزن، كان هناك هوس لإيقاف هذه العصارة، لكن كيف يمكن أن نوقف الليل، أن نوقف الخراب المفاجئ، كيف نوقف ريح الليل والإخفاق والألم، الصباح لا يفهمه المحرومون من الحزن، الحزين يفهم الصباح كنهاية لعالم التلاشي، البحر أمامي تماما بكل شعوره بالوحدة، يسألني عن الناس، عن همومهم التي كان

يبتلعها بسعادة، عن عيونهم المليئة بالدموع، عن حزنهم الذي يتركونه مع الاكياس وبقايا الطعام ورماد النار، البحر ينفجر في بكاء مرير، خط الأفق البعيد يلمس سماء رقيقة، و أنا طفل كنت أعتبر البحر من ممتلكاتي الخاصة، بحر الصابري لي أنا، حملته معي إلى البيت مرات لا تعد ولا تحصى، هربت قبل أن تستيقظ أمي وذهبت إليه، قفزت من سور المدرسة وذهبت إليه، عدت مسرعا من أجمل مدن العالم وذهبت إليه، مددت يدي فربما تصل إليه، هل مازال لك الملمس نفسه، الرائحة نفسها، الطعم، الصوت؟لا أدري، بالتأكيد لك نفس الجيب الكبير الذي كنت تحملنا فيه بسهولة، لكني أشعر بضعفك بسبب قلبك المثقل بالحزن، صوت موجك مثل صوت حمامة حزينة تقف على شباك غرفة في بيت من بيوت هسبيريدس الجميلة، هذه المدينة التي تم تحديد موقعها لأول مرة عام 1948. قاد أحمد بوزيان التنقيب عن المدينة السكنية والخزانات والدفاعات، وجاء بعده في عام 1999 بول بينيت وأندروا ويلسون، و استمر التنقيب إلى عام 2006، لقد وجدوا أواني الطبخ وأدوات المائدة اليومية، كان البحر شاهدا على جمال المدينة، كانت سبخة السلماني بحيرة متصلة بالبحر، يقال إن حدائق المدينة كانت السبب في جذب الإغريق المستعمرين إليها، و سبب في صراع محلي مع قبيلة ناسامونيس، وقد أدهشت حدائقها جنود أسطول إسبرطة عندما انحرف عن مساره ووصل إليها وهو في طريقه إلى صقلية، وقفت

المدينة مع ثيبرون القائد الإسبرطي ضد قورينا عام 323 قبل الميلاد ووجدت نفسها في الجانب الخاسر في نهاية الحرب، تم تدمير المدينة وحدائقها بالكامل، بعدها تم بناء مدينة برنيق الجديدة على مسافة 2.5 كيلو متر من أنقاض المدينة القديمة، البحر هو أكبر شاهد في التاريخ، لهذا يصبح مزاجه سيئاً ويصعب تفسيره في أحيان كثيرة، هذا المزاج يعبر عن رثاء، حزن البحر يمتد للمدن والبلدات والقرى، البحر يحب هذا العالم الذي يبدو كأرملة فقدت زوجها وتلبس الليل، لم يهتم البحر بنفسه بعد تركها له، لم يضحك البحر بسهولة بعدها أبدا، لماذا أفكر في كل ذلك وأنا أنظر إلى البحر، سأترك البحر ينال بعض الراحة وأذهب لتناول الفطور مع والدي، لابد من صعود اليوم الذي يبدو كصخرة ملساء، أخاف أن يفقد والدي قوته بسرعة ويصل إلى قاع حزنه، في هذا الصباح كان والدي متعبا وكئيبا، أصوات الاشتباكات تأثر فيه كثيرا، خائف على هذه المدينة التي فقدت حدائقها منذ زمن بعيد، الحمامة ترفرف بجناحيها بعيدا عن الشباك، أغلقت الشرفة، نزلت ومعي البحر وآخر أغاني برنيق.

كان الصباح ووجه والدي كلاهما مليئا بالحزن، حاولت إقناعه بتناول الفطور، لكنه رفض واكتفى بكوب من الحليب الساخن، زاد الأمر توترا صوت الطائرة العسكرية التي تحلق فوق الصابري بشكل منخفض جدا، ثم جاء صوت الانفجار العنيف،

كان الصوت قريبا جدا، صعدت إلى السطح، كانت سحابة غبار كبيرة تتجه نحو الأعلى بسرعة، الانفجار بالقرب من ورشة طيبة، رأيت الطائرة وهي تهبط مسرعة لضرب مكان آخر في الزريبعة، تصاعد الدخان من جهة مخازن التموينية، نزلت إلى حيث والدي وجلست على الأريكة، كانت هذه الأحداث المتسارعة تهز التفاؤل والثقة بنهاية قريبة لهذه الحرب، هذا ما كان يحزن والدي، أما أنا فقد كنت أفكر في الأسطح والشرفات وهي تنظر إلى الطائرة، أفكر في البحر وهو يضع هذه الصورة إلى جانب صورة هسبيرديس، بالنسبة لجيل والدي كان البيت والحي أماكن مقدسة لا تنفصل عن الواقع اليومي، لم تكن قداستها نابعة من الانفصال عن الزمان والمكان، بل من الذكريات والمواجهة الوحشية مع الفقر والمرض والموت، من الضحكات والدموع وحكايات الجدات، هذه الأماكن لا ترتبط بالتفسير الديني للمكان والزمان، التفسير الاجتماعي يعطي هذه الأماكن قداستها التاريخية، أخبرت والدي أنها حرب لابد منها، حرب ضد اللاعقلانية والفوضى، أعلم جيدا أنه مع هذا الرأي، لكن كيف نفسر هذا التناقض بين قبول الحرب ورفض خرابها الأكيد، رفض الخروج معي إلى الفناء، رفض كل شيء وأي شيء واستمر على هذه الحال لأيام كثيرة، كنت أتوسل إليه ليقبل تناول القليل من الطعام، وكانت حالته تسوء مع الأيام، الأمور أصبحت أكثر تعقيدا مما كانت عليه، لا أسمع صوته إلا في أوقات الصلاة جهرا، لا يبدي أي رد

فعل عندما أتحدث إليه، كنت غاضبا وعاجزا وأشعر بالمرارة، أصبح بقائي هنا بلا معنى، دخل في اكتئاب شديد، لقد انهار معنى وجوده وعليه قبول الخسارة من خلال الحداد، بهذه الطريقة الحياة تتوقف، تنفد، تتبخر، كنا في هذه الفترة نعيش أنا وهو في عالم مصنوع من الصمت، كأننا ونحن نسمع الاشتباكات نسمع لحناً رتيباً، لحناً غارقاً في الفراغ والعدم، أنا كنت أقضي الوقت في حفظ مكان كل شيء، في المطبخ في غرفة مكتب والدي، أبعد الأشياء التي لا أستخدمها وأقرب الأشياء الضرورية فقط، أصبحت قادرا على السير وإيجاد الأشياء في الظلام، بسبب معرفتي بمكان كل شيء بشكل دقيق، أخرجت الأريكة وجلبت سرير والدي الموجود في الصالون، كان يستخدم هذا السرير عند استقبال ضيوفه فقط، وأنا أنقل المرتبة خطرت لي فكرة العمل على غرفة معزولة في البيت المقابل للفناء، أنزلت كل المراتب من على الأسِرّة في الأدوار العلوية، وبدأت العمل على تثبيتها على جدران الغرفة، و أنزلت مولد الكهرباء بسكة خشبية صنعتها خصيصا لهذا الغرض، شغلني هذا العمل لفترة طويلة، كان والدي خلالها يراقبني في صمت، أنا أتمسك بالعمل كي لا أفقد عقلي أو الأمل، أنا في صراع مع الوقت ومع صمت والدي، قررت أن لا أشعر بالاشمئزاز، بل بالمثابرة على أي مشروع صغير، كنت أنهمك في أمور كثيرة بشكل متزايد، أخبرت والدي عن الغرفة التي أقوم بتجهيزها، لفت نظري إلى أننا لا نملك الكثير من الوقود،

لكن هذا لم يمنعني من الاستمرار، لا أريد أن يتقشر شعوري بالحياة من فوق جلدي، وصلت ماسورة العادم الخاصة بالمولد بخرطوم لمده خارج الغرفة من الفتحة التي يدخل منها خرطوم التكييف ووضعه في سطل ماء حتى لا يظهر العادم في الهواء، إذا نجحت التجربة سوف يعمل المولد ساعة أثناء الاشتباكات الشديدة لضمان عدم سماع أي شيء، كنت أريد سماع الأخبار، و تشغيل الكمبيوتر المحمول، وشحن الهاتف لأي فرصة قد تلوح لإجراء اتصال، وكنت محظوظا لأن مضخة المياة التي جلبها أخي من دبي صامتة وتقوم بتبريد نفسها بالماء ذاتيا، كانت الكهرباء مقطوعة ولا أمل في عودتها، لهذا لا داعي لأي إجراء احتياطي، قطعت السلك الكهربائي الذي يوصل الكشاف فوق سطح البيت بالكهرباء في الفناء، كان طويلا جدا وكافيا للوصول إلى أعمق نقطة في البيت، أطفأت كل مفاتيح الكهرباء الخاصة بالمصابيح، تركت فقط المفاتيح الخاصة بتوصيل الكهرباء، في لحظة اشتد فيها القتال قمت بالتجربة، شغلت المولد وخرجت إلى الفناء لم يكن هناك أي صوت على الإطلاق، دخلت إلى البيت بسرعة، وصلت الكمبيوتر المحمول بالسلك ظهرت النقطة الحمراء براقة وسط الظلام، لقد نجح الأمر، من الصعب عدم الشعور بالفرح في هذه اللحظة.

الأميرة السوداء تركت والدي أخيرا، تخلص من سحرها وعاد

في تفاصيل هذا النجاح البسيط الذي حققته، في الأيام الماضية كان يرتعش في نومه، كانت الأميرة السوداء تجلس على صدره، لا أدري لماذا شعرت أنه عندما ابتسم في وجهي بعد نهاية التجربة أننا أصبحنا صديقين، قد تكون صداقة حزينة، لكنها خالية من الأكاذيب، صداقة تشبه الصباح الذي ننتظره بعد الليل، سمحت له بممارسة صلاحياته كأب، والدي كان مثل البحر بين نوفمبر وفبراير، لا تعلم ما الذي يريده على وجه الدقة، بريء كطفل أحيانا ويشعر بالذنب مثل مجرم، و في أحيان أخرى يصبح عنيدا ومتشائما من كل شيء بشكل مأساوي، في تلك الليلة طبخت له بحب وليس بدافع الواجب، الطبخ يحتاج إلى كثافة المشاعر، إلى حرارة الشعور بما تفعله من أجل الآخر، هذا الشعور هو ما يمنح الطعام نكهة خاصة، هو ما يجعل الطعام نسيجاً من الحب والتعاطف، الطعام عبر العصور هو حاضر يخترع نفسه عن طريق الفم، حاضر الحياة والحب والألفة، عندما وضع رأسه على الوسادة قال: «ألستَ مشتاقاً إلى دانتي؟كانت إجابتي مهمة بالنسبة له لهذا جلست على السرير وقلت:لا أدري لماذا أشعر بأن نشوة القراءة ناقصة بدون كل هذه الأشياء التي تعرفها أنت عن دانتي، عدم معرفتي بكل ما تقوله تجعل دانتي يضيع مني في المتاهة، الكوميديا تتملص مني بسهولة، كان يمكن أن أقرأها مرة أخرى وحدي، لكن أنا اعرف الآن أنها ستكون قراءة بعين واحدة، أحتاج إليك كي تكون عيني الأخرى.كان سعيدا بهذه الكلمات

وقال:استعد غدا لدينا عمل كثير مع دانتي، في تلك اللحظة كنت أتذكر أول مرة طبخت فيها وجبة لبياتريس، كنا في مقهى الحمرا نشرب قهوة الصباح، فجأة طلبت مني النهوض والمشي معها، مشينا إلى أن وصلنا إلى بناية في شارع قريب من البحر، تسللنا في إحدى البنايات إلى الدور الثاني، أخرجت مفاتيحها وفتحت الباب، دخلنا إلى شقة تكاد تكون فارغة، أثاث قليل جدا، فِراش فخم في وسط الشقة كجزيرة في بحر، بجانبه منفضة سجائر ومناديل ورقية، طاولة بكرسيين وبعض اللوحات، كتب كثيرة وصحف مكدسة، شاشة تلفزيون ضخمة مقابلة للفراش، وجدار كامل من الزجاج يطل على البحر، قريبا من هذا الجدار أريكة صغيرة عليها كتب وإسطوانات مضغوطة، وضعت حقيبة ظهرها على الطاولة وهمست:هذا مكاني السري، لا أحد في هذا العالم يعلم مكان هذه الشقة غيرك، هنا لا مكالمات هاتفية، لا اجتماعات مع أصدقاء أو جيران، دخلت إلى المطبخ كان مجهزا بكل شيء، لمست الأكواب والملاعق التي تستعملها، لمست الرخام وحوض الغسيل، الحمام أيضا واسع ونظيف جدا، مسكت فرشاة أسنانها، لمست الأماكن التي تلمسها عادة في الحمام، لمست الطاولة والكراسي، كنت أتجول في حين هي ذهبت لإعداد القهوة، تنقلت بين الكتب المرمية في كل مكان، وصلت هي إلى الطاولة ومعها القهوة، جلست وأشعلت سيجارة وأخذت هي أيضا واحدة وأشعلتها وقالت:أنا لا أحب غرف

النوم، لا يوجد فيها أي جانب جمالي، الفراش في هذا المكان يذكرني بالفترة التي كان ينام فيها الإنسان على فراش من القش بلا وسادة أو غطاء من أي نوع، الفراش هنا يعني رفض التمييز بين العام والخاص، أشعر دائما أن حياة الإنسان يجب أن تكون مشتركة مع كل شيء من حوله، لماذا يجب أن تنام في غرفة منفصلة؟لماذا يجب أن تغلق على نفسك الباب لأنك تريد أن تنام؟لماذا تبتسم بهذه الطريقة؟، أحب أفكاركِ المجنونة، الحياة بطريقة أدبية أمر رائع، هذه الحياة ترفض الدقة المبالغ فيها، لكن هذا النوع من الحياة غير معترف به في هذا العالم، لا يسمح العالم للأشياء بأن تعلن عن نفسها بقوة، هذا يحدث فقط في الأدب، أما في العالم الحقيقي فالأشياء ضعيفة وتستخدم فقط، أراقب السيجارة بين أصابعها النحيلة الجميلة، العالم ضيق جدا وبارد جدا بعيدا عن مجال النظر إلى يديها، هناك شيء طفولي فيها يجعل العالم يستيقظ بعد فوات الأوان، تحدثنا عن أشياء كثيرة، لكن أكثر ما لفت نظري أنها تعيش في هذا الفراش، كانت تضحك وهي تقول:أنا مثل بروست أكتب في الفراش، هنا على هذا الفراش أكون في الغابة، في البحر، في قلعة، فوق جسر، غرفة النوم صارمة والليل فيها يصلح للنوم فقط.

قضينا بضع ساعات في الحديث عن الأدب والصحافة والكتب، في النهاية اقترحت أن نطلب الطعام من أي مطعم، لكن

بتلقائية شديدة قلت:لا أنا طباخك اليوم ما إذا كان لديكِ ما يمكن طبخه، ضحكت وقالت:لا طبعا، لكن هناك مكان قريب جدا ستجد فيه كل شيء، ونحن في السوبر ماركت كانت مندهشة من إصراري على قراءة كل شيء مكتوب على الشريط الملصق على المعلبات والزيوت والبهارات، كانت تدفع عربة حمل الأغراض وهي تقول:أنت أحمق لا تضيع وقتك في قراءة هذه التفاهات، كنت مستمتعا بقراءة كل كلمة وقلت:هذه ثقافة، هذا يشبه السفر والأدب تماما، في طريق العودة أخبرتني كيف رفضت الدخول إلى المطبخ، لا أحب غرف الطعام والثرثرة الفارغة، قاومت الأمر بكل قوة ونجحت، أريد أن أكرس نفسي للكتب، و لا أخفي عليك وجود المرأة في المطبخ طوال ساعات اليوم أمر مستفز، وبنوع من الاستفزاز قلت لها:الكتابة الجيدة تبدأ من شراء البقالة بشكل جيد، ضحكت ووضعت الأكياس على الأرض فقط لتضربني على كتفي بكل قوتها، في الشقة غيرت ملابسها وخرجت من الحمام مرتدية تي شيرت وشورت، نظرت إلى بشرتها البيضاء الناصعة، والزغب الجميل في ظهر عنقها، جسدها يشبه جسد الشعر أو النهر، كانت جالسة تدخن في الكرسي المقابل لي وأنا في المطبخ، أرادت أن تعرف كيف تعلمت الطبخ، أخبرتها أني لم أكن أتناول الطعام خارج بيتنا وأنا طفل، حتى في المدرسة لم أتناول طعام المقصف، لا أحب الوجبات مجهولة المصدر، لا أحب زحمة وإزعاج المطاعم وأحيانا طريقة أكل الزبائن، و زوجتي

السابقة لم تكن طباخة بارعة، قررت تعلم الطبخ وأن تكون وجبتي من اختياري وبطريقتي، لم يكن الأمر سهلا في البداية، لكن مع الوقت عرفت أن الطبخ موضوعة أدبية، الطبخة هي نصك الخاص، تتأثر بأسلوب بعض الطباخين في البداية، لكن أسلوبك يظهر دون أن تشعر من خلال الابتكار، الإضافات، والإحساس بحرارة النار وكيفية صنع النكهة وليس صنع الطعام هو ما يميز طباخ عن غيره، المكتبة ملهمة والمطبخ ملهم بطريقته هو أيضا، التذوق أمر صعب، إحساس فردي بعيد عن كل فهم أو تفسير، خيارات الطعام تحددها ثقافتك، ثقافة فقيرة، خيارات فقيرة. كانت تسمع باهتمام شديد، تضع إحدى رجليها فوق الكرسي وذقنها على ركبة هذه الرجل الأنيقة، طبخت لها يخنة اللحم مع الزيتون، وهي أكلة ذات نكهة معقدة، تحضيرها بسيط لكن يحتاج إلى مهارة، تحضر من لحم الخروف، لحم الكتف أو الساق بدون عظام، ملعقتين من ملح كوشير وهو ملح حبته كبيرة ولا يذوب بسرعة، كوب زيت زيتون صافٍ، قرنفل مهروس مع ثوم، كمية صغيرة من رقائق الفلفل الأحمر، ملعقتان من إكليل الجبل وكوب من النبيذ الأبيض، ثم تأخذ كوبا من الزيتون الإيطالي الأسود مع ملقعة من خل النبيذ وتدق الزيتون جيدا، يقطع اللحم إلى قطع صغيرة تجفف من الماء وتوضع على نار متوسطة، و يسكب زيت الزيتون في إناء الطبخ، تبعثر رقائق الفلفل وفصوص الثوم في الإناء، عندما يحمر الثوم توضع قطع اللحم، و بعدها يوضع الإكليل، في هذه

المرحلة حرارة النار تكون هادئة جدا، و تضع غطاء الإناء وتترك اللحم ينضج بلطف، بعد إطلاقها كل العصارات والدهون يتم تقليبها، يترك خمس عشرة دقيقة أخرى ثم يتم تقلبيه مرة أخرى، عندما يحمر لون اللحم ويكون قد أفرز كل الدهون والعصارات، تضع مقلاة على النار وتمسكها بشكل مائل، تضع فيها قطعة من شحم الخروف والزيتون والخل مع كوب النبيذ، تحركها بسرعة إلى أن تغلي كل السوائل لتتكون صلصة، يوضع اللحم في هذه المقلاة وتقوم بتقليبه إلى أن يتم طلي اللحم بالصلصة، يترك لمدة عشر دقائق على نار هادئة، عندما تذوقت بياتريس اليخنة صرخت، صدمتها النكهات الجميلة والمذاق النادر، الندرة هي ما يخلق التذوق وليس الوفرة، كانت سعيدة جدا وهي تتناول الوجبة ورشفات النبيذ، لن أنسى نظرة الامتنان في عيونها، لن أنسى أصابعها البريئة جدا وهي تلمس كأس النبيذ، كان والدي قد نام وأنا في هذه اللحظات أسمع صوت انفجارات بعيدة، و أشم رائحة اليخنة وأتذوق طعم بياتريس، نمت وأنا أشعر أني على فراشها وأقرأ صفحات من كتاب بروست.

في فجر اليوم التالي وبعد صلاة والدي مباشرة صعدت إلى السطح لتفقد خزانات المياه بعد تشغيل المضخة لمدة ساعة، كانت الخزانات ممتلئة عن آخرها، نظرت إلى البحر والسماء الغائمة الحزينة، في طريقي إلى النزول رأيت شخصا يشير لي

من على سطح بيتهم، عرفته مباشرة هو من الجيران القدامى في الصابري وصديق لأخي الصغير، رفعت يدي بإشارة ترحيب، قام بعدة إشارات أخرى لم أفهمها، طلبت منه الانتظار، نزلت إلى غرفة مكتب الوالد وجئت بتلسكوب من فوق المكتبة، صعدت ونظرت به إليه، أشار بأنه سوف يأتي ليراني هذه الليلة في الساعة الثانية عشرة، أشرت له بأني قد فهمت الرسالة ونزلت، كانت هذه أول محادثة مع شخص غير والدي منذ قررت البقاء هنا، لم أخبر والدي بشيء، كان اليوم هو موعد الاستحمام، سخنت الماء وأخذته على الكرسي المتحرك إلى الحمام، كان يستحم وهو على الكرسي، يبقى بالشورت الداخلي فقط أثناء وجودي وبعد نهاية الاستحمام وتنشيفه جيدا أتركه ليغير لباسه الداخلي، كانت عملية مرهقة ومؤلمة جدا بالنسبة له، لكنه كان يرفض أي مساعدة مني، الجو أصبح باردا جدا مع أول أيام الشتاء، وكان عليَّ أن أحميه من البرد بكل الطرق، جوارب وسروال داخلي وملابس كثيرة، أقل برد كان يسبب له في ألم أقوى من قدرته على الاحتمال، سار اليوم بنفس روتين الأيام السابقة، وفي المساء شغلت المولد لمدة ساعة، وبعد أن شاهد التلفزيون وتأكد أن الحياة خارج الصابري مستمرة وأهل بنغازي كالعادة معنوياتهم عالية ارتفعت معنوياته، وتناول وجبة العشاء بمتعة كبيرة، بعدها كان جاهزا للحديث عن الكوميديا الإلهية، لكنه بدأ من بعيد جدا، كان ينظر إلى ضوء الشمعة وهو يحرك يده على ركبته وفجأة قال:أليست مفارقة أن

تقوم الحرب في المكان الذي ولدت فيه أثينا، هنا ولدت عند بحيرة تريتونيس أو سبخة السلماني، هذه البحيرة أخطأ هيردوت عندما قال إنها في خليج سرت، و قد أخطأ من قال إنها في أي مكان آخر، البطالمة رسموا حدودهم الجغرافية التي تنتهي ببحيرة تريتونيس كآخر نقطة في الغرب، وهذا ينهي الجدل حول هذه النقطة، في هذا المكان الذي تدور فيه الحرب الآن ولدت أثينا حامية المدن القديمة، كانت النبوءة التي سمعها زيوس هي أن ولده القادم من الإلهة ميتيس سيطيح بسلطانه كما أطاح هو بسلطان أبيه، كانت الإلهة ميتيس من الآلهة الإغريقية القادرة على التحول في أي شكل، أقنعها زيوس بتحويل نفسها إلى جسم صغير جدا وابتلعها حتى يضمن عدم ولادة أثينا، لكن الصداع كاد يصيبه بالجنون، لهذا طلب من هيفيستوس إله الحرفيين حلا للمشكلة، صنع هيفيستوس فأسا كبيرة خصيصا لفتح رأس زيوس وإخراج أثينا، لكن ميلادها لابد أن يكون في مكان بعيد عنه وعن سلطانه، اختار بحيرة تريتونيس كمكان لخروجها، ضرب هيفيستوس رأس زيوس فخرجت أثينا بكامل سلاحها وعتادها، أسلحتها تلمع وعيونها ساطعة مثل الشمس، اهتزت الأرض بشكل مخيف، السماء صرخت بفضاعة، البحر أحدث رغوة عظيمة، وحدثت فوضى عارمة في الكون، هرب هيفستوس وتراجع زيوس قليلا، لكن أثينا خلعت كل سلاحها وخاصة درعها فعاد الكون إلى طبيعته، في هذا المكان الذي تدور فيه الحرب ولدت سيدة العالم

في لحظة من لحظات التاريخ، أثينا إلهة ليبية وتمثل الثقافة الليبية التي تأثر بها الإغريق كثيرا، لهذا تقول الأسطورة إنّ أثينا التي كان من المفترض أن تشكل تهديدا لزيوس أصبحت عونا له، أغلب الآلهة الكبار مثل بوسيدون وغيره هم آلهة ليبية في الأصل، هنا ولدت الآلهة والعصور والتاريخ، في هذه البقعة المالحة والقاحلة والمهترئة ولد كل شيء بما في ذلك معنى المقاومة.

دانتي أيضا تحول إلى أسطورة، وقد خرج من رؤوس كتَّاب كثيرين، مثله مثل هوميروس وفريجل وهوراس وشكسبير وغيرهم، العظمة تشكل الأساطير وتمنحهم أبطالها الخلود، لقد أصبح دانتي ذاكرة الغرب وضميره الروحي والسياسي، دانتي حدث فريد من نوعه، فهو في الكوميديا يحكم على نفسه، على الآخرين، على السلطة الدينية والسياسية، على السادة والكنيسة، لهذا هو فريد، الكتَّاب الكبار لم يقرأ لهم إلا القليل من الناس، لكن الجميع يعرفهم، لهذا هم أساطير، كان مايكل أنجلو يسمى الإلهي بنفس الطريقة التي تم بها تسمية الكوميديا بالإلهية، الذكاء المفرط هو نعمة إلهية ولهذا توصف الأعمال الناتجة عن هذا الذكاء بالإلهية، لقد اقتبس مايكل أنجلو من جحيم دانتي في جدارية الحكم الأخير، و كتب قصائد عن دانتي، هكذا أصبحت الأسطورة مضاعفة، ونظر العالم في تلك الفترة إلى دانتي ومايكل أنجلو ككاتبينِ وفنانين عظيمينِ خبَّآ أعظم الأسرار

الفلسفية والإلهية تحت ستار الشعر والرسم، بوكاتشيو أشار إلى أن هناك معرفة لا يجب أن تكون مشتركة بين الناس، الشاعر والفنان يستخدم المزاج لخلق حجاب، لكن ليس لإخفاء الحقيقة أو إنكارها، بل لتكون صعبة على الأغبياء والحمقى، بهذه الطريقة تكون الحقيقة ثمينة وصعبة وتحتاج إلى جهد، هذا يعود بنا إلى المتاهة، إلى المشي على الحصى والتعب، ما أحدث الفرق بين العصور الوسطى وعصر النهضة هو دخول فرنشيسكو بترارك إلى المكتبة أو إلى المتاهة، لقد اكتشف بترارك رسائل شيشرون الشخصية في فيرونا عام 1354 وفي هذه الرسائل وجد اللحظة المحورية في الخروج من العصور الوسطى إلى عصر النهضة، لقد قام بترارك بتخطي العصور الوسطى إلى العصور الكلاسيكية، وهو أول من قال إن العصور الكلاسيكية أكثر إثارة للإعجاب من العصور الوسطى، دانتي كان قد قفز هذه القفزة في الكوميديا الإلهية، كل الحركة الثقافية في عصر النهضة كانت مهتمة بالعودة إلى أمجاد الماضي المهملة، العودة بنفس التبجيل الذي وصف به دانتي فيرجيل في الجحيم:إنك لأستاذي ومرجعي* منك وحدك أقتبس*الأسلوب الرفيع الذي زادني مجدا.فيرجيل يمثل العصور الكلاسيكية المرشدة للخروج من ظلام العصور الوسطى:في منتصف طريق حياتنا*ألفيتُني في غابة مظلمة*لأن جادة الصواب كانت مفقودة.لاحظ هنا صيغة الجمع في حياتنا، لقد وجد دانتي نفسه في منتصف عالم يلف فيه الظلام حياة

الناس وأتخذ من فيرجيل مرشدا له للخروج منه، بترارك وجد نفسه في عالم يلف فيه الظلام حياة الناس واتخذ من شيشرون مرشدا له، كتب بترارك كتابا وهو عبارة عن رسالة إلى سقراط، ثم كتب كتاباً آخر بعده يرسل فيه رسائل إلى الكتَّاب الكلاسيكيين وهم شيشرون، سينيكا، ماركوس فارو، كينتيليان، تيتوس ليفيوس، أسينيوس بوليو، هوراس، فيرجيل، و أخيرا هوميروس، لقد كان شيشرون سلف بترارك، لكن هذا الأخير لا يمنع نفسه من التغلب عليه كما دانتي مع فيرجيل، في العصر الحديث إيتالو كالفينو يسأل:لماذا نقرأ الكلاسيكيات؟بالنسبة لكالفينو الكتب التي تشكل ثروة هي الكتب الكلاسيكية، الكتب التي نقرأها مرات ومرات وعندما نصل إلى سن النضج نجد فيها متعة غير عادية، لهذا الكتب الكلاسيكية هي الكتب التي تمارس تأثيرا خاصا عندما تفرض نفسها ولا تنسى، أو عندما تختبئ في طيات الذاكرة وتحاكي لاوعي الجماعة أو الفرد، و يعتبر كالفينو أن كتب بورخيس على رأس الكتب الكلاسيكية، نحن الآن في وسط المتاهة، نحن الآن في مكتبة بابل، هل لاحظت ذلك؟نحن نذهب أبعد وأبعد مع كل كلمة، إذا كان الكتاب الكلاسيكي لا ينتهي أبدا، فهذا لأن كل كتاب كلاسيكي هو باب لمتاهة، عليك أن تقرأ الكوميديا بهذه الطريقة، أنت الآن أمام البوابة الكبيرة لأكبر متاهة عرفتها البشرية.

كان صدى صوته على كل جدار من جدران الغرفة، كان صدى صوته يعود من الجدران محملا بالأسى وحميمية لا نهائية، كيف حرمت نفسي من هذا الوضوح النادر كل هذه السنين؟ كيف لم ألتقط هذه الشفافية وهذا اللسان النظيف بشكل غير متوقع؟ كنت دائما على الهامش، في تلك العزلة الأنيقة مع الكتب، لكن ها أنا أكتشف أن تجربتي معها كانت محدودة، أشعر الآن أني شخص يعيش وسط الكارثة، لكن وفي نفس اللحظة الشخص الوحيد الناجي من كارثة أخرى، في هذه السن وبعد هذه التجارب أشعر بضعف تماسك كل شيء من حولي، طلبت منه أن يرتاح ويكمل الحديث في وقت آخر، ساعدته على رفع رجليه والاستلقاء على ظهره، النظر إليه الآن، في هذه اللحظة، يجعل الحياة هادئة وصامتة ومتماسكة بطريقة لا رجعة فيها، خرجت من الغرفة وذهبت إلى غرفة المكتبة، وضعت الشمعة على مكتبه وهي تتذكر الحركة الدؤوبة في مكتبات العصور الكلاسيكية، كانت الشموع في كل أرجاء مكتبة أوربينو التي أنشئت في القرن الخامس عشر بفضل فيديريكو دا مونتيفيلترو، في هذه المكتبة وعلى ضوء الشموع تم نسخ الكتب الكلاسيكية بحروف أنيقة مع زخارف ورسوم جميلة، كنت أحاول استخدام طريقتهم في النظر إلى الكتب على ضوء الشموع، لمست كعوب الكتب، قرأت العناوين، وجدت طبعات بلغات مختلفة للكوميديا الإلهية، فتحت بعضها، كانت التعليقات مكثفة في النسخة الإيطالية، كان خط والدي واضحا

وجميلا، انتبهت إلى كتاب لا يحمل عنوان الكوميديا وعندما سحبته اكتشفت أنه رسوم توضيحية للكوميديا الإلهية رسمها وليم بليك وقد استخدم فيها القلم الرصاص والألوان المائية، كان وليم بليك شاعرا ورساما للصحف، بعد وفاته تم احتقار أعماله ونظر إليها الوسط الثقافي كأعمال شخص مجنون، احتاج الأمر نصف قرن ليتم الاعتراف به كعلامة فارقة في تاريخ الشعر والرسم الإنجليزي، كانت الرسوم التي تصور الجحيم غاية في الجمال، وضوء الشمعة منحها هيبة إضافية، الساعة اقتربت من الثانية عشرة، وضعت الكتاب في مكانه، ذهبت، إلى حيث المسدس وعلب الرصاص، أخرجت المسدس ثم علبة رصاص وبدأت ملء المخزن، رجعت المخزن إلى مكانه، سحبت الأقسام، وضعت المسدس في حزامي من الخلف وغطيته بملابسي وذهبت إلى الباب الرئيسي، رفعت الماسورة التي كنت قد وضعتها خلف الباب وفتحته برفق ثم جلست القرفصاء خلفه، أنا لا أعلم ما الذي يريده أو ما الذي دفعه للمخاطرة والحضور إلى هنا، لابد من أخذ الاحتياطات اللازمة، دخل فجأة وأغلق الباب خلفه، كما لو أن ظله هو الذي دخل وليس هو، عانقني كأني صديق لم يره منذ ألف عام، ربما شعرنا في تلك اللحظة بمخيلة السجناء، نحن لا نوجد في سجن بسبب حكم قضائي، بل بسبب الانضباط، التفريط في الانضباط يعني الموت، لابد أن تعين الحارس على نفسك، حتى لا يعلم هؤلاء القتلة بوجودك، نحن مسجونون هنا

بتهمة جنون الهرطقة ضد قناعات هؤلاء المجانين، كان جارنا في عمر أخي الصغير، نحيل ويبلس معطفا قصيرا أسود وقبعة صوف سوداء، طلبت منه الدخول إلى الفناء، جهزت القهوة ولحقت به، عندما وضعت القهوة على الطاولة وجدت أنه وضع المسدس الذي كان يحمله عليها، سحبت المسدس من تحت ملابسي ووضعته بجانبه، ضحكنا لأننا شعرنا أننا من رجال العصابات في أفلام روبرت دي نيرو، أشار لي بأن نتكلم بصوت منخفض جدا، هو أيضا تركه أخوته للمحافظة على المنزل لكنه أضاف:أنا لم أنم ليلة واحدة خلال حياتي خارج الصابري، لم أستيقظ في مرة ولم يكن البحر أمامي، أنا قبل المدرسة مع البحر، في الابتدائية مع البحر، في الإعدادية مع البحر، في الثانوية مع البحر، في الجامعة مع البحر، و في البطالة بعد التخرج مع البحر، لا أعرف الحياة بدون البحر، كنت أصطاد ببندقية الغطس الحر، ثم بعد أن أصبحت عاطلا عن العمل استخدمت البارود، أعلم أن هذا الأمر يفسد الحياة في البحر، لكن ماذا أفعل ليس هناك طريقة أخرى لكسب المال، لهذا قبلت بهذا السجن الاختياري.

نظرت إلى وجهه الحزين وهو يقول هذه الكلمات، نظرت إلى عيونه المحاصرة بالسواد بسبب السهر والإرهاق، هؤلاء الشباب الذين عاشوا طفولة سلبية، ليس بسبب عائلتهم أو القمع الأسري، بل بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كانت

الطفولة في جيلي أنا موضوعة أدبية، في الصابري الطفولة مرتبطة بالحرية، لكنها حرية لا تشبه حرية الحاضر، في جيلنا كان الأب والأم والحي وتقاليده ترسم خطواتك الأولى، أما اليوم فالعالم كله يساهم في رسم هذه الخطوات عبر التكنولوجيا، أخبرته أن إخوته الكبار كانوا أصدقائي وأننا كنا مجموعة من المجرمين الصغار، ولدنا وطعم البحر المالح في أفواهنا، لم نعرف سوى صنع الفخاخ للطيور، وقطع النخل من أجل الجمار وهو اسم لب النخلة، صنع سيارات من الأسلاك المعدنية، لعب الكرة على الشاطىء، وبناء أكواخ سرية من الجريد والصفائح المهملة وسط (وشكة)محاطة بأشجار النخيل، في تلك الفترة لم يكن الطفل يملك سوى اسمه، و الشعور بالفخر بأنه من الصابري، كنا نذهب لحفظ القرآن في الزاوية، لكن هذا لم يمنع أبدا تحولنا إلى شياطين صغار بعد الخروج منها، الشيخ نفسه كان يعرف هذا ويضحك من تصرفاتنا المجنونة، لم تكن الصرامة جزءا من حياتنا، لا في البيت ولا في الشارع، كنا أحرارا بكل معنى الكلمة، وربما هذه هي لعنة جيلنا الذي عرف طعم القمع والسجن والعذاب، لم نكن ندرك ما ينتظرنا في المراهقة والشباب، ونحن أطفال نبحث عن الديدان لوضعها كطعم في الفخ لم نكن نفهم حدود التجربة، لم نكن ندرك أننا على وشك الوقوع في فخ الظلم، ونحن أطفال لم تكن هناك حدود، لم نفكر في الاقتراب من شيء أو الابتعاد عنه، لم تكن الأشياء سهلة أو

صعبة، الأشياء موجودة بكل حميميتها وتدخل حياتنا وتخرج منها بسهولة، الكتاب، النخلة، الفخ، موجة البحر، عربة يجرها حصان، كلب يهز ذيله في الصباح ويتبعك إلى الشاطئ، لكن في لحظة ما بدأت الأشياء في التراجع والغياب، وأصبحت الحياة مرهقة وكاذبة ولا علاقة لها بمعنى المتعة، الدكتاتورية تجعل الحياة تلتهم نفسها، و الأيام في ظل الدكتاتورية صماء وبكماء وعمياء. كان يسمعني بكل جسده وروحه ويدخن سيجارته بمتعة، بدأ المطر يتساقط على بلاط الجزء غير المسقوف من الفناء، سادت لحظات من الصمت بيننا بعدها قال:إنهم يقومون بالتجول في المنطقة كل أربع ساعات على مدار اليوم، كل ليلة يتوقفون عند بيتنا بسبب موقعه ويراقبون أي تحرك في أي ناحية، المهم في حديثهم هو أنك إذا اقتربت من دكاكين حميد كثيرا سوف ترجع التغطية إلى الهاتف بسبب قربك من برج عمارات الـ 602، أفكر في الذهاب إلى هناك والاتصال، لكن الهاتف مغلق بسبب الشحن.بسبب خوفي عليه لم أخبره عن المولد وتشغيله لمدة ساعة يوميا، ماذا لو ذهب واكتشف هؤلاء المجرمون أمره، سوف يستمتعون بذبحه ونشر صوره على مواقع التواصل الاجتماعي، أخبرني أيضا أن هناك قوارب مطاطية تصل إلى الشاطئ في بعض الأحيان وفيها مقاتلون، وأنه كان يسمع في أحاديثهم لهجات عربية أخرى، كان يراقب كل شيء على مدار الساعة، وفهم أن القتال مركز في منطقة مستشفى الجمهورية، و في مدخل الصابري

من جهة السجل المدني، و في شارع عشرة وأماكن أخرى في اللثامة والزريبعة، هذا هو السبب في عدم اهتمامهم بالشوارع المطلة على البحر، كان صوت المطر خافت للغاية، كأنه شخص يتكلم بهدوء ويستمر في قول وجهة نظره وسط هذا الفضاء المشحون بالموت، المطر لا يخاف من أن أحدا قد يسمع صوته في الخارج، لا يخاف الموت على طريقة العصور الوسطى، في الصابري الذي نحن فيه الآن قد لا تموت ميتة يعرفها أهل هذا العصر، ربما بسبب مرض لعين أو الشيخوخة أو حادث سير، هنا ستموت على طريقة عصور الظلام، لا أهل حولك ولا صديق ولا عاطفة تعرف كم الوقت المتبقي لك، ربما تُحرق على وتد بسبب اتهامك بالهرطقة، ربما يقطع رأسك بالسيف لأنك تحمل أفكارا عصرية سيئة ومخيفة، ربما تذبح لأنك تحب الكتب والثقافة، لقد عدنا إلى أيام النطع والسيف، عدنا إلى عصر شهرزاد التي تنتظر صوت الديك كل صباح، لكن هؤلاء المنتشرين في الصابري ليس لهم رغبة في الاستماع إلى حكايتها، هنا الحدود غير مؤكدة بين الحياة والموت، بين العصور الوسطى والقرن الحادي والعشرين، قرر جارنا أن يذهب، نهض ووضع المسدس تحت ثيابه، كأنه أمر شائع ومألوف أن تخرج للشارع ومعك سلاحك، محزن أمر هذه الحقيقة المبتذلة، حقيقة أنك قد تكون في أي لحظة قاتلا أو مقتولا، نبهني إلى موعد الصعود كل يوم صباحا للتأكد من أن الأمور بخير، خرج من الباب ومعه حكايا شهرزاد وجمال الحياة،

هذا الصغير الذي كان من المفترض أن يتجذر الآن في هذه الحياة، أصبح ينظر إليها بشكلها المشوه والمرعب ومصدوم من الموت المخبأ في ملامحها.

وضعت المسدس في مكانه وذهبت إلى السرير، فكرت في كلامه عن إمكانية الاتصال إذا اقتربت من الطريق العام، لكن لا أستطيع المجازفة بسبب والدي، لو حدث لي أي شيء سيموت هنا وحده، لا، لا، لن أجازف بوالدي من أجل اتصال، المطر في الخارج يعلن عن نفسه بصوت يشبه الأنين، هل هي صدفة غريبة أن يهطل على هذا المكان البائس، هنا لا توجد أي بداية يمكن أن يحققها هنا، في هذا المكان لا ينبت شيء سوى الصمت والظلام والخوف، كيف يمكن للفرد أن يصمد في وجه هذا العالم الشرير؟ لماذا تجذب بلداننا الموت بهذه الطريقة المأساوية؟هذه الحياة على حافة نصلٍ مملة ومستفزة، بالنسبة لنا العالم لم يكتمل بعد ؛ لأننا لا نشعر بجمال الحياة وأهميتها إلا بعد الانتهاء منها، إلا بعد أن يكون شخص ما قد مات وهو أنت نفسك، تعلمت من بياتريس أن للفرصة وظيفة عاطفية، تعلمت منها أن الصمت نفسه يجب أن يكون مدويا، كنا نجلس الساعة الثالثة صباحا في كوستا كافي في شارع الحمرا، هذا المقهى الذي لا يغلق أبوابه أمام الزبائن في أي ساعة من ساعات اليوم، تقول وهي تمسك فنجان القهوة: نحن الآن على حافة المدينة، على حافة

الغابة الكبيرة، في الليل مع هؤلاء القادمين من عالم الأرق ليس عليك التخلي عما أنت عليه، أنت هنا غريب، شخص يعيش على التخوم، و لا يجد نفسه إلا وسط أكوام الكتب المستعملة، مع ذلك الفرصة تأتي بشكل غير متوقع، سألتها:ألم ينتهز يوكيو الفرصة ويطبخ لكِ وجبة يابانية؟ ضحكت وقالت:لم يكن من هذا النوع أبدا.كنت أنظر إليها وفي قلبي شيء من الغيرة، كان وجهها قد احمرَّ لذكر يوكيو في هذه اللحظة، حاولت تجنب اللحظة بقولي: لقد تم اختراع الكاتشب في القرن التاسع عشر، لم يفكر أحد في الطماطم أبدا، كان يصنع من الفطر والمحار والخيار وغيرها، هذه المعلومة عرفتها من كتب الأدب، وصفات سندوتشات السردين في كتب الكاتب ردولفو أنايا نبهت الناس إلى أهمية هذه السندوتشات في الثقافة الإسبانية، هذه المعلومة لديها نفس أهمية معرفتنا بأن شيكانو كلمة تشير إلى الأمريكيين المكسيكيين المولودين في أمريكا، أو أن الكاتب ردولفو أنايا ولد يوم 30 أكتوبر عام 1937. همينغواي، فولكنر، إيملي دنكسون، نوبكوف، ملفيل، مارك توين وغيرهم كانت هناك وصفات طبخ في كتبهم، لماذا المثقف والكاتب يشعر بالطبخ أكثر من غيره، لأنه عندما يضع الكبد في طبخة ما، يتذكر على الفور كبد بروميثيوس سارق النار التي يلتهمها نسر في النهار وترمم في الليل ليعود النسر ويلتهمها مرة أخرى، يتذكر قول أجاممنون في مسرحية أسخيلوس مع الجوقة : أشياء كثيرة تلمس الكبد .

هنا الكبد هي مكان العواطف، في مسرحية لسفوكليس يقول أياكس مع الجوقة:الحزن الحقيقي الذي أعرفه، يذهب إلى الكبد. وشكسبير يقول:الفحم الذي يشتعل في كبد. وأيضا:الثلج البكر البارد الأبيض* يخفف من شغف كبدي، هملت يصف نفسه بأنه:حمامة كبد حمراء، بسبب خجله وعدم غضبه، في ليبيا يقال عن الابن أنه الكبد، وعندما يلومكِ شخص بشكل فيه نوع من التعذيب تقول:لا تأكل كبدي. وهذا فيه رجوع إلى نسر بروميثيوس، هذا الكلام موجود في قاموس رموز الأدب، يتداخل الأدب مع الطبخ في الكثير من الكلمات، الطبخ موجود في صميم الأدب، كانت تدخن سيجارتها على مهل وهي تسمعني، بيروت في وجودها مكان رائع لتموت فيه، كانت تفكر لدقائق ثم قالت:لم أفكر في المطبخ أبدا، فكرت في القلم الرصاص والورقة البيضاء، لقد كنت متأثرة كثيرا بوالدي، أمي تحظى باحترام كبير من الجميع لكنها مربية فاشلة جدا، ربما أفسدها المال أكثر مما أفسد أولادها، لم تتعلم أبدا كيف تفاوض الحياة، المال دائما في كل اتجاه تنظر إليه، عندما كنت منفية في أمريكا لم أشعر ولو للحظة أنها تريد عودتي، الحقيقة أن الإنسان يمكن أن يكتب طوال اليوم بسهولة، لكن من الصعب أن يتكلم الإنسان عن نفسه، هناك شعور بالعار لأن حياته لم تكن فيها إلا نكهات قليلة طيبة، الباقي –كما قلتَ أنتَ – مجرد طبخة بلا حب، بلا مذاق، بلا رائحة، أكْلٌ لسد الجوع، أعتقد أن النضج في عائلتي

يعني الوصول إلى الشروط الموضوعة من قبل طبقة أرستقراطية، أما النضج الذي اخترته فهو الذي يرفض المطابقة ويحتفل بالفوضى الطفولية والتمرد، نظرتْ إلى البعيد وجمعتْ أشياءها في حقيبتها ورحلت تاركة خلفها إشارة من يدها تقول وداعا.

الخيال هو الخير والشر، هذه الازدواجية في الخيال حيرت البشرية منذ أقدم العصور، لكن الأهم من موضوع الخير والشر، هو القدرة على صنعك نسخة وهمية من الواقع، و استحضار صورة عن الشيء أو الشخص الغائب، في خيالنا الحد الفاصل بين الطبيعي والمعجزة غير واضح، وأنا في صراع مع الوقت الذي يسير ببطء شديد كنت أتخيل :أماكن، وجوه، أحداث، في اليوم الذي نزل فيه آدم إلى الأرض ولد الوقت، لا يمكن العبور من خلال الوقت إلا عن طريق الخيال، والدي يعيش الآن مثل بورخيس تماما، يكتب مقدمات لم تكتب أبدا، ويقتبس من الكتب الممكنة وليست الموجودة بالفعل، بهذه الطريقة يرسم جغرافيا بعيدة عن هذا المكان، هو هناك في الصفحات المكتوبة ببراعة، في صوت ملمس الكتاب من أقدم العصور إلى الآن، وأنا هناك في عالم بياتريس المرسوم بألوان الذاكرة، كان الإغريق يعتقدون أن الشمس تموت في لحظة غروبها، وكان الغرض من التضحية للشمس هو مساعدتها في عبور الظلام لكي تولد من جديد، كل يوم هنا هو عبور للظلام وولادة جديدة، أقوم بالأعمال

اليومية وأنا أسافر بجناح الخيال إليها، في عيد أبولو كانوا يربطون في جسد الأضحية البشرية طيوراً لتساعده على الطيران ثم يرمى من فوق جرف، وفي الأسفل ينتظره الماء وقوارب لإنقاذه إذا تبين أنه حي، أنا ووالدي الواقع يقذفنا من فوق الجرف والخيال يربط بنا طيورا كي نحلق بعيدا عن الموت، مع الوقت أصبحت الأعمال اليومية أسهل، عرفت كيف أقتصد في كل شيء بصورة منهجية، الضيق هنا هو القاعدة وشعورك بحالة مزاجية جيدة هو الاستثناء، لهذا يجب التخلي عن ردود الأفعال والسيطرة على النفس بشكل كامل في كل ثانية من ثواني اليوم، ضعف الحياة يؤدي إلى ضعف الأعصاب، كان والدي متماسكا بشكل استثنائي، وكان عليا أن أجاري هذا التماسك بطريقة أو بأخرى، لقد أصيب الكاتب ردولفو أنايا في حادث سباحة بشلل مؤقت منحه الفرصة للبحث عن إجابة لمعنى الحياة ومغزى وجوده، أنا سأعتبر هذه الفترة شللاً مؤقتا للبحث عن نفسي، تعلمت في الأشهر الماضية أن أسمع وأتذوق وأشم وأرى بطريقة جديدة، اللامبالاة لا تعطي مجالا لهذه الحواس كي تفتح أفواهها وتتكلم، عليّ أن أبدأ في كتابة رسائل لبياتريس، لقد وعدتها ولا مجال للتراجع عن وعدي، أيضا اكتشفت أن الكتب الكلاسيكية لا تزال بقعاً غامضة ولابد من إعادة قراءتها، قذائف الهاوزر وهي تمر فوق رؤوسنا تطحن الأرض وتتقدم ببطء نحو هدفها، الشتاء يتسابق في الشارع مع الريح بين الأشواك والأعشاب الضارة، يتسابق مع رصاصة القناصة التي تسير

بين بيوت أصبحت مجرد ملصقات على جدار كبير، لا أصوات، ولا كلمات الجيران الطيبة، الشتاء ينزلق إلى قلبي بسهولة، منذ طفولتي وأنا أنظر إلى الشتاء كمنزل بجدارن سميكة جدا تعزلني عن العالم، هذه المرة جاء الشتاء وأنا بالفعل معزول كأني في صورة فوتوغرافية معلقة على جداره، لا أدري لماذا أتذكر يوميا السنوات المبكرة من حياتي، خاصة التي عرفت فيها معنى الحرية، وأنا مراهق أثناء العطل المدرسية كنت أذهب مع ابن خالتي إلى بيت خالتنا في سيدي مهيوس، هذه المنطقة البعيدة عن هوس المدينة والتحضر، هناك لمست الأرض بشغف، صعدت إلى التلال المجاورة للقرية، أجلس هناك وأرقب الفتاة الصغيرة التي تسير خلف الأبقار، الرعاة وهم يخرجون وأمامهم قطعان الماشية، الشمس وهي تقبّل سقف البيت تلو البيت، بيوت فقيرة لكنها تنام ولا يوجود في فمها طعم الكراهية أو الحقد، كنا نجري مع الريح بعد أن نسرق البيض من خن الدجاج لإقامة وليمة خارج البيت، نجري خلف جربوع بعد صب الكثير من الماء في ممرات المتاهة الواسعة التي حفرها بإتقان، متاهة تشبه متاهة علاقات الحب الكثيرة في القرية، نسمع الشعر في الأفراح، وأغاني قديمة من خالتي وهي تهز «الشكوة» لإعداد اللبن واستخراج الزبدة منه، كنا أحرارا ولم نفكر أبدا في الجانب المظلم من العالم، كانت الشمس تخترق أرواحنا والأرض خالية من الوحوش ورجال محاكم التفتيش، الآن عدنا إلى القرون الوسطى ورجال محاكم

التفتيش في كل مكان، يبحثون في عقيدتك، إيمانك، تدينك وحتى مظهرك عن سبب لقتلك.

صعدت إلى السطح لأطمئن على ابن الجيران، ظهر في الموعد وعرفت أنه بخير، والدي بسبب البرد لم يعد يخرج من السرير إلا إلى الحمام، جلست على السرير مقابلا إياه، وهو يتناول فطوره، قال وهو مبتسم:أول شيء سنفعله بعد انتهاء هذا الكابوس هو إقامة عرس لك، عليك أن تعيد النظر في موضوع الزواج، نعم الكثير مما قلته صحيح وفيه الكثير من الحقيقة، لكن الحياة ليست دائما عنبرا كبيرا ولا خزانة ضيقة دائما، هناك حياة خارج الكتب والحياة الخاصة، المرأة ليست دائما عقبة في طريق القارئ المدمن على الكتب أو الكاتب الذي يجب هو أيضا أن يكون مدمنا على الكتب، هناك نساء من طينة أخرى، نعم هذه الطينة نادرة بطريقة ما، لكنها موجودة، وهناك نساء كن أول قارئ ومستشار وفي بعض الأحيان محرر لأزواجهن، هذا النوع من النساء يعشق الدور الثانوي لكن الثمين جدا، فيرا زوجة فلاديمير نابوكوف كانت تطبع على الآلة الكاتبة لزوجها وتقوم بدور المحفز والمستشار والمحرر، لم يرَ إنسانٌ فلاديمير وفيرا صامتين، دائما كانت هناك همهمة متصلة بينهما، لقد انصهر الحب والزواج على الصفحات وفي حروف آلة الكتابة، كانت شريكا مبدعا في كل شيء، ونظرت إلى هذه الشراكة كشيء إبداعي في حياتها،

فلاديمير حاول جرها إلى دائرة الضوء، لكنها اختارت البقاء في الظل إلى درجة أن طلبة فلاديمير كانوا ينظرون إليها على أنها كونتيسة ألمانية، والبعض اعتقد أنها من العائلات الفرنسية الراقية، وآخرون أكدوا أنها بولندية، كانت فيرا بالفعل في دائرة الضوء ومشهورة جدا بسبب تعليقات وكلمات نابوكوف عنها، عندما رأى تولستوي «آنا» أرملة دوستويفسكي انبهر وقال: كيف يشبه كتابنا أزواجهم إلى هذه الدرجة، يقصد التشابه الفكري، و صوفيا زوجة تولستوي كانت تشبهه فكريا وعندما نظر إليها بوريس باسترناك شعر بهالة حولها وبرهبة من الوقوف أمامها، بالتأكيد لا يمكن أن نعمم هذه التجارب، لكن من جهة أخرى علينا أن نؤكد على الاختيار الصحيح لهؤلاء الكتَّاب، صحيح أن الحصول على هذه المرأة ليس بالأمر السهل، لكن هي موجودة في مكان ما وعليك فقط البحث عنها. كان يتكلم وكأنه يريد أن يضحك، لم أعرف ما إذا كان جادا في حديثه أو يمزح، لم أضيع الفرصة وقلت: بعد هذه الأزمة أنا من سيبحث لك عن عروس، يمكن أن تعتبره تعويض مني عن النظر إلى وجهي أنا فقط طوال هذه الفترة، عليك أن تجهز نفسك لحياة زوجية جديدة. ضحك من أعماقه ورد بسرعة: أنا جاهز المهم أن تكون جميلة وتعرف ما معنى الطبخ. كان مزاجه جيدا وفيه الكثير من الحميمية، كنت أتمنى لو أخبره أن التي يتكلم عنها تعتبرني صديقاً، سنوات من الإخلاص اللطيف للعلاقة، بياتريس مثل وصفة الطبخة الأنيقة والسرية، يجب عدم

البوح بسرها حتى لنفسك، عندما أتحدث عنها تقفز أقوى وأجمل الكلمات إلى شفاهي، لكن أنا لا أتحدث عنها لأحد، أتكلم عنها فقط لنفسي عندما تسكت كل الأصوات، اللقاء مع بياتريس يشبه لقاء رودولفو أنايا مع ألتيما، لقاء روحي وسحري وقد يتم إفساده إذا فكرنا فيه كثيرا، صديق ليست كلمة سيئة للغاية، الصداقة تعني المحبة والثقة ومكان الأسرار والاعترافات، الصداقة موهبة لأنها تتطلب التقاط المزاج المناسب في اللحظة المناسبة، مرة أخبرتني أن الوحدة أمر ممل والكثير من الناس أمر يشبه الموت، شخص واحد فقط، صديق واحد تكون وأنت معه كأنك تجلس وحدك، و أحيانا تشعر وأنت جالس معه أنك مع العالم كله، وهذا ما أفعله دائما مع بياتريس، لكن هناك أشياء أخرى في قلبي تجعلها مرئية بشكل كبير، تجعلها مرئية مثل إبرة وسط كومة قش، و أنا واعٍ تماما بأنها هي هذه المرأة التي كان والدي يتحدث عنها منذ قليل، كنت سعيدا في هذه اللحظة لأني لم أخبرها بحقيقة شعوري نحوها، الغريب أني أعرف شعوري نحوها من اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، لكن تركت الأمور تسير بالبطء الذي يتناسب وتفكير مرأة مثل بياتريس، لو أني أخبرتها بأي شيء كان من الممكن أن تكون الأمور هنا جحيما أكثر مما هي عليه الآن، و أنا أساعده على التمدد على ظهره قال:اليوم سيكون لنا لقاء مهم مع دانتي، اليوم سنطرق باب الجحيم، عليك أن تستعد لركوب القارب مع خارون.

قمت بالكثير من الأعمال المنزليه، في غرفة والدي والحمام والمطبخ والفناء، كل يوم أدقق في حساباتي لكل شيء، الطعام، البنزين، مخزون اللحم المقدد، السجائر، وبعض الخضروات المجففة مثل الطماطم والبقدونس والكسبر والبصل والثوم والنعناع والباميا، الاطمئنان على البذور التي خزنتها من الخضروات التي وجدتها في ثلاجات وفريزات البيت كله، و في هذا اليوم قررت الصعود وتفتيش كل الشقق للبحث عما يمكن الاستفادة منه، و أكبر إنجاز كان ماكينة حلاقة جديدة في علبتها، شموع كبيرة من النوع الذي يوضع للزينة، جالون زيت صافٍ، بطاريات من كل الأحجام وسماعات للهاتف، الآن يمكنني الاستماع إلى الموسيقا دون إحداث أي ضجة، بدأت في الجلوس يوميا في مكتب والدي لقراءة الكلاسيكيات من جديد، كانت البداية الإنياذة لمعرفة فيرجيل بطريقة جديدة، في المساء وبعد وجبة العشاء تحول الجو إلى عاصف، المطر يضرب النافذة بقوة والرياح تكاد تقتلع كل شيء في طريقها، الشمعة كانت خجولة كأنها تشعر أن حديثنا سيكون عن الجحيم، عن مكان غير مضياف وغير محبب، والدي جالس كعادته يفرك يده اليسرى بأصابع يده اليمنى، ينظر إلى النافذة كأنه يخاف أن تفتح فجأة على الجحيم، أخيرا قال:يقال إن سبب عبقرية ليوناردو دافنشي هو استخدامه لليد اليسرى، دافنشي كان قادرا على صنع المنحنيات بدقة بالغة في الرسم والنحت، هناك من يرى من العلماء أن استخدام اليد

والرجل اليسرى قليل جدا مقارنة مع اليد والرجل اليمنى، لكن من يستخدمون اليد والرجل اليسرى يقومون بكل العمل اليدوي بحرفية عالية جدا، ضربات السد في كرة القدم تحتاج إلى صنع منحنٍ دقيق جدا، أصحاب الرجل اليسرى هم الأكثر تخصصا في هذا الموضوع والأكثر براعة في كرة القدم، المبارزة بالسيف ينطبق عليها نفس الشيء، المبارز باليد اليسرى قادر على رسم منحنيات بالسيف لا يستطيع من يستخدم يده اليمنى القيام بها، المنحيات مهمة في هذه الحياة، لا تستطيع السير بشكل مستقيم دائما، أنت بحاجة لصنع منحنيات لتجاوز العقبات، لا تستطيع النزول بشكل مستقيم لابد من المنحنيات ليكون نزولك آمن، دانتي يهبط في الجحيم ولهذا يسير في دوائر، الهبوط في عالم لا تشرق فيه الشمس أبدا، سماء بلا نجوم، ظلام مطلق، أجساد محتجزة في عيون الرعب، الدموع، العرق، الألم، لو أن دانتي اعتبر المنفى معادلا للموت، هل هذا الجحيم هو المنفى؟هل هذا الجحيم هو عزاء دانتي؟يجب أن ننتبه لنفرق بين دانتي الحاج ودانتي الشاعر في الكوميديا، الحياة في العصور الوسطى كانت عبارة عن رحلة حج، وهذا الحج ينطلق إلى السماء والله، إنها رحلة البحث عن خلاص، هكذا نظر معظم المعلقين إلى موضوع الكوميديا، لكن الواقع يقول أن دانتي وصل إلى بياتريس في الجنة، فهل كانت رحلة الوصول إلى الحب؟دانتي تصور الجحيم كهاوية عملاقة على شكل مخروط مقلوب، يبدأ من القدس في النصف

الشمالي من الكورة الأرضية وينتهي في وسط الأرض، في عالم القرون الوسطى كان نصف الكرة الجنوبي مغطى بالماء ومجهولاً، لماذا جعل دانتي الجحيم حلزونيا، يحتاج الهبوط فيه إلى السير في منحنيات؟هل الذي كتب الجحيم هو دانتي المسيحي أو دانتي الوثني؟البعض يرى أن دانتي ينتمى إلى إحدى الجماعات الباطنية التي تتبنى إلى جانب المسيحية الكثير من المعتقدات الإغريقية والرومانية والقبالية والباطنية الإسلامية، ومنهم من ذكر االسم هذه الجماعة وهو:جماعة الإيمان المقدس، وهذه الجماعة سرية ويتعهد الداخل فيها بعدم نشر معتقداتها وأفكارها، مثل هذه الجماعة موجودة في التاريخ الإسلامي، وقد أسس ميمون القداح هذا المذهب الباطني عام 276هـ، هذا المذهب يعتمد على مراتب روحية وتسلسل هرمي لمن ينتمون إليه، هل الشكل المخروطي يمثل هذه الهرمية الروحية لهذه الجماعات؟هناك رموز وأرقام وألوان في الكوميديا تحتاج إلى فهم، الأخضر، الأبيض، الأحمر، ارتباط الجحيم بالرقم تسعة، الرقم ثلاثة المرتبط بالمصدر البدائي لكل شيء ومفاجآت الفكر، ثلاثة وحوش، ثلاثة سيدات مباركات، ثلاثة شخصيات رئيسة دانتي وفيرجيل وبياتريس، الجحيم والمطهر والجنة، توقف والدي عن الحديث ونظر إليّ مبتسما وقال:ما تشعر به الآن هو نفس الشعور الذي تشعر به وأنت في وسط المتاهة.

هذه الرحلة إلى العالم السفلي تبدأ في الأسبوع المقدس ليلة الخميس 7 أبريل عام 1300، تستمر الرحلة لمدة سبع أيام بلياليها، يوم وليلة في الجحيم، يوم وليلة في المرور من الجحيم إلى المطهر، وثلاثة أيام بلياليها في الصعود إلى جبل المطهر، نصف يوم في الفردوس الأرضي، الباقي في الجنة. فيرجيل لم يكن مجرد مرشد في الجحيم، في الواقع هو المرشد لكتابة الكوميديا الإلهية، كان دانتي يضع الإنياذة أمام عينيه وهو يكتب الكوميديا، فيرجيل هو الصورة المنعكسة لدانتي، كما كان إنكيدو بالنسبة لجالجامش وهيكتور بالنسبة لآخيل وهو ينظر إلى نفسه في درعه أثناء المواجهة معه، هذا تقليد ملحمي قديم جدا، في هذه الحالة يواجه بطل الملحمة صورا من ماضيه، إنها لحظة تحوّل وتطور في حياة البطل، في اللحظة التي يفقد فيها دانتي الرؤية بسبب الظلام والحجاب الكثيف من الأبخرة، فيرجيل قادر على معرفة الطريق بشكل جيد، يسأل دانتي فرجيل عمن مشى في هذه الطريق قبله، فيجيب فيرجيل بأنه هو نفسه قد مشى فيها بعد موته مباشرة، يشير دانتي هنا إلى تقليده الأعمى لفرجيل سابقا، دانتي المغمور وغير المعروف يرى نفسه في ضوء الشمس عندما لا يكون فرجيل معه، عندما يكون قد تخلص من تقليده ووجد أسلوبه الخاص، لهذا يغضب فرجيل من دانتي في مرحلة من مراحل الرحلة ؛ لأنه على وشك صنع شاعر ستطغي شهرته على من هم قبله، هنا نفهم لماذا كان الجحيم على شكل المخروط، المنعطفات والمنحنيات

خطيرة وقد يسقط الإنسان منها إلى القاع، دانتي كان على وشك تحقيق منعطف أدبي كبير، كان على وشك تحقيق انتقامه بسبب سوء معاملته من قِبل النظام الأدبي والسياسي لعصره. النفي، الفقر، النسيان، الاضطهاد، الظلم، الفشل كلها دوافع شكلت الكوميديا الإلهية كسلاح للانتقام من كل من شاركوا في هذه الجريمة تجاه دانتي،، وهو كان مدركا لمدى خطورة المنعطف الذي يجر العالم إليه، لن يسير دانتي في المسار المتوازن، لن يتبع المنطق المعتاد والمتعارف عليه، لكن لا يكفي أن تعاني كي تكون كاتبا عظيما، عليك أن تكون قادرا على معرفة الطريقة المناسبة لكتابة شيء عظيم، لا يكفي أن تعرف ما يجب عليك القيام به، يجب معرفة كيفية فعل ذلك، عليك معرفة كيفية السير في المنعطفات الكبيرة والصعبة كي لا تسقط في هاوية الجحيم، دعنا الآن ننظر فيما قاله دانتي في بداية الجحيم، و لننظر في هذا المقطع من الأنشودة الأولى الذي يقول فيه دانتي: «وبعدما أرحت قليلا جسدي المتعب*استأنفت مسيري على الشاطيء القفر*و القدم الثابتة ماتزال أدنى من القدم الأخرى»، في تعليق على قول دانتي «القدم الثابتة» يقول الأستاذ كاظم جهاد: «يرى الشراح، بالرجوع إلى النصوص الفكرية والروحية المعاصرة لدانتي (لدى بونافنتوره مثلا) أن القدم الثابتة، بمعنى الثقيلة والمسمرة، هي القدم اليسرى، التي تثقل على الإنسان وعلى اندفاعه، وتذكر ريسيه بهذا الصدد بتدرج خطو دانتي وتائره عبر المنازل الثلاثة. فلئن كان سيره في

الجحيم بطيئا، فإنه يتسارع في المطهر ويكون في الفردوس قريبا من الطيران»، لنذهب إلى ترجمة أخرى وهي ترجمة الأستاذ حسن عثمان: «وبعد أن أرحت قليلا جسدي المكدود*عدت إلى المسير في المرتقى القفر*قدمي المرتكزة هي السفلى دوما»و في تعليق له على قول دانتي «القدم السفلى» يقول: «بدأ دانتي السير في هذا الطريق القفر المرتفع قليلا بقدمه اليسرى أي العليا، وبذلك تكون القدم المثبتة التي يرتكز عليها هي القدم اليمنى أي السفلى، وهي التي يعتمد عليها في تحريك القدم اليسرى، أما عبود أبي راشد فقد ترجم هذا المقطع بقوله: «وبعد أن أخذت قليلا من الراحة*استأنفت السير في ذلك الحدور القفر صاعدا الهويناء*بحيث قدمي الثابتة كانت دائما السفلى»، لم يعلق عبود على «القدم السفلى» لكن ما يهم هو أن هذه الترجمة هي أول ترجمة للكوميديا الإلهية، وقد تمت الترجمة هنا في ليبيا تحديدا بطرابلس عام 1930، نعم لا تستغرب، لقد كان عبود أبي راشد موظفا لدى الإدارة الإيطالية في ليبيا أثناء فترة الاستعمار، وكان يعمل كمترجم بين عمر المختار والإيطاليين أثناء الاحتلال، وقد كانت بينه وبين عمر المختار مراسلات يطالبه فيها بالاستسلام والتوقف عن الجهاد والمقاومة، ترجم الكوميديا الإلهية تحت عنوان «الرحلة الدانتية في الممالك الإلهية»، أليست مفارقة أن تكون أول ترجمة للكوميديا قد تمت هنا في ليبيا أثناء الحرب الليبية الإيطالية، وإننا نقرأ الكوميديا أثناء هذه الحرب؟لكن الأهم

من هذه المفارقة هو أن قول دانتي «القدم الثابتة»حيرّ كل نقاد دانتي.

سار دانتي إلى اليسار عبر منحدر حاد في مسار دائري، وبحسب أرسطو الجزء الأيسر من الجسم هو المسؤول عن ثبات الجسم، كان اليمين في العصور الوسطى يعني الرشاقة ولا يعني الثبات أو القوة، ولكن الحقيقة أن دانتي كان له مقصد آخر لا علاقة له بموضوع المعرفة العلمية، من الغريب أن تكتشف أن الطبيعة لا تنتج خطوطا مستقيمة، الطبيعة تنتج أشكالا دائرية، مخروطية، منحنيات، الخط المستقيم من صنع الإنسان، عندما تنظر إلى سديم حلزوني، قرن حيوان، دوامة على ظهر حلزون، إعصار يصنع دوامة كبيرة، مجرى مائي، تتأكد أن الطبيعة لا علاقة لها بالخط المستقيم، العلماء اكتشفوا أن النمو تحت المقاومة هو ما يخلق الدوامة، النباتات المتسلقة تبحث عن النور في الأعلى، لكنها لا تسير في خط مستقيم، عليها أن تسير في دوامة بسبب المقاومة، ربما لأن الطبيعة تسير دائما في منحنيات ودوائر وأشكال مخروطية اختارت الآلهة الرومانية أن تلبس قبعة مخروطية، هذه القبعة تعني الولادة، دانتي قلب هذا المخروط وصنع فيه الجحيم، دانتي يسير في الجحيم وسط الأشكال الدائرية والمنحنيات، دانتي الشاعر يولد تحت المقاومة، للسير في المنحنيات يجب أن تستخدم رجلك اليسرى لأنها أكثر ثباتاً،

وهذا ما جعل ليوناردو دافنشي يجعل الصاعد على الدرج الحلزوني لقصر بلوا الذي صممه هو يتجه إلى اليسار، لقد صمم هذا الدرج الذي كان قبله مستحيلا على طريقة دانتي، الهبوط يحتاج السير في دوائر، والصعود أيضا يحتاج السير في دوائر، الجبل مخروطي الشكل، عندما تصعد إلى جبل المطهر فأنت لن تصعد في خط مستقيم، أنت مثل النباتات المتسلقة تبحث عن النور وستسير في منحنيات كثيرة تخلق دوامة أو متاهة تصل بك إلى هناك، إذن العالم ما هو إلا مخروط على رأس الآلهة الرومانية يشبه درج دافنشي الصاعد إلى أعلى، أو مخروط معاكس لمخروط الآلهة ورأسه إلى أسفل يشبه الجحيم الذي صممه دانتي، في الجحيم دانتي في حالة ولادة، حياة دانتي السابقة بكل مافيها من ألم وعذاب وحنين هي الجحيم الذي سيولد منه الشاعر الذي يسمى دانتي، لهذا وضع كل من يعرفهم في حياته السابقة بما في ذلك الشعراء الكلاسيكيين في الجحيم، وضع كل الأفكار والمنظومة الأدبية والسياسية والاجتماعية في الجحيم، لكي تخرج من هذا الجحيم وتولد من جديد أنت تحتاج إلى مساعدة، لا يمكن أن تخرج من ظلام ومياه الرحم وحدك، أنت تحتاج إلى حب عظيم يشبه حب الأم ومرشد عظيم يشبه الأب، لقد عاد عصر النهضة إلى الكلاسيكيات على طريقة إيتالو كالفينو، تعود إلى الكلاسيكيات ليس لتقديسها أو لإحياء القديم، بل لمعرفة كيفية تنمية ما هو موجود الآن، قلد فيرجيل هوميروس وكتب الإنياذة،

لكنه لم يحصل على التقدير اللازم بسبب الانتقال من الوثنية إلى المسيحية، مات فيرجيل مع آلهة وأبطال عصر هوميروس، أما دانتي فقد انتقل من الآلهة إلى الحب وهذه النقلة منحته الخلود، دانتي قلد فيرجيل لا لشيء إلا لكي لا يخسر الجمال الأول لولادة الشعر، كان مايكل أنجلو يحفظ الكوميديا وقد تعمق في دراستها لمدة عام كامل وهو عام 1545، لقد أصبح أنجلو هو منعطف الفن في عصر النهضة، قلد مايكل أنجلو فناني العصور القديمة لكنه اختار الأنوثة بدل الألوهية القديمة، لقد تم تفسير الكوميديا الإلهية بطريقة لاهوتية، و تم تأويلها بطريقة تعسفية من خلال الكتاب المقدس، لا تهتم بهذه الأمور الخارجة عن نطاق الأدبية، و لا تهتم بالنقاش الطويل والمرير حول بقاء دانتي يوما واحدا أو يومين في الجحيم، أو حقيقة الشجار بين ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو حول شعرية دانتي، هذه المعرفة لن تفيد في شيء أثناء قراءة الكوميديا، ما هو الحقيقي في الكوميديا وما هو الخيالي؟الحقيقة الوحيدة في الكوميديا الإلهية هي بياتريس ودانتي نفسه، هذه هي النواة المركزية للكوميديا، دانتي صنع من سيرته الذاتية نواة تأسيسية لظهوره كشاعر جديد في حياة جديدة، لقد خلق أسطورة خاصة به حول هذه النواة، ترك كل عالمه المنهك خلفه وركز فقط على حبه لبياتريس، الجحيم هو وصف للعالم الذي وصل من خلاله إلى بياتريس كرجل ناضج، في الحياة الجديدة كان مجرد طفل في التاسعة من عمره، أما الآن وبعد كل

ما مر به من أشكال الألم، فهو قادر على حبها في غيابها بنفس القدر الذي يعشقها به في وجودها.

ليس من الممكن أن أكون قد سمعت والدي يتحدث بمثل هذه الطريقة من قبل، كان بارعا وفي كلماته بذخ القارئ العنيد، إنه يمر عبر الحدود القصوى للذاكرة كي يصل إلى الصفحات التي لم يعد قادرا على النظر إليها، كدت أبكي وأنا أنظر إليه بسبب الصورة التي أراها الآن، صورة فيها التبادل اللانهائي بين رب الأسرة والقارئ الذي يريد الحفاظ على عزلته، أعتقد أنه كان يؤجل نفسه ككاتب إلى ما لانهاية، عندما رفعت رجليه ووضعته في السرير قبلت رأسه، لم يحدث هذا منذ زمن بعيد، لا أدري ما الذي جعلني أفعل ذلك، ربما لأنه كشف عن نفسه أمامي بهذه الطريقة الحميمة، فجأة شدني من ملابسي إلى أن أصبح وجهي مقابلا لوجهه تماما، ترك فقط مجال بسيط كي يمر ضوء الشمعة من خلاله، ثواني ثم تركني وعاد برأسه إلى الوسادة، كانت جغرافيا وجهه تشبه الحياة كثيرا، و ملامحه إقليم كامل من الحزن والتعب، تركته يرتاح وأشعلت شمعة وذهبت إلى غرفة المكتب، المطر في الخارج لم يتوقف، كأن المطر هو الرد على تشويه نقاء الحياة بالعنف والموت، قررت أن أكتب رسالة إلى بياتريس، الورقة والقلم أمامي والشمعة تحذرني من النبرة الكئيبة، أمسكت بالقلم وكتبت:

عزيزتي بياتريس

لم أتصور يوميا أني سأكتب لكِ رسالة على الطريقة التقليدية، ورقة وقلم وشمعة، هذه الطريقة التي كتب بها رجال عصر الرومانسية، الاختلاف الوحيد ربما هو عدم وجود مزهريات خزفية، تماثيل شرقية أو علب السعوط المضحكة، أنا لا أكتب إليكِ هذه الرسالة على الطريقة التقليدية فقط، بل أنا أعيش على طريقة القرون الوسطى، لا كهرباء ولا اتصالات من أي نوع، ربما هذا يروق لمزاجك المجنون الذي يلعن دائما العالم الاستهلاكي الذي يغرق الناس بأشياء بلا فائدة ولا لزوم لها، إذا خطر على بالكِ سؤال عن كيفية حياتي هنا فيمكن أن تشاهدي الفيلم الإسباني:متاهة إله القطعان، تدور أحداث الفيلم في الفترة التي انتصر فيها فرانكو على المقاومة ولم تبقَ سوى جيوب صغيرة في الجبال والغابات، الفيلم يتحدث عن فتاة صغيرة اسمها أوفيليا، الفتاة مغرمة جدا بالكتب والقراءة، مات أبوها الخياط في الحرب وتزوجت أمها من أحد القادة المكلفين بقمع المقاومة في الجبال، عندما تصل مع أمها الحامل إلى الجبال تلتقي بجنية تأخذها إلى متاهة تنتهي ببوابة تنزل فيها برجلها اليسرى على درج حلزوني، عندما تصل إلى أسفل الهاوية المخروطية الشكل تجد إله القطعان في انتظارها، يخبرها أنها الأميرة موانا ابنة ملك العالم السفلي، و أن القمر من أنجبها وليس البشر، والدها ملك العالم السفلي طلب أن تفتح

بوابات هذا العالم إلى أن تعود موانا وهذه هي آخر بوابة مفتوحة، ولكي يتأكد إله القطعان من أنها لم تُمس ولم تصبح فانية، عليها أن تنجز ثلاثة مهام قبل اكتمال القمر، تموت أم أوفيليا أثناء الوضع لأن القائد أمر الطبيب أن يحافظ على حياة الطفل مقابل حياة الأم، تنجز أوفيليا المهام التي كان آخرها جلب أخيها إلى المتاهة، وعندما تصل إلى هناك ترفض طلب إله القطعان ذبح الطفل لأن الطريق إلى أبيها الملك لن تكون مفتوحة إلا بدم بريء، يتبعها القائد ويطلق عليها رصاصة ويحمل الصبي ليجد رجال المقاومة في انتظاره لقتله، تغلق البوابة لكن بعد أن يصل دم أوفيليا إلى أرض المتاهة تفتح من جديد، دم أوفيليا هو الدم الوحيد البريء، تصل إلى أبيها وتكون الأميرة كما وعدها إله القطعان، أنا مثل أوفيليا في المتاهة الخاصة بالعالم السفلي، عالم يشبه الرسوم التوضيحية لألساندرو دي فليبيبي الملقب ببوتيتشيلي التي تصور جحيم دانتي، هذه الرسوم التي يقال إنه استخدم فيها الهندسة المقدسة والرقم الذهبي أو النسبة الذهبية φ التي يقوم عليها الشكل الحلزوني أو اللولبي بأكمله، العالم هنا لا يمتلك هذه النسبة الذهبية، يمتلك فقط الرقم تسعة الذي خصصه دانتي للجحيم، ما أفعله على وجه التحديد هو البقاء على قيد الحياة، لدينا الكتب والطعام والماء ومسدس، هل هذا كل ما يحتاجه البقاء على قيد الحياة؟ بصدق لا أدري، أتذكر الكثير من أيامنا معا والكثير من اللحظات الحميمة بين صديقين، في هذه

اللحظة أتذكر النظرة التي أطلقتِها نحوي عندما أخبرتك أن الفطور سيكون بيضاً على طريقة بلزاك، وكنتِ مصدومة بمدى اهتمام بلزاك بالطعام في رواياته، عندما أنظر إلى الشمعة أتذكر حديثنا عن تدجين النار أثناء جلستنا حول النار أمام كوخ في الجبل، يومها قلتِ إنَّ الحياة بشعة ورهيبة بدون النار، نعم الآن وأنا أعيش هذه الحياة البدائية أعرف جيدا معنى كلماتكِ، للظلام قوة توسع مجهولة وتخريبية، والدي يعيش من السر الذي ينبعث من هذه الشمعة بلا توقف، أعتقد أنه يرى طيف أمي في لهب الشمعة، يبدو أن فكرة الطيف لا يمكن فهمها إلا أثناء معاناة كبيرة، هناك شيء في هذا الظلام أو شخص ما، أعتقد أنها أمي الغائبة بسبب شيء لا يمكن تفسيره، أو بسبب الموت الصامت غير القابل للفهم، كلما نظرت إلى صورتها أشعر بالخلل الجذري الذي يسببه موت الأم، أعلم أنكِ ستتراجعين إلى الخلف قليلا وتقولين:أنا أمك.أعتقد أن علاقتنا وعن غير قصد أصبحت عميقة لدرجة أنها تغطي كل المساحات غير المزروعة في حياتنا، أريد أن أعترف لكِ الآن أننا ونحن نلعب لعبة الصندوق الأسود التي اخترعناها كنت أحاول معرفة ما إذا كنتِ على علاقة جسدية بشخص ما، و لا أخفي عليكِ مادام أن هذه الرسالة قد تصلكِ (هذا إذا وصلتكِ أصلا) وأنا ميت أني كنت سأغار منه وألعنه، أم أوفيليا في الفيلم تخبرها أن الحياة ليست الكتب، الحياة قاسية ومرعبة بشكل مفرط في جنونه، هذه هي الحقيقة يا بياتريس الحياة

ليست المكان الأكثر روعة الذي ننظر إليه في اللوحات والكتب بمتعة، الحياة مكان رديء جدا ويجب أن يكون محروما من وجود إنسان فيه.وضعت القلم وذهبت إلى النوم بجانب والدي، نمت وأنا في منظر طبيعي مهجور مع بياتريس كأننا آدم وحواء.

في صباح اليوم التالي أنهيت كل الأعمال المنزلية وصعدت لرؤية جارنا والتأكد من أنه بخير، ومع أن الجو كان باردا جدا والسماء تكاد أن تكون مظلمة، جلسنا أنا وهو ننظر إلى البحر، إلى هذا الغضب في حدوده القصوى، كان المنظر خلابا ويبعث الكآبة في النفس، لا أدري لماذا تذكرت أن الرسم له علاقة بالفضاء أما الأدب فله علاقة بالوقت، عندما أكون مع أبي أشعر بالوقت، وعندما أكون هنا أمام البحر أشعر بالفضاء، البحر هو البعد الكامل للفضاء البسيط والأنيق، النظر إليه يفتح باب الحنين إلى الماضي، البحر يرفض النسيان، في أي مكان قد تشعر أنك في مكان فارغ، ممل، لا يهمك في شيء، لا يجب أن تبقى فيه، لكن أمام البحر أنت في المكان الذي يجب أن تكون فيه، أمام الجدار الزجاجي في شقة بياتريس كنا نجلس نراقب الأمواج والناس وهم يتمشون على رصيف الكورنيش ببطء، قالت لي مرة:البحر هو الذي يجعل حياتنا خالية من الأسف الدائم، تذهب إليه عندما تشعر بأن هناك أخطاء يجب أن لا تتأسف عليها لأحد إلا للبحر.دائما ما كنت أراقبها أثناء صمتها، أعشق

حركاتها البسيطة لكن الجذابة، وهي تضع القلم بين شفتيها وتجري بأصابعها الجميلة على لوحة المفاتيح، أنا بدونها على الجانب الآخر من الشتاء، عالم بياتريس سحري بطريقة ما ويشبه المتاهة، هناك الكثيرون في حياتها لكن لا أحد منهم موجود، تشعر أنها حاضرة بكل قوتها لكنها غائبة في مكان ما مع أحلامها، أرقبها في كل ثانية نكون فيها معا، تسخر من نفسها عندما تكتشف أني كنت أراقبها وتشعر بالخجل من حركاتها الطفولية جدا والبريئة جدا، تحب البقاء بجانبي وحدنا وتخاف الأشخاص الذين قد يطمسون هذه المساحة الخاصة، عندما نكون في الشارع تشعر بنوع من الزهد في مزاجها، لا تنظر إلى واجهات المتاجر، لا تلتفت إلى من حولها أو المارين بجانبها، تنظر إلى كل الأماكن على أنها تافهة، و تفرح بالمسافة بينها وبين الناس لأنها تجد فيها العزاء، مرت سنوات وأنا في متاهة كنوسوس مع بياتريس، يقال إن متاهة قصر مينوس قد تم تصميمها بشكل يحاكي المتاهات المصرية، تقع المتاهة في كنوسوس وهي مدينة تقع في شمال جزيرة كريت أكبر الجزر اليونانية، كانت كنوسوس مدينة رئيسة في العصر البرونزي، لكنها مدينة استثنائية لدرجة أن العلماء شككوا في كلام هوميروس عنها كمدينة من ذاك العصر القديم والبعيد، كان من الغريب اكتشاف كل هذا التحضر والمتعة والجمال في مدينة موغلة في قدمها . بنيت متاهة كنوسوس لأول المرة في عهد سيسوستريس الثاني وهو رابع فراعنة الأسرة الثانية عشرة عام

1930 قبل الميلاد، الأسطورة تقول إن مينوس كان يحاصر أثينا لعدة سنوات، زوجته باسيفاي في هذه الفترة كانت تمارس الجنس مع ثور لإرضاء شهوتها، أنجبت من الثور وحشا مفزعا وهو إنسان برأس ثور واسمه مينتور، عاد مينوس منتصرا واكتشف خيانة زوجته، شعر بالعار وطلب من المهندس البارع ديدالوس أن يبني متاهة لا يخرج منها مينتور أبدا، وبعد الانتهاء من البناء سجن المهندس وابنه إيكاريوس كي يموت معهما سر كيفية الخروج من المتاهة، لكن المهندس العظيم صنع له ولابنه أجنحة من الشمع وطار خارج المتاهة، حذر الأب ابنه من السير في خط مستقيم لأن أشعة الشمس ستصل إليه وتذيب الشمع، وهذا ما حدث، سقط إيكاريوس في البحر وغرق، أما ديدالوس فقد سقط في صقلية . مينوس كان يقذف في كل عام سبعة شباب من أثينا كطعام للمينتور انتقاما منها على السنوات الطويلة من الحرب وهي ما تسبب في خيانة زوجته له.

أثينا بحثت عن حل لهذه المأساة السنوية، تطوع ثيوسيس ابن بيثيوس لقتل المينتور، وقد وقعت أريادني ابنة مينوس في حبه، وأعطته كرة من الخيط ليتمكن من قتل المينتور والعودة، هذا ما تقوله الأسطورة، أما الحقيقة فلا يعرف أحد على وجه الدقة ما إذا كانت هذه المتاهة معبداً أو مقبرة أو قصرا، لكنه بكل تأكيد موضوع لا علاقة له بالترفيه، كان أغلب العلماء يعتقدون أنها

مسكن الملك وأن لها وظيفة دينية، لم تكن الحفريات في هذا المكان تبحث عن المتاهة، بل كانت تبحث عن قصر مينوس ملك كريت الأسطوري ابن زيوس ويوروبا وزوج باسيفاي وأب أندروغيوس وفيدرا وأريادني وأيضا غلاوكوس، هذا الملك الأسطوري تحدث عن قصره هوميروس وبلوتارخ وثوكيديدس وديودوروس وهيردوت، أراد العالم آرثر إيفانز ومساعده دنكان ماكينزي التأكد من كلام هؤلاء فَوجدَا القصر، أخيرا استقر الرأي على أن المتاهة هي معبد معقد جدا، الحب يشبه متاهة كنوسوس معبد كبير لكن لن تجد فيها إله القطعان كما حدث مع أوفيليا، ولن تجد فيها من يعطيك كتابا صفحاته بيضاء عندما تفتحه وأنت وحدك ترى ما سيحدث، دائما ما تعتقد أنك على وشك الخروج من المتاهة لكنك في الحقيقة تغوص فيها أكثر، عندما قابلت بياتريس كنت نذرت نفسي لمتاهة من نوع آخر، القراءة وإعادة القراءة، السير من كتاب إلى كتاب، لكنها انزلقت ببساطة في المساحة الضيقة التي تفصل الماضي عن الحاضر، بعدها أصبح للحياة طبيعة دائرية ولن تسير بعد النظر إلى وجهها في خط مستقيم أبدا، مجرد الجلسة معها تجعلني خارج معنى الخسارة والألم، لكن أنا الآن لست أكثر من صديق وهذا ما يجعل المتاهة صعبة أكثر، لا يهم فوجودها في حياتي يمنع الحياة من السير نحو وجهتها القاتمة، البحر لا يعيق المسارات الحميمة للذكريات، نزلت أشعة الشمس من فتحة بين الغيوم وكأنها مصباح يتدلى في يد بحار

على سفينة، ظلها كان هناك على الموجة القادمة نحوي بسرعة، هذه الموجة الهادرة تحاول إسكات الصمت، هنا لا أحد يتحرك، لا أحد يتكلم من أهل الصابري، لكن البحر في هذه اللحظة يتكلم بلسانهم جميعا، يتحرك بطريقتهم العنيفة والخشنة لكن الحنونة، حتى في هذا الجو البارد تشعر بحرارة أجساد البيوت القديمة، قررت النزول لأني قد تأخرت والمصباح السماوي انطفأ فجأة من جديد، أشرت إلى جارنا بأني على وشك النزول، نظرت إلى الخلف رأيت وجه بياتريس كنجمة تخترق ظلام السحب المتراكمة، نظرت إلى الأمام رأيت خيط دخان مربوط بالسماء، هذا الخيط لا يشبه في شيء خيط أريادني.

والدي أصر على أن يكون معي في المطبخ أثناء إعداد وجبة الغداء، أصابه الملل من السرير والبقاء في الغرفة طوال الوقت، الحرمان من الأنشطة الأساسية في الحياة أمر يجعل الأيام مكررة والساعات مرهقة، هناك صعوبة في العيش في مساحة محدودة ؛ بسبب المرض أو السجن أو أي سبب آخر، بسبب هذه الحاجة الملحة للوجود في الفضاء العام خلق السجن كعقوبة، قد تتأقلم مع عزلتك وسط الفضاء العام، لكن لا تستطيع الاستغناء عن الفضاء العام بشكل كامل، هناك عالم خلف باب غرفة نومك عليك بقذف نفسك فيه، للمحافظة على مزاجه الطيب وضعته على الكرسي المتحرك مع كل الاحتياطات الضرورية من البرد

وأخذته معي، كنت أعد وجبة من الأرز وحساء البطاطا، لاحظت أنه لم يتكلم من تلقاء نفسه ولتغيير هذا الجو الكئيب قلت:لقد فكرت اليوم في متاهة كنوسوس وعلاقة المتاهة بدانتي وبورخيس. هذه هي نوعية الموضوعات التي يحبها، ابتسم ومد يده اليمنى ليحك بأصابعها راحة يده اليسرى، أغلق عينيه وعندما فتحهما قال:المتاهة موجودة منذ أقدم العصور، منذ أربعة آلاف سنة، وأقدمها موجودة على حجر في سردينيا، المتاهات في كل مكان، منقوشة على الأحجار، مرسومة على جدران الكهوف، والغريب أن الحضارات كانت معزولة إلا أن المتاهة موجودة في كل هذه الحضارات، تظهر في أقدم الأساطير، في أقدم الحكايات، في النزول إلى الجحيم، في الصعود إلى السماء، في الكتدرائيات والمعابد، المتاهة الحديثة هي مسار في شكل دائري يوصل إلى مركز، أما قديما فقد كانت لغزا فيه الكثير من التقاطعات التي تضعنا مباشرة أمام خياراتنا، وهذا يعني أن هناك متاهة ذات مسار واحد ومتاهة ذات مسارات متعددة، المتاهة الملغزة والمعقدة هي من اختراع ديدالوس وبما إنك فكرت في متاهة كنوسوس فأنت تعرف الأسطورة المرتبطة بها، في العصر الكلاسيكي هناك ثلاثة كتَّاب المتاهة موجودة في كتاباتهم : فيرجيل وأوفيد وبليني الأكبر، بليني تكلم عنها من الناحية الهندسية، بالنسبة للقدماء المتاهة بناء هندسي رائع ومبهر، كالمتاهة التي يصفها هوميروس على درع آخيل، بالنسبة لكتابات أوفيد فقد كانت

مهتمة بالجانب الأسطوري من المتاهة، أما فرجيل فقد تحدث عنها واضعا كل هذه الجوانب في حسبانه، هناك من اتبع بليني بالحديث عن متعة الفن في هذه التحفة الفنية الهندسية، وهناك من فضل جانب أوفيد الأسطوري والخيالي، و قليل من الكتاب فضل طريقة فيرجيل الشاملة وعلى رأس هؤلاء دانتي ومن بعده جويس، كافكا، بورخيس، آلان روب غرييه، في أعمال هؤلاء ظهرت المتاهة كمكان لقهر المتجول فيها، هي بمثابة سجن لكنه بلا قضبان، المتاهة سجن ليس بسبب الحرمان من الفضاء، بل بسبب العيش في جزء معزول من الفضاء. هناك نمطانِ للمتاهات وهما: الحلزوني الذي تؤدي فيه المتاهة إلى مركز، أسطورة البدء تتمشى مع هذا النمط، النمط الثاني هو نمط الجديل وهو المفتوح، كلا النمطين يمثلان اللانهائية والعود الأبدي، ومركز المتاهة الذي يحاول المتجول الوصول إليه هو مكان المعرفة المطلقة، و الطريق إلى هذا المركز شاق ومحفوف بالمخاطر، هناك مداخل كثيرة للمتاهة، لكن لا يمكن الخروج منها إلا من مكان واحد . في المتاهات المصرية المتاهة لها وظيفة الدفاع ضد المتسللين واللصوص، إنها حماية لكل ما هو ثمين ومقدس، «فارو» الذي يستشهد به بليني يؤكد أنك لن تخرج من المتاهة المصرية حتى لو كان معك خيط أريادني، أما متاهة كنوسوس فقد قيل إنها تحتوي على ألف من المنحنيات والمنعطفات الصعبة التي تجعل الخروج منها مستحيلا، كان

سبب إعجاب بورخيس بدانتي، جويس، كافكا، هو أنهم أعطوا المتاهة حيزا مهما في أعمالهم، هؤلاء مهندسومتاهات فكرية، أما آلان روب غرييه فقد تأثر كثيرا بمتاهات بورخيس وكافكا، ما يلهم أمثال بورخيس وكافكا وجويس وآلان روب غرييه هو أن المتاهة هي الصورة الأولى للخيال البشري عن اللانهائية. كنت أستمع إليه وأنا أجلس القرفصاء وظهري على الثلاجة الفارغة، فجأة وضع رأس إصبعه السبابة على أنفه وقال:رائحة الحساء تشبه المتاهة وضحك، ثم واصل حديثه قائلا: المتاهة تجمع في داخلها النظام والفوضى، الوضوح والارتباك، الوحدة والتعددية، الفن والقبح، وهي عمل هندسي يريد جمع الفضاء والوقت في عمل واحد، الإحساس بهذه الوحدة بين الفضاء والوقت يعتمد على ما الذي تراه وتشعر به وتفهمه وأنت في المتاهة ؟ هل تعني المتاهة علامة بصرية أم لفظية ؟ هل المتاهة أدب أم فن؟هل تمثل المتاهة فكرة حقيقية أم مجازية؟علاقة الأدب بالمتاهة قديمة جدا، لكنها مستمرة إلى اليوم، مثلا كتب الشاعر الإسباني خوان دي مينا قصيدة طويلة مستلهماً الكوميديا الإلهية، القصيدة بعنوان المتاهة ونشرت عام 1496 في إشبيلية، ترشد فيها الشاعر امرأة جميلة في ثلاث دوائر شاسعة هي الماضي والحاضر والمستقبل، بعدها كتب الشاعر الفرنسي جين بوشيه قصيدة بعنوان متاهة المال مكوّنة من أربعة أو خمسة آلاف بيت، وهذه القصيدة أيضا المرشد فيها امرأة لكن هذه المرة تمثل الوهم، نشر ج.

فليتشر قصيدة بعنوان متاهة العاشق عام 1593، بعدها نشرت قصيدة بعنوان متاهة استعادية نشرت عام 1769، تصور هذه المتاهة الطريق التي يمشي فيها الإنسان للوصول إلى مكانه قبل السقوط إلى الأرض، وضع راحة يده على جبهته وتمتم:غريب لقد نسيت اسم كاتب هذه القصيدة، عموما في بعض الأحيان كانت كلمة متاهة توضع كمكافئ لقاموس المترادفات، الأمر لم يتوقف أبدا، كتب هنري وود كتاباً بعنوان داخل المتاهة، متاهة بقلم سيلي إ. ج. تيدي، المتاهة بقلم موراي جيلكريست، ما يهمنا هو فيرجيل وعلاقته بالمتاهة، يصف فيرجيل في الإنياذة رياضة الأطفال من أبناء النبلاء الذين تتراوح أعمارهم بين السبعة والسابعة عشرة وهم يلعبون لعبة حصان طروادة، وهي لعبة على شكل معركة وهمية في متاهة مرسومة على الطريقة الأترورية، هؤلاء الأولاد مشكلين في ثلاث مجموعات، كل مجموعة مكونة اثنتي عشرة، عشر شباب وثلاثة نقباء، هذه اللعبة طقسية يتم إعدادهم فيها للحرب وشق جبال الكاربات والسباحة في البحار الليبية كالدلافين جنبا إلى جنب، يربط فيرجيل بين المتاهة والشهرة والذاكرة، فيرجيل يشير إلى أن الرومان عرفوا المتاهة بعد سقوط ديدالوس في صقلية ومنحه الإله أبولو أجنحته الشمعية كقربان وبنى لهذا الإله معبدا تكريما لروح ابنه، فكرة المتاهة مسيطرة على فيرجيل وقد جعل سرده في الإنياذة تجسيدا لفكرة المتاهة، إينياس في الإنياذة هو ثيسيوس ملك المتاهة الذي يعرف كيفية

الخروج منها، ويشبه ديدالوس المخترع والفنان والمنفي والمثير للفوضى، يسير في مسارات دائرية كلما شعر أن هذه المسارات تقترب من هدفه يحدث ما يجعله يشعر أنها في الحقيقة تبعده عنه، دائما هناك خطأ أعمى ولا طريق واضحة إلى الهدف المؤجل بشكل دائم، وصول إينياس إلى ليبيا يجعله يتجول داخل متاهة، ولا يخفى تأثير هوميروس على فيرجيل، فوصول إنيناس إلى ليبيا يشبه تماما وصول أوديسيوس إلى أرض العمالقة، عندما وصل إينياس إلى ليبيا كان الحب في انتظاره، ديدو تتحرك جيئة وذهابا تنظر إلى سواعد العمال وهم يقومون بالعمل، جميلة وفخمة مثل موجة، لا تتوقف عن الحركة، تُصدر الأوامر بلطف، كانت بالنسبة لإينياس في تلك اللحظة هي الهدف الذي كان يبحث عنه، تلبس عباءة أرجوانية، ورأسها عليه عصابة ذهبية، بدت كأنها إلهة وصلت لتوها من عالم آخر، ديدو وضعته هو ورجاله موضع ترحيب وأمرت بمساعدتهم في إصلاح سفنهم التي كانت على وشك الغرق، وقعت ديدو في حبه وهو يروي قصة سقوط طروادة ونفيه، توقف العمل على استكمال المدينة، أما إينياس فقد كان في متاهة الحب ولهذا لم يستطع إكمال رحلته، جحيم فيرجيل في الإنياذة كان متاهة بالكاد استطاع إينياس الهرب منها، أما جحيم دانتي فقد كان الحب الذي لا يمكن الوصول إليه، إنه حب بورخيس وجويس وكافكا وآلان روب غرييه، فيرجيل يرشد دانتي في الجحيم والمطهر أما بعد الوصول إلى الحب الأبدي

فلا يمكن أن يكون المرشد، فهذه المرحلة لا يعرفها من المتاهة، لقد قام دانتي بتصحيح خطأ فيرجيل، لقد أعاد دانتي قراءة الإنياذة قبل كتابة الكوميديا، لكنه قرأها بحذر، فيرجيل وثني ونصه دنيوي يتحدث عن متاهة صعود وسقوط الحضارات، عن حياة الإنسان الذي يصنع نفسه من خلال الأخطاء والفشل، إينياس يسعى لتأسيس إمبراطورية في روما، بينما دانتي مسيحي وعليه أن يضع متاهته وسط هذا العالم الديني ويعطيها شكله، وعليه أن يكون مجرد مواطن صالح في روما،، يمشي دانتي في المتاهة في سلسلة من المنعطفات القسرية، و في متتالية من المنحنيات الصعبة، التي تجعله يسير في طريق غير عقلاني وأحيانا في الاتجاه المعاكس للهدف الذي يريد الوصول إليه، تم استخدام المتاهة للحديث عن المسيح الذي يأخذ بيد البشرية ويخرجها من الظلمات إلى النور، و إنقاذ شعب إسرائيل من الاضطهاد والظلم، أو إنقاذهم من التجوال لمدة أربعين عاما في التيه، هذا استخدام سيئ للأدب، و تدجين له لصالح الأخلاق المتطرفة والدين، على العكس تماما الكوميديا لها علاقة بباسيفاي والشهوة والرغبات المكبوتة، لها علاقة بحقيقة الإنسان الذي يعيش من الحزن والفشل.

أخذته إلى الغرفة كانت وجبة الغداء جاهزة، ونحن في الطريق إلى الغرفة قال:رائحة هذا الخبز الذي تعجنه يوميا ستجمع كل من في الصابري من المتطرفين، كانت هذه طريقته في مدح الأشياء

التي يحبها، في الأيام القليلة الماضية أصبح فطوره هو الخبز والقليل من الشاي، كل شيء له علاقة بالفطور صعب الاحتفاظ به لفترة طويلة، أما أنا فقد كانت القهوة هي فطوري اليومي، تناولنا طعام الغداء وتركته ليرتاح وذهبت لغسل الصحون، كان الماء باردا جدا ولا يُحتمل، ومع ذلك أشعر أنه ضيف قد جاء من مكان بعيد خارج الصابري، إنه الشيء الوحيد الذي يدخل بيتنا هذه الأيام، أنهيت أعمال التنظيف وذهبت إلى غرفة المكتبة، للتدخين وسماع الموسيقا، السماعات منحتني فرصة للعيش خارج المتاهة لبعض الوقت، معظم الموسيقا على جهازي هي من اختيار بياتريس، دائما ما تجمع مختارات وتبعث بها إليَّ على بريدي الإلكتروني، و أنا أنقلها إلى هاتفي لسماعها كلما كان هناك وقت لذلك، أغلب المختارات كانت من الجاز الذي تحبه بياتريس بجنون، الجاز يقول الحياة بنبرة حزينة جدا لكن جميلة، كانت تتعامل مع موسيقا الجاز كنوع من المقاومة، نوع من الثقافة التي يتعلمها كل إنسان يرفض الحرب والموت والاستغلال، أتذكر الآن ونحن نسمع الجاز في شقتها كيف قالت بنبرة العاشق:الجاز تُرك وحيدا في خمسينيات القرن الماضي، عزلة هذه الموسيقا كانت مريرة وحزينة كحزنها نفسها، لقد انتصر الروك الذي سجد له المدمنون والعاطلون عن الحياة، قرر أهل الجاز في أمريكا الذهاب إلى أوروبا تاركين خلفهم الحياة الأمريكية الجديدة، في باريس كان الجاز معروفا كموسيقا للمقاومة، بين عامي 1920 و1939

كانت النوادي الليلية في مونمارتر هي مكان الجاز بامتياز، أنا أحب خوليو كورتاثار لأنه يحب الجاز ويحب باريس، هناك علاقة بين الكتابة والجاز يعرفها كورتاثار جيدا وهي الارتجال، قال ذات مرة لصحفي: كنت أفكر في شخصية لرواية، كنت أريدها أن تكون مثل شخصية توماس مان في الجبل السحري أو فاوست، شخصية ذكية وقادرة على الحديث حول المشاكل الميتافيزيقة، في لحظة الكتابة قررت العكس، وهو كتابة شخصية تشبه رجل الشارع، رجل عادي جدا، لكن لديه عطش كبير للانهائية، هكذا أفهم الكتابة وأفهم الجاز. كان يحب تشارلي باركر جدا وعرف عندما وصل إلى باريس في عام 1951 أن تشارلي قد مات وهو غاضب، ليس بسبب المشاكل ولكن بسبب أنه شعر أن موسيقاه تريد كسر الحواجز والوصول إلى مكان آخر وهو غير قادر على فعل ذلك. كانت بياتريس تقول هذه الكلمات وهي ممسكة بكأس النبيذ، وضعت الكأس على الطاولة ووقفت، مدت يدها نحوي وقالت: تعال، أمسكتْ بيدي ومشيت خلفها إلى حيث جهازها اللوحي الذي تصدر عنه الموسيقا، رفعت الصوت ووضعت يدها على صدري، رقصنا في صمت وكل الأشياء من حولنا تسمع نبض قلبي، بياتريس مملؤة بالاهتزاز المهيب والأغاني المقدسة، أنظر إلى شعرها القصير الذي يشبه الموجة التي تسير في مسار مفتوح إلى الأبدية، عيناها المغمضتان سد منيع ضد النسيان، يدها صامتة، لكنه الصمت الذي يتكلم عن مكان أبعد

من هذه الشقة والعالم، نتحرك ببطء في دوائر تشبه دوائر المتاهة الصعبة، أنا وهي في منتصف الطريق بين الخيال والواقع، في هذه اللحظة لا أعرف ما معنى المؤسف، المفزع، المرعب، كنت أريد في تلك اللحظة أن أقول:أريد أن أخفيكِ عن العالم، عن الحزن والأسف، عن عائلتكِ وأموالها، عن الألم والإحساس بالعزلة، الدوائر تصبح أصغر، أصغر، هنا مكان الميلاد، هنا مكان سماع الأشياء بوضوح، الدوائر تصبح أصغر، أصغر، الآن أشعر بوزن الصمت، الآن أعرف وزن الوقت، الآن الفضاء لا يبدو حزيناً للغاية، في هذه اللحظة عرفت أنه لا تراجع عن حبها، حتى لو عشت في هامش حياتها فهذا كافٍ لتكون حياتي ملموسة، يبقى العالم يتحرك وأنا أمسكِ بيدها، توقفت فجأة، العالم كله أصبح رمادا لذكرى بعيدة، رفعت كأس النبيذ وقالت:الحريق الوحيد الذي لا يمكن إطفاؤه في هذا العالم هو حريق الحب، لا أريد لنا أن نحترق، لنتمسك بالجزء المضيء وهو أنك لن ترى في أي يوم من الأيام يدي باهتة وأنا أمدها إليك لأننا سنكون دائما أصدقاء.

فتحت الهاتف، نظرت إلى صورتها، إلى تلك الجودة السحرية التي يمتلكها وجهها، النظر إلى هذا الوجه تجربة فريدة، أن تحب شخصاً من خلال الكلام اليومي أمر صعب، لا يمكن أن تستخدم الكلمات الخاصة، يجب أن تبقى في حيز العام، الشائع، المألوف، لا يمكن أن تقول وجهكِ مثير، هذه الكلمات تسير في اتجاه

الرغبة، في حين أنها يجب أن تسير في اتجاه الجمالية، يجب أن تكون لديك حساسية، حذر، معرفة بالحدود وأنت تختار كلماتك، الكلمات التي تستخدمها يجب أن تكون خرجت لتوها من صندوق العفة، الكلمات لها قصتها الخاصة، أحيانا قصة فوضوية، وفي كثير من الأحيان تكون قصة مذهلة، الكلمات التي تولد من رحم حبك يجب نسيانها في لحظة ولادتها، أنت في هذه الحالة تتعامل مع شخص يعرفك، يشبهك، لكنه لا يريد امتلاكك، الحياة تستمر بسبب تهديد الموت، و الحب يستمر في داخلنا ؛ بسبب تهديد الغياب، غياب الصورة، هذا التهديد المفزع يجرك إلى مسارات الأرق الدائرية، في العلاقة من هذا النوع أنت صوفي، تعيش في ظل نعمة وجه الحبيب، تنتظر لحظة النظر المباشر إلى شمس الحب لكي تصعد روحك إليها، في طريق قاحل وموحش ومفرط في بعده عن صميم الحياة، كان رينوار ضد حبس الناس في ظلام دامس لمدة ثلاث ساعات، كان هذا الفنان ضد قاعات المسرح المظلمة، لقد أحدث فضيحة وهو يشاهد الفالكيري لفاغنر عندما قال:لماذا أكون مجبرا على النظر إلى بقعة واحدة مضيئة لمدة ثلاث ساعات، هذا المشهد يعتبر طغياناً، هل يمكن النظر إلى امرأة جميلة في مربع كل هذه الساعات؟ثم دعونا نكون صريحين ؛ موسيقا فاغنر مملة جدا، في صباح اليوم التالي سافر إلى درسدن ودخل معرضا للفن الهولندي كله لوحات فاحشة وفيها دعارة واضحة، من هذه اللوحات لوحة المجاملة ليوهانس

فيرمير، موضوع هذه اللوحة هو المراقبة والمشاركة، اللوحة تنقسم إلى جزأين مشرق ومظلم، المراقبون في الجزء المظلم والمشاركون في الجزء المشرق، دافع رينوار عن حقوق اليد وقال:ما يحدث في جمجمتي لا يهمني، أريد أن ألمس، كان أبوه خياطا وأمه خياطة، لا يفهم كل كلام المثقفين عن النظر إلى الأشياء كما هي، ويقول عن نفسه أنا أخرق يعرف كيف يستخدم يديه، لا يمكن أن أكتفي بالنظر إلى بياتريس كمنظر طبيعي يغيب عنه الإنسان، هذا المنظر يحتاج الوعي فقط، النظر إلى وجه بياتريس كما أفعل الآن يحتاج إلى الوعي الأكثر حميمية ؛ لأن النظر إلى وجه بياتريس هو النظر إلى الأبدي في العابر والمألوف، كنت أراقبها دائما، أبحث عن التفاصيل التي لا تثير اهتمام الآخرين، أراقب اللحظات التي تحاول أن تكون فيها هادئة في حين هي تكاد تنفجر، عندما تحاول أن تمنح الآخرين ابتسامة سهلة لا تعقد الأمور، أفهم جيدا دفاع رينوار عن اليدين عندما أنظر إلى يديها، أراقب يديها على مدار الساعات التي أكون فيها معها، أفهم طريقة تفكيره في معنى اللمس، أصابعها النحيفة والأنيقة تلمس الأشياء بمتعة، و الأشياء تشعر بالمتعة لأنها تجربة فريدة، أصابعها تتسرب إلى الذاكرة اللاإرادية للأشياء وتصبح هي نفسها جميلة، عندما تمسك أصابعها القلم يحدث عناق ومداعبة من نوع ما، يداها هما الوحيدتان اللتان تثير في روحي معنى الفن، لا أستطيع البقاء كمراقب في لوحة علاقتي بها، لكن أنا أيضا أخاف

أن تمد لي يدها يوما ما وتكون هذه اليد باهتة مثل الموت، لن أفعل ما يجرح العلاقة المقننة بيني وبينها، يجب أن يبقى حبي لها منظوراً في أفقي الداخلي فقط، يبقى هناك داخل سياج العمق السري لروحي، نظرت إلى وجهها جيدا، وضعت أصابعي عليه للشعور بمعنى الحنين، أغلقت الهاتف ومعه الحنين الذي يقلص المسافة بين الصورة ولحظة التقاطها.

المطر لم يتوقف والاشتباكات لم تتوقف منذ ساعات الصباح الأولى، تاريخ الحرب مكدس بعضه فوق بعض في الأرشيف الإنساني الكبير، منذ حوالي ألف سنة قبل الميلاد والبشرية تعرف الأسلحة، العصر الحديدي ساعد البعض على البقاء على قيد الحياة، وساعد آخرين على ترك الحياة بسرعة فائقة، طروادة كانت هناك حيث يصب الماء الأزرق الحديدي في بحر «إيجه» ويفتح الطريق إلى البحر الأسود، مدينة الدم والموت والأسوار الملطخة بمصير الرجال، منذ ألف عام قبل كلام هوميروس عنها وهي تدخل الحرب بعد الحرب، تسقط وتقف مثل رجل عنيد لا يعرف الخسارة، من الإسكندر المقدوني إلى حملة جاليبولي عام 1915 وهي مكان تسمع فيه صوت السيوف واصطدام الدروع ببعضها، هاينريش شليمان مثل آرثر إيفانز مكتشف قصر مينوس أدهش العالم عندما عثر في تل بالقرب من مدخل الدردنيل على أنقاض طروادة عام 1871، إذن الحرب كانت حقيقة وليست

مجرد قصة خيالية يرويها رجل أعمى، هوميروس يبتسم وينظر إلينا بعيونه الفارغة، عيونه التي رأت أكثر مما يجب، هناك أحداث أساسية لم يروِها هوميروس مثل خطف هيلين وتحشيد المحاربين من كل مكان وإبحار الأسطول إلى طروادة، حتى حصان طروادة وسقوطها وحرقها لم يكن مهتما به، ما يهم هوميروس هو الحرب وموت الأبطال، لا تهمه الهزيمة أو النصر، ما يهمه هو الذي تبقى من كل هذا وهو السمعة، أما ما يهم فيرجيل فهو هروب إينياس ورجاله بعد سقوط طروادة، يقول بريام في فيلم طروادة:لقد خضت الكثير من الحروب في زمني، بعضها كان من أجل الأرض، بعضها كان من أجل السلطة، والبعض منها كان من أجل المجد، لكن أنا أفترض أن القتال من أجل الحب هو أكثر منطقية من كل ما سبق.باريس ابن بريام ملك طروادة يبحر في مهمة دبلوماسية إلى مينيلوس ملك إسبرطة، يقع باريس في حب هيلين زوجة مينيلوس ويأخذها معه إلى طروادة إما بالقوة كما يقول الإغريق أو طوعا كما يقول الطرواديون، مينيلوس يقنع أخاه أجاممنون ملك ميسينا وسيد الإغريق جميعا، بأن يرسل ألف سفينة وعليها خمسون ألف رجل لاستعادة هيلين، بعد عشر سنوات من الحرب انتصر الإغريق بأعظم خدعة عرفها التاريخ وهي حصان طروادة، لقد قرر أفضل المقاتلين الإغريق أو الآشيان كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت الاختباء داخل حصان خشبي ضخم وهي فكرة صبي صغير يدعى سينون، أما البقية فلم يتركوا أي أثر كأنهم رحلوا

في لحظة ذعر، جر الطرواديون الحصان إلى المدينة، في آخر ساعات الليل نزل المقاتلون وسقطت المدينة وتم إحراقها، بعدها عاد مينيلوس بهيلين إلى بلاده، هنا ينتهي هوميروس من القصة، وتبدأ حكاية إينياس على لسان فرجيل في الإنياذة، هذه هي الحرب في بضعة أسطر، عشر سنوات من الحصار والقتال المرير، عشر سنوات من العذاب والدموع والدماء كانت بضعة أسطر كافية لتختصرها، كانت حربا من أجل الحب مات فيها أروع أبطال التاريخ لهذا كانت هي الأكثر شهرة، كل الحروب بعدها عظيمة لكنها كانت من أجل أشياء أخرى، الحب وحده يمنح الحرب والسرد الخلود، ديدو قتلت نفسها بسيف إينياس الذي تركه في لحظة هروبه منها، تركها من أجل المجد والانتقام، عندما رحل وتركها خلفه مع كل الألم والعذاب كان الموت هو الحل، كانت ملكة وتقوم ببناء مدينة ستهتز لها عروش الأرض، لكن الحياة لا معنى لها بدون الحب، لقد تركها إينياس من أجل أشياء كانت تمتلكها قبل أن تحبه أو تراه، أليست هذه مفارقة تشبه الموت في رعبها . عندما يقرر الإنسان الموت تصبح الحياة ذات أهمية ضئيلة جدا، ينتهي القلق، وتمر سحابة من الهدوء البارد، تنظر في جميع الاتجاهات بعيون مليئة بالتجربة والمرارة فتكتشف أن الفقراء لا يمتلكون سوى حياتهم، هذه الحياة يقفون بالقرب منها كالحارس الحزين، أكثر ما يخافه هذا الحارس هو الحرب ؛ لأن الفقراء يذهب يأسهم إلى السماء قبل أرواحهم، طفل يبكي

من الجوع، أم على وشك الولادة، فتاة صغيرة تغني للقمر أهم من الحرب بكثير، في الحرب الحياة بكل صورها تهرب في طرفة عين، في الصابري الحيوانات تصعد إلى الأشجار في محاولة لإنقاذ نفسها، الطيور لم تعد تجد ما يؤكل في هذا الحي، النوارس لم تجد صخور الشاطيء ولا صواري السفن، الكلاب مزعوجة وتشعر أنها نصف ميتة، أراقب هذا المشهد الحزين، تقف جانبي كل بيوت الصابري بوجه شاحب، الصابري صامت ويفكر في هيلين وديدو، يفكر في اللحظة التي خرجت فيها الحياة من باب الحرب، اليوم يأتي لكن الشمس لا تشرق أبدا، القمر تم تجريده من كل الضياء الذي كان يعيش من خلاله، القمر مات، الصباح مات، الهواء مات، و أنا مثل روبنسون كروز أعيش على جزيرة مع والدي، أرتب حياتي وأتعلم من جديد معنى استخدام الأشياء، أنا في حي اللاأحد، الأرض أصبحت نظيفة من كل الحميمية التي عرفتها، و السماء لم تعد المكان المثالي كما كانت.

كان الليل قد هبط منذ فترة، لكن المطر لم يتوقف نهائيا، أشعلت الشمعة في غرفة والدي طلب أن يتناول ما تبقى من الأرز والحساء كوجبة عشاء، جلست وأكلت معه، كان يأكل بكل الهدوء الممكن، هذا المرض الفضيع يشوه حركة الإنسان وطريقة حياته، قال وهو يرفع الملعقة إلى فمه ببطء:مرة كتبت بضعة سطور وجعلت منها سري الكبير، أعتقد أني لم أتكلم عن هذا

الموضوع لأي إنسان، أمك نفسها لا تعلم شيئا عما سأقوله الآن، لا تعرف عنه ولو حرفا واحدا، لقد مر وقت طويل جدا على هذه الحادثة، عندما علمت بمرضي، وقد كنت شخصا يتمتع بصحة جيدة أصابني الهلع، كيف أحرم من المشي والركض في هذه المدينة التي تخفي إغراء أكثر عمقا من التاريخ، كيف لا أقف أمام باعة الكتب، كيف لا أستطيع الجلوس على مكتبي لساعات طويلة وأشعر أني في وسط المتاهة، و الأهم كيف سأتحمل نظرة الإشفاق عندما تنظر إليَّ أمك بهذه المفاصل المشوهة، فكرت في الانتحار، نعم لا تستغرب الانتحار، بعدها وجدت أن هذه الفكرة تثير الكثير من التساؤلات، فكرت في النهاية أن أترك كل شيء وأرحل بعيدا، الرحيل إلى أبعد نقطة على هذه الأرض، كتبت الورقة ووضعتها في جيبي لفترة طويلة من الزمن، بعد فترة تراجعت عن الفكرة، يمكن أن أخبرك الآن أن السبب وراء هذا التراجع هو حبي لكم أو حبي لأمك، لكن هذا هو السبب وراء فكرة الرحيل أساسا، فكيف يكون السبب وراء التراجع عنها أيضا، في يوم من أيام الصيف كنت أنظر إليكم على الشاطيء، تسبحون وتصرخون مثل الدلافين الصغيرة، أشعة الشمس وملح البحر وهواء بنغازي يبرزكم كالآلهة في الصورة، هذه الصورة ليست هشة أو خيالية إنها أقوى من الموت نفسه، عرفت أن هذه الصورة لن تفارق خيالي، هذه الصورة ليست من النوع الذي تضعه في صندق مخبأ تحت سرير أمك، عرفت أني لا أستطيع الهروب من الذاكرة، عرفت أني

لا أستطيع الهروب من الوقت، قد أهرب من الفضاء لكن الوقت لا مفر منه، إحساسنا بالوقت هو سبب شعورنا بإنسانيتنا، أنا أريد الهروب من عبء المرض وليس من الحياة، عموما أنا محتفظ بهذه الورقة إلى الآن، ذهبت إلى الطبيب من جديد وعرفت المدة المتبقية لي قبل أن تكون مفاصلي قد أصبحت مشوهة وشبه عاطلة عن العمل، وقررت أن أقضي هذه المدة بين الكتب، هذا هو السبب وراء ضعف بصري إلى هذه الدرجة، لست نادما على شيء إطلاقا. أخذت الصحون من أمامه ووضعتها في حوض الغسيل وعدت مسرعا، عندما وصلت كانت أصابع يده اليمنى تتحرك على راحة يده اليسرى ببطء شديد، وهو قد رحل بعيدا بأفكاره لا أدري إلى أين، وحين عاد من سفره قال:الكتابة جديدة جدا إذا نظرنا في تاريخ البشرية، لم يعرف الإنسان الكتابة إلا في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد، أما رواية القصص فهي قديمة قدم البشرية نفسها، الكلمات بمساعدة الإيماءات تصنع قصة أو أغنية يسمعها كل أفراد القبيلة، كان الرجل يجلس حول النار ومعه أولاده يحكي لهم عن مغامرات والده، أو مغامراته الشخصية، يحكي عن الآلهة وأساطيرها وصراعاتها، هذا التقليد يسمى الكلمة في الفم، هوميروس هو إله الكلمة في الفم، في هذا التقليد القديم يصعب معرفة الحقيقة من الخيال، أول إنسان فكر في الكتابة ربما خربش بإصبعه على الأرض أو أحدث خدوشا على شجرة، من يدري، نحن لا نعرف كيف بدأت الكتابة ولا كيف بدأ الكتاب، نعرف

تطورها فقط، أما اللحظة التي بدأ فيها الأمر فهي مجهولة، إذا أخذنا في الحسبان الاحتفاظ بالقصص والأساطير والأغاني في الذاكرة يكون تاريخ الكتاب أقدم من تاريخ الكتابة، لكن النسيان كان آفة هذا الكتاب، من هنا كانت الحاجة إلى الوثائق، مكان هذه الوثائق هو المعابد والقصور الملكية، أقدم هذه الوثائق هي أقراص بلاد ما بين النهرين، مكتوبة بالحروف التصويرية الخام، شخصيات كثيرة ومختلف الكائنات، لكن الكتابة بالحروف التصويرية على الطين صعبة، تحتاج إلى رسم ومنحنيات ودوائر في هذا النوع من الكتابة، بسبب هذه الصعوبات ولدت الكتابة المسمارية، هذه هي العينات الأولى من الكتابة، ثم نجد الكتابة الهيروغليفية المصرية، وهي واحدة من أكثر الكتابات القديمة دقة ووضوحا، المكان الثالث الذي ظهرت فيه الكتابة هو جزيرة كريت، حضارة مينوا تبدأ مع الملك الأسطوري مينوس، يعتبر العلماء أن هذه الحضارة في بحر إيجه هي الحلقة الأولى في الحضارة الأوربية، وماتزال مخطوطات هذه الحضارة تمثل لغزا كبيرا إلى اليوم، ربما اخترعها ديدالوس قبل أن يطير من متاهة المينتور، كانت الكتابة التصويرية تمارس في جزيرة كريت ولا أحد يعلم ما إذا كان لهذه الكتابة علاقة بالكتابة المصرية أو لا، في القرن السابع عشر قبل الميلاد أعطت الكتابة التصويرية مكانها للكتابة الخطية على هذه الجزيرة، وجد العلماء في آثار كنوسوس الكثير من الأقراص الطينية وعليها حروف أولية . في عام 1952

تم اكتشاف ثلاثين لوحا مكتوبة بطريقة خطية في ميسينا مدينة هيلين وميلينوس، في هذه الكتابة كانت موجودة بعض الصور المحلية القليلة لكن في معظمها كانت خطية.

قبل ثلاثة آلاف سنة عرف العالم الكتابة الأبجدية وقد كانت ملائمة لاحتياجات العالم الحديث بأسره، السلف المباشر للكتب اليوم هو تلك التي كتبت على أوراق البردي والرق، هناك كتب في كل المجالات نصوص شعرية ونثرية، نصوص خرافات وملاحم وحكايات، نصوص صلوات وترانيم وتعاويذ، نصوص قانون وتجارة وعلم، كتب ضخمة جدا ولا يمكن حملها أو السير بها، في العصور الوسطى كان التعليم يتم على يد كاهن في المعابد القديمة، كانت الكتابة صعبة جدا وتحتاج إلى وقت طويل، كان استئجار شخص ليكتب لك أسهل بكثير من تعلم الكتابة، الكتب كانت تحفظ في المعابد، كانت الكتابة تسير من اليمين إلى اليسار والعكس، بعدها سارت الكتابة العربية والعبرية من اليمين إلى اليسار، أما باقي اللغات فسارت من اليسار إلى اليمين، كل قارئ في الغرب يسير مع ثيوسيس إلى اليسار ممسكا بخيط أريادني، يسير مع دانتي إلى اليسار في منحنيات ومسارات دائرية، لهذا دائما ما ينظر إلى المكتبة كمتاهة، مستودع لمعرفة خفية وغامضة، مساحة من السمو، محور للروحانية، طريق للحكمة، آلة للزمن، يوتوبيا، مستودع صامت لتقليد الكلمة في

الفم، المكتبة قديما كانت في مكان تحت الأرض، المكتبة مكان المعرفة الخفية والخطيرة وغير المكتشفة، لهذا كانت مكتبة بابل لبورخيس تحت الأرض، المكتبة في ظل الريح ولعبة الملاك لكارلوس زافون تحت الأرض، المكتبة في اسم الوردة لأمبرتو إيكو تحت الأرض، بعيدة عن الأنظار، غامضة، خفية، سحرية، في رواية ظل الريح أو مقبرة الكتب المنسية يتم حفظ الكتب أثناء الحرب الإسبانية، مكتبة مخفية تحت تحت بقايا القصور والسجون والمستشفيات والكنائس، توضع فيها الكتب المحظورة والمبعدة عن الناس والشارع، منذ محاكم التفتيش وهذا هو المكان الطبيعي للمكتبة، تحت الأرض بعيدا عن عيون الذين يكرهون الكتب، ومنهم هؤلاء الذين يتحصنون في حي الصابري الآن، بعيدا عن عيون المخبرين في المطارات والموانيء البرية والجوية في بلادنا مثلا، هؤلاء موجودون في كل زمان، لقد تسببت كراهيتهم في دفن كتب أرسطو لسنين طويلة، وحرق مكتبة الإسكندرية وغيرها الكثير، لقد دفن المسلمون واليهود في الأندلس الكتب في التوابيت والآبار الجافة وفي كل أنحاء إسبانيا خوفا من محاكم التفتيش قديما ورجل فرانكو حديثا، الكتب يجب أن تكون بعيدة عن أيدي من يدمرونها، لابد من متاهة تحمي الكتب وتمنع هؤلاء من الوصول إليها، دانيال في ظل الريح يرشده أبوه في المتاهة الموصلة إلى مقبرة الكتب، كل كتاب في المكتبة على الرف يحمل روح الشخص الذي كتبه وأولئك الذين

قرأوه وأحلامهم، هذه النظرة العاطفية للمكتبة لم تكن بسبب العاطفة تجاه الكتب، بل كانت نظرة الهندسة المعمارية القديمة، المهندس الفنان والعالِم هو من خلق هذه النظرة، المكتبات كانت في متاهة تحت الأهرامات، الجزء العلوي واضح ومبهر، الجزء السفلي مثل العالم السفلي غامض وخفي وغريب، الجزء العلوي هو الضوء والجزء السفلي هو الظلام الذي ينتج الضوء، في الظلام النقي للمتاهة يتم تعزيز الشعور والإحساس بكل شيء، لم يتم الرجوع إلى هذه المتعة والحميمية المعمارية إلا في العصور الوسطى، تم إعادة النظر في ترتيب الجدران لخلق مسارات وخيارات متعددة، في عصر دانتي كانت المتاهات تظهر في ترتيب الجدران والأرضيات ومكتبة المخطوطات تحت الأرض، و أيضا في الحدائق وتصميم المناظر الطبيعية، وكلها كانت مصممة للنظر إلى المركز كهدف، في عام 65 قبل الميلاد نشر المؤرخ الإغريقي ديودور سيكولوس كتاباً بعنوان:المكتبة داخل الكتاب، الجزء الأول عن تاريخ تدمير طروادة، الجزء الثاني من تدمير طروادة إلى موت الإسكندر المقدوني، الجزء الثالث يصل إلى عام 60 قبل الميلاد، ويكتب فيه عن المتاهة المفقودة، لماذا تظهر المتاهات في الأماكن التي عرفت الكتابة؟المكتبة تعني اللانهائية أو السير إلى اللامكان، من كتاب إلى آخر، تجميع كتب لنفس الكاتب، تجميع الكتب عن نفس الموضوع، تجميع الطبعات لنفس الكتاب، ويستمر الأمر إلى ما لا نهاية.

هناك أنواع أخرى من متاهات الكتب، في القرن الثامن عشر يصف بائع الكتب جان فرانسوا فافارجر مغامرته أثناء سيره لتسليم الكتب، يسير عبر الجبال من نوشاتيل إلى مرسيليا ثم شمالا إلى لاروشيل، خمسة شهور على ظهر الحصان لتوصيل كتاب وتفقد كل مكتبة في جنوب ووسط فرنسا، يقابل في طريقه اللصوص وقطاع الطرق، تغيرات الطقس والجوع والعطش أحيانا، ينهار الحصان في الوحل، يبحث عن حصان جديد، يتقرح جلده بسبب الاحتكاك بالسرج، لكنه لا يتوقف لأن هناك من ينتظر كتابه على أحر من الجمر، وهناك المهربون الذين يسمونهم الحمالين، يحملون ستين كيلوجراماً من الكتب في طرق صعبة ما بين بلجيكا وسويسرا وفرنسا، هؤلاء يسيرون في متاهات لا نهائية لتوصيل الكتب الممنوعة، هذا هو التنوير، هذا هو ما صنع أوروبا، عصر النهضة قام على الكتاب، عندما اكتشف بترارك كتاب شيشرون، تم تجاوز العصور الوسطى للوصول إلى العصر الكلاسيكي القديم، دانتي في العصور الوسطى عندما جعل من فيرجيل دليله كان قد فعل نفس الشيء، وهذا واضح من خلال وصف دانتي لفيرجيل، صوت فيرجيل الخافت في الكوميديا لا يعني أنه كان غير مقروء في العصور الوسطى، بل كان رمزا على الصمت الطويل لعصر كامل، العصر الكلاسيكي كان صامتا وجاء دانتي ليساعده على النطق، قدم شيشرون لبترارك فهما حميماً للماضي، لكن فيرجيل قدم لدانتي فهما حميما للحاضر، هذا

هو الفرق، بترارك يرجع اكتشافه شيشرون إلى قدرته على فهم المعنى الخفي للكلمات، و أنه قادر على الوصول إلى معنى لا يصل إليه أحد، لا الطلبة الذين كانوا يدرسون معه ولا حتى أستاذه نفسه، لقد أكد بترارك على الرؤية والمراقبة، لكن الأمر هنا لا يتعلق بالأفكار، بل بمراقبة ورؤية الكلمات، يرفض بترارك فكرة أنه قرأ الكوميديا الإلهية، لكن صورة الشاعر الذي يمشي مع مرشد يمشيي أمامه ممسكا بفانوس يضيء الطريق للشعراء من بعده، اقتبسها بترارك من دانتي في كتابه الرسائل، رفض العلماء إنكار بترارك قراءة دانتي، بترارك قال:أنا لا أحتفظ بنسخة من الكوميديا، أخاف من تقليد دانتي بوعي أو بدون وعي، حدث لقاء بين دانتي وبترارك في جنوة ولا شك أن لهذا اللقاء تأثيراً على بترارك، اعتبر العلماء كل ذرائع بترارك مضحكة ولا يمكن تصديقها، لماذا ينكر بترارك دانتي بهذه الطريقة؟لقد تجنب بترارك دانتي خوفا من نفوذه الأدبي، كان مرعوبا من أن يكون دانتي هو سلفه لكتابة التاريخ، كان مرعوبا من شهرة دانتي المقبلة وعدم قدرته على قتله، نحن هنا في متاهة لانهائية.

هوميروس، فيرجيل، دانتي، بوكاتشيو، شيشرون، بترارك، الفكرة، الأصل، النسخة، فوضى، اختباء، كان بترارك يظن أن دانتي مخفي جدا في كلماته، لكن الحقيقة أن الجميع كان يراه إلا هو، عندما تدخل هذا العالم فأنت في الطريق إلى اللامكان،

بورخيس لا يجد حرجا من كون دانتي هو سلفه، فكرة اللانهائية تسيطر على بورخيس، كان بورخيس مغرما بالمتاهات منذ طفولته، ومن وجهة نظره المتاهة هي الرمز الأكثر وضوحا للشعور بالحيرة، ما كان يحفز مخيلته هو فكرة عدم الضياع في المتاهة، لكن هذه الفكرة نفسها تضيع في متاهة، بورخيس كان قد درس في المتاهة لدى بسكال، دي كوينسي، إدغار آلان بو، تشيسترتون، فاليري، كافكا، واكتشف المتاهة في كل كتابات هؤلاء الكتَّاب، ومعها اكتشف عمق اللانهائية التي كانت بالنسبة لبعضهم لا تطاق، هؤلاء الكتاب في سجن من المرايا، ومتاهة بدون مركز، بالنسبة لبورخيس هناك متاهات عديدة، متاهة الكلمات، متاهةالرموز، متاهة النمور، متاهة الأحلام، متاهة اللهب، متاهة المصير، متاهة المتاهات، لكن كل هذه المتاهات كانت لا شيء بالنسبة لبورخيس أمام متاهة دانتي، لم يتأثر بورخيس بأحد كما تأثر بسلفه المباشر وهو دانتي، في أعمال بورخيس كل شيء هو متاهة، ليس فقط القصور والمنازل والسلالم والممرات، المدينة نفسها متاهة، الصحراء متاهة، الممرات المائية، المستنقعات، نهر لا نهائي، الغابة متاهة، المكتبة، أما دانتي فقد صنع من الكون كله متاهة، متاهة لا مكان للفهم التام فيها، فقط الحياة الدائرية، دوائر لا نهائية تخبرنا أن الخط المستقيم لا يوصل إلى الهدف، لا يستطيع دانتي تذكر كيف دخل إلى الغابة ولا يعرف كيفية الخروج منها، بورخيس كان مع دانتي في هذه الطرق الدائرية، يمكن

أن نقول الآن، هوميروس، فرجيل، دانتي، بوكاتشيو، شيشرون، بترارك، بورخيس دون أن يغضب بورخيس لأنه لا يخفي حقيقة نفوذ دانتي عليه. كان قد أصبح في غاية الإرهاق وحزيناً بشكل حميم، رفع يده يطلب مساعدتي ليتمدد على السرير، كان متعبا ليس من الكلام فقط، بل بسبب الكثير من العواطف المتزاحمة في روحه عندما يتحدث عن الكتب، أخذت الشمعة وذهبت إلى المكتب لابد من الكتابة إلى بياتريس، أنا أيضا أشعر بالكثير من العواطف المتضاربة الآن، أخرجت ورقة مسكت القلم وكتبت:

عزيزتي بياتريس

الليلة كانت استثنائية بطريقة ما، والدي أخبرني عن سر مؤلم في حياته، لا أعتقد أني قد أنسى وجهه المؤثر في اللحظة التي أخبرني فيها أنه كان على وشك الانتحار، الأمر لم يعد سرا الآن، لقد قررت أن أخبرك به منذ لحظات، كتمان هذا السر في هذه الظروف أمر لا يمكن احتماله، سيكون بمثابة معاناة لا حدود لها أو نهاية، أشعر أن الجدار السميك بيني وبينه ينهار ببطء، في المراهقة والإنسان يصارع كل الأشباح في العالم ويشعر أن المؤسسة الأبوية تمثل تهديدا لحدوده الخاصة، يعلن التمرد والرفض في محاولة يائسة لصنع الرجل الحقيقي الذي يراه في نفسه، قد تكون الحياة بعد إعلان التمرد ليست جميلة ولا ناعمة لكنها في النهاية هي الحياة التي اخترتها، بعد إعلان التمرد

يحدث أن يكون الحزن جزءا منه إلى الأبد، وهو يتكلم هذه الليلة تعبت جميع أطرافه وكأن جسده كان ينهار، لكن روحه كانت تنير الغرفة أكثر من الشمعة، أتذكر الآن ولا أدري لماذا فيلم «الطريق» الذي يتحدث عن توم طبيب العيون، توم أرمل ولديه ابن واحد اسمه دانيال، في لحظة غريبة بالنسبة لتوم يخبره دانيال بأنه لن يكمل كتابة رسالة الدكتوراة، قرر أن يسافر للحج على طريق سانتياغو دي كومبوستيلا، هذا الطريق القديم الذي يسمى كامينو هو شبكة طرق جبلية توصل إلى مقام القديس يعقوب بن زبدي في غاليسيا بشمال غرب إسبانيا، هذا الطريق كان يسمى في العصور القديمة:طريق المعرفة النجمية، وهو أشهر طريق للحج في العالم المسيحي بعد القدس وروما، يقال أن يعقوب بن زبيدي أو القديس جيمس كان تلميذا ليوحنا المعمدان ومعه أخوه يوحنا، المعمدان قدمهما للمسيح الذي بدوره سماهما ابني الرعد لشدة حماسهما لتعاليمه، قتل عام 44 ميلادية بسبب إيمانه بأمر من الملك هيرودس أكريبا أريستو بولوس وهو حفيد هيرودس الكبير، هناك لوحة للفنان الألماني ألبرشت دور اسمها حكم الموت ينفذ بحق الرسول يعقوب الكبير، اللوحة تصور لحظة الإعدام ووحشيتها، و يطلق عليه يعقوب الكبير لتمييزه عن القديسين الآخرين الذين يحملون نفس الاسم، تقول الأسطورة إن رفات يعقوب الكبير نقلت بواسطة قارب من القدس إلى شمال إسبانيا حيث دفن في مدينة سانتياغو دي كومبوستيلا، لكن البعض يرى

أنه سافر إلى شبه الجزيرة الإيبيرية للتبشير برسالة المسيح، وأن هذا الطريق هو الذي مشى فيه أثناء قيامه بعمله التبشيري، في بداية الفيلم وعند ظهور أسماء الممثلين تظهر الخرائط في الخلفية، خرائط الطريق إلى المقام المقدس، خريطة قديمة لطريق قديمة متعرجة وملتوية وتشبه المتاهة، يستقبل الدكتور توم مكالمة أثناء لعبه للغولف تخبره بأن ابنه دنيال مات في فرنسا في بداية رحلة الحج الخاصة به، توم في القطار إلى حيث مات ابنه يتذكر كلماته:متى آخر مرة سافرت فيها، سافر بلا خطة، أنت لم تختر حياة يا أبي، لقد عشت واحدة . يستلم توم أشياء ابنه في مركز الشرطة، يخبره الضابط المسؤول أن الحجاج يقطعون 800 كيلو متر من جبال البرانس الفرنسية إلى سانتيغو دي كومبوستيلا، وأن معظم الناس يختارون السير لوحدهم فهذه الرحلة شخصية جدا، يحرق جثة ابنه وقرر المشي على طريق الحج ليصل رماد ابنه إلى المكان الذي أراد الوصول إليه، الناس لا يسيرون في هذه الطريق من أجل أمور دينية فقط، هناك من يسير من أجل المغامرة، الرياضة، التحدي الذي تتغذى عليه الشخصية، منهم الكاثوليكي، البروتستانتي، الملحد، المنشق عن كل شيء في هذا العالم، لكنهم يكوِّنون جميعا متاهة تتشابك فيها مساراتهم لترسم خريطة من العلاقات الإنسانية الحميمة، هذه الطريق تحتاج إلى دوافع داخلية عميقة، على هذه الطريق وسط الريف الرعوي، الأديرة القديمة، المزارعون مع مواشيهم وقريبا جدا من سماء ضبابية

تمشي للوصول إلى الماضي، إلى الحاضر، إلى المستقبل، لا أحد يعرف إلى أي مكان قد تصل هذه الرحلة، بعد ساعات ستكون لديك رفقة على الطريق، يبدأ توم السير على الطريق لمعرفة معنى التمرد الذي كان يريد كسره في روح دانيال، لمعرفة معنى شعوره بالضيق أمام هذه الحياة بطريقة مرتجلة وبلا خريطة يمكن النظر فيها والعودة في أي لحظة.

توم أفري يحاول إعادة اختراع رحلة ابنه بوضعه القليل من رماد جثته على القبور وبعض الأماكن في الطريق، يشعر توم في لحظات معينة أن دانيال هو مرشده في هذه الرحلة الطويلة، يستغرب من أن صاحبة أول نزل ينام فيه لم تمشِ أبدا في هذه الرحلة، يتعرف على غوست من هولندا، يعترف الشاب الهولندي أنه يسير في هذه الرحلة من أجل إنقاص وزنه، الأمر كله يتعلق ببدلة في عرس، يتعرف على سارة من كندا، التي تعترف بأنها في هذه الرحلة فقط من أجل الإقلاع عن التدخين، و أخيرا يلتقي بجاك من إيرلندا، يجدونه بالقرب من مزرعة لتصنيع الجبن، يلوح في الهواء بيديه وعصاه كأنه يصارع الأشباح، جاك لا يعرف كم من الوقت هو على طريق الرحلة أو حتى اسم المكان الذي هو فيه، يصافحهم ويخبرهم أنه كاتب، يعتقد جاك أن هذا المكان يعني شيئا ويقول لتوم:هل هذا المكان مهم؟هذه هي المشكلة في هذا الطريق اللعين، مشكلة كلمة مزاجية، أنت تمشي لوحدك

في منتصف العدم، تشاهد صراعا عنيفا بالقرب من مزرعة لتصنيع الجبن، ما الذي يعنيه هذا؟وعلى الرغم من ذلك رحلة الحج على هذا الطريق نفسه هي الثروة مجازا، الأصدقاء، الطريق نفسه من أقدم التشبيهات لدينا، الطريق المرتفع والمنخفض، الطويل والمتعرج، المنعزل، الطريق العام والخاص، لديك الطريق إلى الجحيم، الملتوية، المستقيمة، الضيقة، أو الواسعة، هنا تمتد الطريق إلى مالانهاية.في كلام جاك إشارة إلى رحلة دانتي إلى الجحيم، المشي في المتاهة، التفكير في كل خطوة يفكك الغموض الذي يلف حياتنا، إنها إيقاع قوي يوحدنا مع أنفسنا ومع مصيرنا، صاحب النزل يمسك بقطعة قماش حمراء يصارع ثوراً ليس له وجود، جاك يصارع الكاتب فيه في كل خطوة من خطوات حياته. هذه الليلة رأيت والدي وهو يصارع فكرة الانتحار، شعرت بتلك اللحظة التي تكلم عنها، لحظة فراغ تظهر فيها أمامكِ شلالات من الظلام، ما الذي يعنيه يا بياتريس الموت في ظروف غامضة؟يعني انتصار الثور عليك والشعور باختراق قرنه تجويف قلبكِ، بعدها يتلقى الآخرون خبر وفاتكِ بأسف شديد ووجوه مصفرة كأنهم شموا رائحة حامضة، لهذا يمشي الناس في هذا الطريق الصعب والطويل إلى سانتيغو دي كومبوستيلا، ربما لتجنب هذه الرائحة الحامضة، لكن والدي اختار المشي في طريق آخر، طريق المرض الذي يتلف الحياة ويسبب في اختفائها، أعتقد أني أبكي الآن، نعم أبكي، و ليس عليَّ أن أنتظر شخصا

ما ليوقف هذا البكاء، لا شيء ولا وقت ولا شخص هنا ليسد فجوة الدمع في عين الأسى، هذا البكاء هو احتجاج على خيانة الحياة له، لماذا أعطت له الحياة ظهرها ليشعر بهذه الخسارة المرعبة؟أتخيله الآن وهو يسير مع توم آفري على الطريق، جاك يخبرهم أن الحاج يفترض أن يسير في الكامينو وهو لا يحمل أي شيء معه، يبقى وحيدا ومعزولا، ويتقبل الإحسان الذي يقدم إليه من الناس، الحاج من الفقراء ويجب أن يعاني، الطريقة الوحيدة لتكون حاجا حقيقيا هي تقليد ما نعتقد أنه الحاج الحقيقي، يجب أن يكون ثوب الحاج مناسبا للتسول حتى ولو كان غنيا، هل نحترم الفقراء فقط من خلال التشبه بهم؟لا أعتقد أن الحج على دراجة أو حصان يناسب التقاليد، هذا حج زائف، المشي هو المشي.كلام جاك يذكرني بالحجاج المغاربة، كانوا يمرون من بنغازي في طريقهم إلى مصر، من شبه جزيرة سيناء إلى العقبة ومنها إلى حقل الشرف، مدين أو مغائر شعيب، تصوري الرحلة من المغرب إلى مكة وحدكِ في طريق مهجورة، كانوا يصلون إلى بنغازي بملابس صوفية خشنة في أيام الصيف، البعض ينظر إليهم كسحرة، البعض ينظر إليهم كأولياء الله الصالحين القادرين على تحقيق المعجزات، الجميع يقدم لهم الطعام ومكاناً للنوم تبركا بهم وحبا لطريقتهم في الحج، يقال أنهم يمرون من الحدود دون أن يراهم أحد، تجلب لهم العصافير الطعام وسط الصحراء، يجدون الظل في أي مكان يجلسون فيه للراحة، ما الذي يعنيه أن

تكون حاجا في العصر الحديث؟هو نفس السؤال الذي يطرحه جاك قائلا:ما الذي يتطلبه الأمر لتكون حاجا حقيقيا على طريق كامينو؟ما الذي يبحث عنه الحاج حقا؟جاك يجيب عن هذا السؤال قائلا:مشي الجيوش للحرب ومشي الحاج للحج، ما هو إلا بحث عن السلام بطرق مختلفة.

ما الذي يجعل الكامينو مقدسا يا عزيزتي؟لا شيء على الإطلاق، وأنتِ تمشين بين مزارع الكستناء، تنظرين إلى الحيوانات في الحقول، إلى أشجار الصنوبر التي لا تلتفت أبدا، تقفين عند نافورة ماء على جانب الطريق، لا شيء في هذا يجعل موضوع القداسة حاضرا، القداسة تكمن في جهد الإنسان الذي ترك كل شيء خلفه للسير إلى اللانهائية، في العلاقات الحميمية التي تكبر مع كل خطوة من خطوات الطريق، والأهم من كل ذلك هو الاعترافات التي تقال في لحظة ود، غوست لم يكن يفكر في البدلة، أخبر توم أن زوجته ترفض النوم معه بسبب وزنه، سارة لم تكن تفكر في الإقلاع عن التدخين، بل في ضرب زوجها السابق لها وجريمة الإجهاض التي ارتكبتها، أما جاك فيقول لتوم: عندما كنت طالبا جامعيا في كلية ترينتي في دبلن،، أردت أن أكون كاتبا معروفا مثل جيمس جويس، لكن الكاتب الجيد عادة ما يموت فقيرا، بعد أن غادرت الكلية كتبت لمجلات السفر، قلت لنفسي سأفعل ذلك لفترة من الزمن أدخر فيها بعض المال، وبعد

ذلك أتفرغ لكتابة رواية، مرَّ عشرون عاما، و ها أنا لا أزال أكتب للمجلات، لا أشعر بالأسف، إنها الحياة التي اخترتها، بعدها يعترف لتوم أنه توقف عن الكتابة لفترة طويلة ويريد أن يعود إليها، أما توم فيعترف أنه طبيب عيون من المفروض أن يجعل الناس يرون العالم بشكل أفضل، لكن الحقيقة هي أنه لا يرى شيئا، توم أعمى يصلح عيون الآخرين، هذه الاعترافات الحنونة هي ما يمنح هذا الطريق القداسة الممكنة، القداسة تكمن في روحانية هذه الاعترافات وإنسانيتها المفرطة، الاعتراف هو رؤية داخلية متفوقة على الخارج، متفوقة على الخوف، الخجل، الضعف، العمى الداخلي مرتبط دائما بالشر، الاعتراف يخلصنا من هذا المأزق الداخلى، لا أدري يا عزيزتي كم مرة حاولت الاعتراف لك فيها بحبي، من هذه المرات الكثيرة هناك واحدة لا يمكن نسيانها، عندما كنا نجلس في مقهى بقرية دير القمر، هناك أماكن لا يوجد فيها مكان أو وقت للرؤية، في دير القمر البسيطة والواضحة كنت أرى كل شيء كأنه يضحك بصوت مرتفع، أنتِ قمر الدير الذي قرر أن يجلس معي ويخبرني عن سنوات الحرب وما كانت هذه القرية شاهد عليه، كنت تضعين رجلكِ على الكرسي المقابل وتتحدثين بسذاجة نقية، لكن شرارة السحر كانت في كل كلمة من كلماتكِ، لم أتوقع أني في يوم من الأيام سأجلس لأكتب لكِ عن الحرب، عشت كل حياتي أسمع في الأخبار قول المذيع:تبادل لإطلاق النار، ككلمة خيالية تحدث في عالم آخر بعيد ومجنون،

أنا أعيش الآن في مكان لا يعرف سوى تبادل إطلاق النار، أنتظر معجزة في الوقت الذي تتكئ فيه السماء على ظلام الأرض، كنا نمشي على جانب الطريق ومعنا الربيع الذي بمهارته يجعل كل الأشياء تتكلم بلغة جميلة، تسيرين أمامي مثل فراشة مشاكسة ولا تعرف الصبر، تنظرين إلى كل شيء من حولك بطريقة العارفة بعظمة يد الحياة عندما تمتد نحوك بعاطفة تشبه توهج الشمس في صباحات دير القمر، أردت أن أطلب منك التوقف عن السير لكي أعترف أن وعد الصداقة الذي قطعناه على أنفسنا لا يحتوي على الفرحة اللازمة ولا على القوة التعويضية التي تجعل الصوت يحث العاصفة على الصمت، أنا أحبك ولا أفهم معنى رمزية الحرمان، عندما تكون السماء واسعة أفكر فيكِ، عندما تقوم الحياة بترميم قلب بائس أفكر فيكِ، عندما يرفرف عصفور قرب النافذة أفكر فيكِ، عندما ينتهي فجأة البطء المألوف للحياة أفكر فيكِ، لكن نظرة واحدة منكِ إلى الوراء كانت كافية لتغيير رأي، نظرة تقول: لا تفعل ذلك أرجوك، هذه الكلمة لن تخرجنا الآن إلى الجانب الآخر، أنتظر فترة أطول لكي لا تأخذنا هذه الكلمة إلى الهزيمة بسرعة.

بدأنا في قراءة الكوميديا الإلهية، كنت أتمنى أن أكون مثل دانتي الذي سقط في الغابة المظلمة بسبب عدم اليقظة، ثم فجأة يكتشف تلة تشرق عليها الشمس، لكن للأسف الأيام

تمر في الجحيم وتنتهي الأنشودة بعد الأنشودة ولا تلة تشرق عليها الشمس، كنا نقرأ أنشودة من فصل الجحيم وبعدها يشرحها والدي مدققا في كل تفاصيلها في عدة أيام، في هذه الفترة وجدت استخداماً للهاتف غير الاتصالات وهو تسجيل كل كلمة ينطقها والدي أثناء القراءة، الأيام تمر في هذه الرحلة لكن المنظر ثابت، كأننا في العصور الوسطى مع دانتي الذي كان ينظر إلى الأرض كنقطة ثابتة في مركز الكون، كان والدي يسير مع دانتي خطوة بخطوة، من الفتحة في الغابة إلى فوهة الجحيم، يسير معه في كل منحنى ومنعطف، كل فصل من فصول الكوميديا يحتوي على ثلاثين أنشودة، الجحيم يحتوي على أربعٍ وثلاثين، الأنشودة الأولى يمكن اعتبارها تمهيداً لكل الكوميديا، والدي يتحدث عما هو خارج الأنشودة ثم يأتي بهذه الرؤية الخارجية ليقارنها بالرؤية داخل الأنشودة، لقد وضع نفسه كمرآة أمامي، أراد دانتي أن تكون قصيدته تكرارا للتماثل والانسجام والنظام الإلهي، والدي أراد من شرحه لها أن يكون جزءا من هذا التكرار، القصيدة تسير من واحد إلى مائة بشكل خطي، والدي كان يسير في دوائرها بشغف وحنين وتوق لكن في طرق متعرجة وملتوية كما أراد دانتي تماما، كان سيرنا في الجحيم متعثرا بسبب حالته الصحية، نتوقف لأيام كثيرة، لكنه يعود بنفس الحماس لشرح كل كلمة مع ترف كبير في التفاصيل، ويتوقف عند كل كلمة يعرف أنها مزاجية أو رمزية في معناها، لقد اكتشفت معه العلاقة بين الكتابة وطلب الغفران،

هل حقا المعاناة تمنحنا نظرة ثاقبة في وجه العالم من حولنا، ألا يجعل هذا لغتنا مسطحة، و غائبة عن نفسها، طلب الغفران من خلال الكتابة يجعل سيرتنا الذاتية مجرد انتحال حاقد، لغة دانتي تؤكد على أننا أصبحنا متورطين في شيء أكثر من طلب الغفران، متورطين في الحب الذي يسمح للغتنا أن تكون مفرطة في مبالغتها ووحشيتها، تناقضات الحب وما يترتب عنها من ضعف وغموض هو ما يجعلنا نفكر في الكتابة، في الفيلم الإيطالي عواقب الحب، يقول الراوي في أول لقطة:أسوأ شيء هو أن يقضي الرجل الكثير من الوقت لوحده، يفتقر إلى الخيال، الحياة مملة ومكررة، وتصبح مملة أكثر عندما ينعدم الخيال، انظروا إلى ذلك الرجل ذي ربطة العنق، الكثيرون يستمتعون بالتخمين، ما هي مهنة هذا الشخص، وما هي علاقته بكل هؤلاء النساء من حوله، من ناحيتي أرى بأنه مجرد رجل طائش، أنا لست كذلك، الشيء الوحيد الطائش الذي بحوزتي هو اسمي تيتا دي جيرولمو.تيتا يعيش في فندق منذ ثمانية أعوام، لا أحد يعرف عنه أو عن مهنته شيئا، عندما يسأله مدير الفندق عن مهنته يرد قائلا:أخبرني عن سرك الأشد غموضا والممنوع البوح به وسأخبرك بسري، يخبره مدير الفندق بأنه سرق حذاء تزلج منذ فترة طويلة، فيرد هو بقوله:كنت في الثانية عشرة من عمري مع شقيقي الأصغر في المطبخ، وكان من المفروض أن أتأكد ما إذا كان طعامه ساخنا أو لا، لقد حاولت وقد كانت قطعة اللحم باردة قليلا، واكتشفت شيئا آخر وهو أن الطعام لذيذ

جدا، مع صلصة طماطم رائعة، أكلت قطعة اللحم بشراهة بينما هو يبكي من شدة اليأس.لم يكن تيتا يتحدث مع أحد، يجلس في نفس المكان، يلعب الورق مع مليونير مفلس وزوجته وهو يعلم أنه يسرق الورق، يراقب ساقية البار الخاص بالفندق طوال اليوم، يقول عن سر عمله:هذا سري الذي لا يمكن الإفصاح عنه وهو ليس السر الوحيد، المجتمع المحترم يميل إلى المبالغة في تبسيط موضوع المخدرات، بحيث يقسم العالم إلى مدمنين وغير مدمنين، ولم تؤخذ الحالة الوسط في الحسبان، مثل حالتي، أنا اتعاطى الهيروين مرة كل أسبوع منذ أربعة وعشرين عاما، فقط في أيام الأربعاء، في الساعة العاشرة تماما، مرة كل عام أقوم بتجديد دمي كليا، و كل يوم أكتب ملاحظة تقول:لا ينبغي أن أخطأ في تقدير عواقب الحب، عامان والساقية تلقي عليه التحية ولم يرد مرة واحدة، لكنها في مرة صدمته ووقفت أمامه وأخبرته أن الأمر يزعجها، في اليوم التالي جلس أمامها على البار وقال:الجلوس هنا أمامكِ في هذه اللحظة هو أخطر عمل قمت به في حياتي.

في هذه الليلة يتوقف عن لعب الورق ويكشف أمام الجميع السرقة التي يقوم بها المليونير الذي ضيع ماله في لعبة القمار، زوجة الرجل الحزينة تلومه قائلة:لم تكن هناك حاجة لإذلال زوجي بهذه الطريقة فهو رجل عجوز، كان عليك التوقف عن اللعب فقط، أنت رجل شرير وداعا. لقد وقع تيتا في غرام الساقية في

اللحظة التي نظر إليها فيها، لم يكن يرد عليها التحية خوفا من عواقب الحب، بعد الجلوس أمامها على البار أصبح يخرج معها ويقدم لها الهدايا، و آخرها سيارة غالية جدا لم تقبلها بحجة أنه لا يعرفها، يترك لها المفتاح ويرحل، يعود للفراغ والأرق، لديه فلسفة خاصة للأرق يقول فيها:هناك طائفة تشمل الرجال والنساء، تشمل كل الطبقات الاجتماعية والأعمار والأديان والأجناس، طائفة المصابين بالأرق، وأنا منهم، أنا على هذه الحال منذ عشر سنوات، الأشخاص العاديون في الغالب يقولون:إن كنت لا تستطيع النوم فيمكنك القراءة أو مشاهدة التلفاز، ادرس أو افعل شيئا، هذه الكلمات مصدر إزعاج لأصحاب الأرق، السبب بسيط وهو أن المصابين بالأرق لديهم هوس واحد هوالنوم . في هذه الليلة يخرج ويكتشف أن الساقية تلتقي بالرجل ذي ربطة العنق، يعود إلى الفندق يتعاطى الهيروين، بعد دقائق يدق الباب يفتح فيجدها أمامه، تدخل وتخبره أنها لن تقبل هدية من شخص لا تعرفه، من أنت؟يقف أمامها ويقول:أنا كنت مستشارا تجاريا أعمل في سوق الأوراق المالية، قبل عشر سنوات فاوضت على شراء ناقلة نفط، ليس من السهل التفاوض لشراء ناقلة نفط، استشمرت ببلايين، استشمرت للمافيا أيضا، استشمرت لهم 25 بليوناً وفقدت 22 في أقل من ساعتين، أدركوا بعد ذلك بأنني لم أقم بسرقتهم فعفوا عني، ثم أسكنوني هنا في هذا الفندق، مرة كل أسبوع أحمل حقيبة فيها 9 ملايين دولار إلى المصرف، لكني

لست منتسبا للمافيا، لدي سلاح لم أستعمله أبدا، أعاني من الأرق، انفصلت عن زوجتي منذ عشر سنوات، لدي ثلاثة أطفال أتصل بهم، لكنهم لا يرغبون في التحدث معي، أتعاطى الهيروين منذ 24 عاما مرة في الأسبوع يوم الأربعاء الساعة العاشرة، لم أخالف هذا الروتين إلا هذه الليلة، غدا سأبلغ الخمسين من عمري، إنه عيد ميلادي.هذا الاعتراف هو الحب، هذا الاعتراف الذي لا يمكن أن تعرف أو تختبر أو تمتلك تأكيدا ما إذا كان الآخر جديرا به، وهذا هو ما يجعل الكتابة ممكنة، أنت تقول أو تكتب سرك دون أن تفكر في أن الآخر قادر على تحمل مسؤولية هذا السر، لأن هذا الشخص هو خيارك الذي تنتمي إليه، أنت لا تطلب منه المغفرة، لا تطلب منه أي شيء على الإطلاق، لأنك تعرف مسبقا أن الحب لا يأتي إلا من يد واحدة في هذا العالم وهو الشخص الذي أمامك الآن، الساقية تتقبله بعد كل ما قاله وتخبره أنها ستخرج معه إلى الجبال للاحتفال بعيد ميلاده، وأنها ستمر في الساعة الثالثة بسيارتها التي أهداها لها لتأخذه، لكنها لم تظهر في الموعد، اعتقد تيتا أنه اختار الشخص الخطأ ليعترف أمامه بكل ما قاله، وشعر بحقيقة خطورة تلك اللحظة التي جلس فيها أمامها على البار، أبلغ المافيا بأنه أخذ الحقيبة ولن يعيد التسعة ملايين لهم، العقاب كان الموت بدفنه في حاوية مليئة بالخرسانة الجاهزة، لقد ترك تيتا الحقيبة للمليونير المفلس تعويضا له على إذلاله أمام الناس، لكن المهم في النهاية أن الساقية وقع

لها حادث وهذا ما منعها من الظهور في الموعد، لقد كانت هي الاختيار الصحيح، العقبات هو ما يصنع عواقب الحب، العقبات هي ورق وحبر الكتابة، الاعتراف هو المستحيل الذي تقوم الكتابة بتمريره في حروفها، الاعتراف هو السيرة الحميمية للحب، هو الدليل الذي يترك أثره في كتابات العظماء كدانتي، الحب هو المغفرة، الساقية عندما سمعت اعتراف تيتا دي جيرولمو كانت جاهزة لمنحه هدية ليست غالية فقط، بل لا تقدر بثمن وهي الغفران النابع من الحب.

مع الوقت أصبح شاغلي الوحيد هو التناقص المستمر في كل شيء، العاشق يهتم بتفسير وتحليل أدق التفاصيل ووضعها في المقدمة، الحب يضعنا في حالة تأهب لاستقبال التفاصيل، استدعاؤها في اللحظة المناسبة لصنع لحظة فارقة، أنا أهتم بالتفاصيل هنا بسبب والدي، حياته نفسها مرتبطة بهذا الاهتمام العنيد، كنت أحاول في كل لحظة اكتشاف طريقة للاستمرار، إيجاد طريقة للبقاء على قيد الحياة هو المهم، لم أعد أفكر في نهاية الحرب، أفكر فقط في إعادة اختراع الحياة في هذه المساحة التي يتم حرثها كل يوم بكلمات دانتي وذكرياتي مع بياتريس، وتحت هذه الكلمات والذكريات لابد من تصنيف وتدقيق وإدارة تجعل كل شيء في وقته ومكانه الصحيح، لم أكن خبيرا في مثل هذه المواقف الصعبة، لكن يخلق الخبير من بقائه واقفا أمام مثل

هذه المصاعب، و الأهم من كل شيء هو وضع حد للمخاوف، الخوف من الجوع يبدو نكتة متعجرفة ولا يمكن احتمالها، الخوف من نقص الدواء الخاص بوالدي، أشعر معه بدوخة ليست خلاقة على الإطلاق، الموت بسبب اكتشاف وجودنا أصبح آخر همومي، لهذا قررت بعض الإجراءات الضرورية في هذه المرحلة، منها خلع جزء من بلاط الفناء لزراعة الخضروات، تجهيز الأرض بتسميدها وإعدادها لزرعها، بدأت في هذا المشروع بهدوء ودون استخدام مطرقة أو أي شيء آخر، اخترت شريطاً على طول الفناء مكوناً من خمس بلاطات، وبدأت في النحت حول بلاطة في الزاوية، النحت أخذ عدة أيام لكن في النهاية تم الأمر بهدوء ودون ضجة، بعدها كان الأمر أسهل بكثير، عندما انتهيت من هذا العمل المتعب كان عليَّ توسيع دائرة تفكيري في موضوع السماد، سوف أرمي في هذا الجزء بفضلات الطعام، وقفزت إلى الحفرة وجلبت بعض أكياس القمامة وضعت ما فيها على الأرض، كانت الرائحة قوية لكن الشمس ستجفف كل البقايا سريعا، في الأساطير الهندية يتكون العالم من الأرض والفراغ والجنة، الأرض مكوّنة من جبل ميرو أو الجبل الكوني، قاعدة هذا الجبل في جزيرة تسمى جزيرة الشجرة، المناطق العليا من جبل ميرو للآلهة وقصورهم، هذه الجزيرة هي واحدة من سبع جزر مركزها جبل ميرو، كل جزيرة يحيط بها سائل مختلف، الماء المالح، النبيذ، عصير قصب السكر، السمن، اللبن، الماء الحلو، أما في العالم

السفلي الخاص بليما ربة الموت فيتوحد الزمان والمكان في الموت، كم كنت أتمنى أن نكون أنا ووالدي في إحدى هذه الجزر المحاطة بعصير قصب السكر أو اللبن، لكن الواقع أننا في عالم ليما، الوقت والمكان هنا هما مزيج من الملح والموت، أفكر في فيرجينيا وولف وهي تسير على قدميها من ريتشموند هيل حتى تصل إلى مكان مفتوح يسمح بأن ترى لندن كلها تحتها، كنيسة هامبستيد غير المثقلة بعبء الحياة، كاتدرائية وستمنستر تنظر إلى الأبدية في صمت، مداخن المصانع، الضباب الأزرق الذي يلف الحديقة، عدم قدرتي على السير في شوارع بنغازي مأساة مرهقة وغريبة ومعيبة، مأساة أن لا يستطيع الإنسان اختيار الفضاء الذي يعيش فيه، هذا الفضاء المفروض عليك يتحول أحيانا إلى مؤامرة ضدك، أطير من زاوية إلى زاوية مثل عصفور في قفص، ألتصق بالنظر إلى البحر كالسجين الذي ينظر من خلال قضبان زنزانة إلى الحياة التي يحاول استئنافها دون جدوى، هناك ظاهرة تحدث عنها الطبيب سيلاس وير ميتشل في القرن التاسع عشر تسمى الآلام الوهمية، هذه الظاهرة هي الإحساس المؤلم بالأطراف المفقودة، وهذا يعني أنك تشعر حسيا بشيء غائب ماديا، في هذا المكان المعزول أنا أشعر بالحياة، لكنها في الحقيقة غائبة، يعاني الناس من الآلام الوهمية في شكل الإحساس بوجود الناس أو الأشياء، الدافع وراء هذا الشعور هو الحنين، الحزن، الحرب، الفقد، كما يشعر والدي بوجود دانتي أو كما أشعر أنا بوجود

بياتريس بجانبي أحيانا أو أني سمعت أصوات الجيران وضحك الأطفال في الشارع، إنه التوق إلى شيء ما أو شخص ما، الحرب تجعلك تنسى الكفاح ضد الموت، و تتذكر فقط الكفاح ضد هذا التوق الذي لا نهاية له.

في الحرب هناك فلسفة للحرمان من الأشياء، هذا الحرمان يجعل الأشياء واضحة ومؤلمة أكثر، هناك شيء في الحرب يتعمد أن نفقد الأشياء، هذا جزء من الحرب لأنها تدرك أن الأشياء هي سر الحياة، الأشياء هي الإنجاز البشري الذي تسعى الحرب لتحطيمه، في حياتنا اليومية لا نشعر بهذا الفيضان العاطفي تجاه الأشياء، في الحرب عندما نراها حولنا معطلة ولا تعمل أو مهدمة أو محطمة كجثث بشرية نشعر بالحميمية والألم، نكتشف في لحظة أن الأشياء تربطنا عاطفيا بالحياة، غياب الأشياء يحدث فجوة حزينة في وعينا بالواقع، نشعر بالحزن لتحول كل الأشياء من حولنا إلى مومياوات، كأن الحاضر ضاع في متاهة الفقد، كأن الأشياء غير المستخدمة المركونة على جنب تصنع ممرات الفزع، كل يوم كنت أضع شيئا ما جانبا وأنا مدرك أنني لن أستخدمه مرة أخرى، أشياء كثيرة أمر بجانبها لكنها جثة هامدة منذ زمن، أكثر ما كان يؤرقني هو النقص السريع والحاد في كل شيء بطريقة تجعلني أشعر باليأس، رمضان على الأبواب والصيام سيكون جزءا كبيرا من الحل، الاهتمام بزراعة الحوض الكبير في الفناء ربما

هو الحل الأمثل للخروج من أزمة الغذاء، أو ربما هو التأجيل المناسب لهذه المشكلة، كنت أقضي النهار في تقليب الأرض ومراقبة مدى تحلل المواد التي أستخدمتها كسماد، ليس لدي أي خبرة في هذا الموضوع، فقط بعض النصائح من والدي واتباع غريزة حب البقاء، في لحظات كثيرة وأنا وسط التراب وفي يدي البذور أشعر بأني قد استيقظت في عالم بدائي، اكتشفت أن الموت الحقيقي هو انفصالك عن الأشياء الأساسية، هناك ذاكرة بدائية لهذه الأشياء في عقلنا الباطن، هناك بدائي يتجول في أرواحنا ينتظر رفع ستار الإنسان الحديث ليخرج إلى المشهد، الزراعة تمنح شعورا قويا للغاية بالجسد والرموز، الانغماس في العمل أمر يبعدني عن شبح الأفكار المتشائمة جدا، التعامل الحميم مع الأرض جعلني أشعر بأن أمي بجانبي في كل لحظة، هذه الأم التي يجعلك غيابها الأبدي عنك تستهلك كل الضوء الذي في داخلك ولا يبقى إلا الظلام، تصبح ذكراها هي الشمعة الوحيدة التي لا تذوب مع مرور الأيام، أسمع صوتها، أشعر بلمستها الحنونة، و بنظرتها الطيبة، الصبراويات هن الاستثناء في هذا العالم، أتذكر الآن قصيدة الشاعر سراج الدين الورفلي عنهن:الصبراويات لا يعنيهن عيد الحب*لأنهن سبق وفتتن قلوبهن للنوارس*إنهن يقدمن للبحر أضحياتهن*عيون منتفخة من البكاء*ورجال أقوياء*الصبراوية يمكن أن تُنظم معك عصابة*بشرط أن تقبلها أمام زميلاتها في *المدرسة الثانوية*الصبراوية تعرف*طريقة عجن

السفنز*وطريقة الطعن بالسكين*وطريقة إعداد الحناء*إنها سفاحة وجميلة وصابرة*يمكنها أن تكون زوجتك*وتعلمك كيف تغازل النساء*يمكنها أن تقتلك*وتقبّل جثتك في الصباح*إنها ضعيفة تحت المطر*وفاتنة من فوق السطح*ولوحة زيتية من خلف نوافذ البيت*الصبراوية لا تشرد سوى أمام الموج*لذلك كان كل فرسان أحلامها*صخور مبللة.أشعر بأمي الآن تتقاسم معي الزمان والمكان، تتقاسم معي البحر والسماء والحزن، تتقاسم معي موتها وحياتها، الصبراوية لا تترك ابنها حتى بعد موتها، لأن الحياة بدونها تشبه لسعة سائل ساخن في فمك . زرعتُ كل البذور، ولا أدري ما إذا كنت قد فعلت كل شيء بالشكل الصحيح، المهم أني بذلت كل الجهد اللازم في هذه المغامرة، توقفنا في رمضان عن قراءة الجحيم، والدي بصوفيته الصبراوية دخل في عالمه الخاص، وأنا كنت في عالمي الخاص، عالم يحكمه وينظمه الملل، عالم يمكن سماعه كترنيمة صامتة، حتى في أكثر اللحظات تفاؤلا لا أجد خيط أريادني للخروج من المتاهة، من السخرية أن تتذكر قول الناس : الإنسان أكبر من كل الظروف، الإنسان مسكين يتم استهلاكه في مثل هذه العبارات المضحكة، مسكين لأنه معجون باليأس والوحدة وملاذه الوحيد هو التخلي عن نفسه، أحيانا الحياة ليست شيئا أكثر من ألم في أسفل الظهر أو حرقة في المعدة، الحياة هنا تقوم كل يوم بتخسيس وزنها إلى أن أصبحت مجرد شبح يمر بجانبك ولا تراه. لا ؛ الإنسان ليس أكبر من كل

الظروف، هناك ظروف قادرة على دفن أكبر قدراته وأفضل نواياه.

انتهى رمضان والعيد كان يوما عاديا مثل أي يوم آخر، لا مجال لطقوس الصابري في يوم العيد في عالم خالٍ من البشر ومتهدم، هيبة الطقوس تنهار أمام هيبة الحرب، العيد لا يناسب أوقات الشعور بالمرارة، عدنا إلى جحيم دانتي، في الكون الذي صنعه دانتي بشكل هرمي يوجد الإنسان، مربوط بروحه الخالدة مع ما هو أعلى منه، و يميزه عقله عما هو أدنى منه، كون فيه أشياء كثيرة، كثيرة لدرجة أن الإنسان يكاد يختفي في متاهتها، لكن لا وجود لفراغات في هذا الكون، نسير على خريطة جحيم دانتي التي تشبه المتاهة، من عالم النسيان إلى العالم الشهواني، من العالم الشره إلى عالم البخل والتبذير، من نهر ستيكس إلى جدار ديس، من عالم الكفار إلى عالم العنيفين ضد جيرانهم وأنفسم وضد الله، دانتي يقف على جرف الهاوية وينظر إلى هذا العالم المروع الذي خلقه، يخفي دانتي تلميحاته تحت لغات أخرى وألغاز محيرة، قال والدي في إحدى الجلسات:دانتي يحرج المعلقين ويحرج شراح الكوميديا، يستخدم الغموض وغير المألوف من الكلمات، وهو لا يستخدمها بشكل عشوائي، إذا نظرنا إلى الكوميديا كعمل شخصي بحت ؛ فإن الجحيم هو تجربة دانتي بتفاصيلها المرعبة في المنفى، و لا شك أنه قد رأى الحالة البشرية في أبشع صورها، العنف، الكراهية، الخيانة لكل الوعود، نار تحرق كل شيء، وبرد

يجمد الأطراف، لقد نجح دانتي في النجاة من عقبات كثيرة في حياته، منها الطاعون والعيش وسط جليد مميت، لقد قام ببناء ممرات ومتاهة الجحيم ليحكي هذه السيرة التي يعد فيها تسول العشاء في ليلة باردة هو الأقل إحراجا له، لقد كان دانتي قبيح الشكل بوجه عام، و تم إذلاله وإهانته أثناء المنفى فأراد الانتقام من الجميع، هكذا نظر بعض المفسرين لجحيم دانتي، البعض من المفسرين يضعها ضمن التقليد اللاهوتي أو ضمن الكتب التي تضع الكتاب المقدس كأساس لها، ومنهم من يرى أنه ضد القساوسة والباباوات والكهنة فقد وضعهم جميعا في الجحيم، يمكن قراءة الجحيم بألف طريقه، أما عدد التأويلات فلا يمكن حصره. كنا نسير مع دانتي ببطء شديد، مشينا معه في هذا العالم الذي يشبه الغابة التي تحدث عنها في الجحيم، كنت أعيش على كلمات والدي، والعمل في المزرعة الصغيرة في الفناء، النباتات مثل النساء تحب الاهتمام الدائم بلا ملل، الباقي هو روتين يومي أصبح مع الوقت يشبه الاستيقاظ في الظلام والمشي إلى الحمام دون إسقاط أي شيء في الطريق، كنت أكتب لبياتريس بشكل متقطع، أحيانا الحنين لها يمنعني من الكتابة، ليس لأني لا أجد الكلمات، بل لأني أصبحت أشك في أنها تفكر في صديق لعام كامل دون أي جدوى، ومع ذلك لا أستطيع التوقف عن الكتابة لها نهائيا، كانت كلماتي في الرسالة الأخيرة فيها شيء من اليأس، أتذكر الآن هذه الكلمات جيدا:

عزيزتي بياتريس

لقد انتبهت أثناء الاستماع إلى والدي وهو يتكلم عن الجحيم أن دانتي كان ينظم العالم بطريقته هو وليس بطريقة البابا، أنا أنظم العالم هنا بطريقتي وليس بطريقة الحياة الطبيعية، خارج الصابري يرتب الإنسان الأشياء حسب هواه، نزواته، إمكانياته، إخفاقاته، نجاحاته، هنا أنا أرتبها من أجل الاستمرار فقط، إذا خسرت هذا الترتيب فقد تخسر حياتك، لهذا لا يجب أن تتحمس إلا لما هو في صالح الترتيب، وهذا هو الفرق بين الشعر قبل دانتي وبعد دانتي، كان موضوع الإلهام الإلهي هو قدرة على ترتيب المادة وهي اللغة، دانتي قام بترتيب العالم الإلهي الذي يأتي منه هذا الإلهام، لم يعد أحد يفكر في الإلهام، وأصبح الشعر لعبة لغوية كالتي صنعها دانتي، البقاء هنا يا عزيزتي هو لعبة لغوية، يتم تأجيل كل الكلمات التي تقف في طريق الاستمرارية، تأجيل الحركة ليستمر الثبات، تأجل الصدفة ليستمر النظام..إلخ، الحياة هنا هي نوع من ترتيب لهذه الكلمات مرئيا، لا أدري ما الذي قلته حتى الآن، هل ما قلته مفهوما بشكل ما؟لا أخفي عليكِ يا عزيزتي أنا في حالة شوق لا طائل منه، تفكيري في استسلامكِ في نهاية الأمر يجعلني أشعر أن قلبي قد أصبح جافا، عليَّ أن أتقبل ذلك رغم كل ما فيه من ألم، الغياب يهدد العلاقة بالهشاشة الظاهرة، الغياب هو الذبول بسبب الجهد الكبير في الانتظار، هذه الجدران ضد عيون وآذان

الموجودين في الخارج، لكنها في الوقت نفسه ضد عيوني وأذني، لا أستطيع رؤيتكِ أو الاستماع إلى صوتكِ، الآن أنا أحبكِ على طريقة دانتي، طريقة القرن الثالث عشر، الحب الذي يريد الوصول إلى التسامي الروحي، الحب الذي يرسم صورة مثالية للحبيبة، التي تنتظر حبيبها في الأرض أو السماء، كما فعلت بياتريس حين أرسلت فيرجيل لكي يساعد دانتي في الوصول إليها، هذه الروح الأرستقراطية هي ما يجعل الحب يبقى في الظل، غير محسوس، هذا الحب يشبه فارقاً بسيطاً لا يلاحظه أحد، حب منفي ويعرف جيدا كيفية الاختفاء، هذا الحب الأفلاطوني نسخة مشوهة من الجحيم، الحب بنظرات العيون كذبة أو محاكاة ساخرة للحب الحميم، الحب الحقيقي يا عزيزتي يشبه مبارزة بالسكين يمكن أن تموت فيها أو تنزف جزءا كبيرا من دمك على الأرض، بورخيس أكد أن الحياة، بغض النظر عن المدة الزمنية أو التعقيدات التي كانت فيها، لا تتكون إلا من لحظة واحدة فقط، اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان مرة واحدة وإلى الأبد من هو، لقد عاش بورخس عازبا إلى أن وصل الستين من عمره، قابل إلسا أستيتي ميلان وتزوجها يوم 4 أغسطس 1967، أثناء الحفل لم تظهر أي علامة للسعادة على وجه بورخيس ولا على وجه إلسا، عندما تعرّف بورخيس على إلسا كانت متزوجة، لكن العلاقة استمرت وانتهت بزواجه منها بعد نهاية زواجها السابق، كان عمر ابن إلسا عشرين عاما، لا أحد يعرف ما الذي حدث بين إلسا وبورخيس،

كل ما هو موجود من تاريخ العلاقة قبل الزواج رسالتان، الغريب أن الطلاق بينهما كان في عام 1970، دام هذا الزواج العجيب ثلاث سنوات فقط، وقع بورخيس في حب نساء كثيرات لكن دائما علاقاته تنتهي بالفشل، الحب الوحيد الذي لم يفشل في حياته هو حبه لهرقليطس، لقد اعتبرنا جميعا قطرات في نهر هيرقليطس، في الكثير من قصائد بورخيس نجد النهر واضحاً، النهر هو الزمن الذي لا ينتهي ويجري إلى الفراغ، الإنسان لا ينزل في نفس النهر مرتين أبدا، هذه الحقيقة المروعة التي عرفها هيرقليطس كانت السبب وراء غرام بورخيس به، هذه الحقيقة المروعة هي التهديد العظيم بأننا كائنات فانية ولن نحلم بالخلود، الحياة هي العشوائية اللانهائية، مجرد مجموعة من الاحتمالات اللانهائية هذه هي الحياة، والدي وقع في غرام بورخيس وغرام دانتي بشكل أكبر، بورخيس أحب دانتي بنفس قدر هيرقليطس، لكنه كان مرعوبا من تأثيره عليه، مثله مثل بترارك، في قصة الألف لبورخيس نجد الكوميديا وتأثيرها الواضح، بورخيس ينكر هذا التأثير ويهمل ذكر دانتي في قصة الألف، ومع ذلك أظهر النقاد مثل جيرار جينيت، هارلد بلوم، آلان روب غرييه، جون بارت، حقيقة مديونية بورخيس لدانتي، الفرق بين دانتي وبورخيس هو أن دانتي وجد اللحظة التي تحدث عنها بورخيس، لقد عرف من هو تماما في اللحظة التي نظر فيها إلى بياتريس، أما بورخيس فيجري مثل النهر ولم يتوقف لمعرفة من هو، هذه اللحظة لا تمنحها إلا امرأة مثلك يا بياتريس.

أفهم جيدا أني مجرد صديق وليس عليكِ انتظاري، لكن أنا هنا أنتظركِ، عام كامل من المشاعر الضبابية، من عدم اليقين والحزن، عام كامل تعلمت فيه أن لا مكان لي أذهب إليه، أنا هنا، حيث عدم كفاية كل شيء، حيث يذوب الفرح ولا يترك بقية، متعب أنا يا بياتريس، منفي تحت ركام أنقاض الحرب والكلمات، لا أدري كيف يمكن ردع هذا النضج المفرط، كيف يمكن ردع دراما الخطأ المتعمد، أنتظركِ ومع كل هذا الإرهاق أفكر في أني أصبحت جاهزا للكوخ الذي تحبينه بجانب النهر أو بجانب حزن هرقليطس الذي لا ينتهي، تعلمت في عام كل ما قد تحتاجه الحياة في كوخ، أنا هنا كائن متورط في البدائية، في محاولة البقاء على قيد الحياة، كمية الشموع انتهت منذ فترة، لكن صنعت شموعي الخاصة بشرائط الكتان المنقوعة في الزيت والمخلوطة بالأعشاب من المزرعة، نعم لدي مزرعة الآن في الفناء الخلفي، أزرع فيها الأمل مع الخضراوات، أزرع فيها الألفة التي لا تتطابق مع المرارة، في اللحظة التي قررت فيها زرع الخضراوات والدي طلب مني أن أروي الأرض وأتركها ليومين، و قال:إذا ظهرت طبقة ملح فوق الأرض لا تزرع شيئا فيها . يومان من محاولة تهدئة نفسي، ماذا لو كانت الأرض لا تصلح؟تصوري لو أنها كانت كذلك، لا أحد غيري ملزم بفعل ما يجعل الحياة تستمر، أليس هذا ما يحتاجه الكوخ في غابة على ضفة نهر؟عام كامل وأنا أسمع صوت والدي الذي يحاول الحفاظ على صورة العالم التي في خياله، والدي

يتعذب بشكل مريح في حضرة دانتي، على الرغم من كل خيبة أمله يشعر بأن الأدب قادر على تغيير العالم، ويخلق بكلماته في هذا السجن عوالم ممتلئة بالدهشة، بالنسبة له الرجل الذي يدافع عن الأدب هو رجل يدافع عن نفسه، لأن الأدب يصف حدود ما يمكن التفكير فيه وهو نفسه ما يرسم الطريق لتجاوز هذه الحدود، يالها من فكرة رومانسية يا بياتريس، والدي يشعر أن كل كاتب يدعوه للنضال ضد الموت والفقر والجوع، يعيش في عالم أسطوري جميل فيه صورة حياة سابقة تطرد الحاضر في كل لحظة، و أنا أعيش بنفس الطريقة لكن مع اختلاف الأسطورة، أنتِ أسطورتي التي أطرد بها الحاضر، اللحظة التي يتحدث عنها بورخيس هي اللحظة التي رأيتكِ فيها، عرفت تماما ما أنا، أما الآن ومع هذا الشك بأنك قد نسيتيني تماما أصبحت هذه المعرفة مشكوكا فيها، أطرد هذا الشك باللحظات الحميمة التي عرفناها معا، أتذكر الآن إجابتكِ عندما سألتكِ كيف قمتِ ببناء هذه الشخصية الفريدة، ابتسمتِ ابتسامتكِ الحلوة قائلة:بالأسى، تضخيم الأسى وتطويره إلى أن أصبح زخما هو ما صنعني. لم أكن أتوقع هذه الإجابة أبدا، ربما لأني رجل لم يعرف كيفية التصرف في الأسى الذي يحتل روحه، لقد أدهشني فهمكِ لمعنى التفاصيل الصغيرة، وكيف تستخدمينها لتطوير الأسى الذي يلف حياتكِ، لم أفهم لماذا هناك أشياء ينظر إليها المجتمع كأشياء منحطة، و سيئة مقابل أخرى ينظر إليها كأشياء جميلة وسامية، لم أفهم تماما إلا

عندما قلتِ: في لحظات الطفرة الجمالية، التفاصيل لا تحدث التغيير فقط، بل تصبح الطريقة الوحيدة لفهم الجميل، بعض الناس ربما بسبب غرابة العالم لديهم هوس بمغامرة الكلمات، لا يقامون إغراء متعة العثور على الكلمة المناسبة، جميل، قبيح، صواب، خطأ، جيد، سيء، هؤلاء لديهم مهمة واحدة فقط وضع التفاصيل في قاموس اجتماعي، كل شيء في هذه الحياة يتشكل مما يمكن أن يقال عنه، أنا بوهيمية، فوضوية، لا تكترث لشيء إلا لنفسها، تلبس وتتصرف مثل أصدقائها الذكور، عنيدة وتشمئز من كل ما حولها، لا أعتقد أن هذا الكلام صحيح عني، كل ما في الأمر أنني أهتم بتفاصيل أخرى ليست في دائرة اهتمامهم أبدا ولأن هذه الدائرة من التفاصيل التي أهتم بها هي نفسها دائرة تفاصيلك فأنتَ تراني بطريقة مختلفة، طريقة حميمة خلية من حسد التمييز الذي يعذبهم، لا يوجد تفصيل يتفق الجميع على جماله أو قبحه. أتذكر جيدا كل كلمة، أتذكر كلماتكِ الحميمة عن التفاصيل كهامش للتاريخ، هذه التفاصيل يا عزيزتي هي ما يبعد شبح النسيان، لا أستطيع نسيان كلمة أو حركة أو لفتة واحدة منكِ، هناك شيء سري في التفاصيل، في وجهكِ تفاصيل سرية أحبها وأنجذب إليها في كل لحظة، يمكن أن أرى العالم في نظرة منكِ، فرجينيا وولف قالت:دعونا لا نعتبر أنه من المسلم به أن الحياة موجودة بشكل كامل في الأشياء الكبيرة أكثر منها في الأشياء الصغيرة.أنتِ موهوبة في صنع هذه التفاصيل الصغيرة

في الحياة وفي كتاباتكِ، الحياة تبدو كاملة في تفاصيلكِ الصغيرة جدا والممتعة جدا، ربما كل هذا الاهتمام بالتفاصيل نتاج المعاناة والشعور بالوحدة، أنتِ لست وحيدة، لدي ذوق يحب تفاصيلكِ المجنونة والطفولية، وأعلم بأن هناك عداء للتفاصيل مع الذين لا يفكرون إلا عن طريق مثل أعلى . عامٌ كامل يا بياتريس وأنا أفكر في كل هذه التفاصيل وأنا أقدم التزامي اليومي باستمرار الحياة، هذا هو جحيم دانتي، والتأقلم مع هذا الجحيم هو الأمر الأكثر قبحا على الإطلاق، أنا أهتم هنا بكل التفاصيل التي تجعل الحياة تستمر، لكن السبب ليس حب الحياة أبدا، لم يكن لي في أي يوم من الأيام صلة قوية بها، أعرف الحياة في الكتب لأنها أجمل وأكثر حميمية، السبب هو أنتِ لأنكِ الصلة الواقعية الوحيدة بالحياة، انتظريني، انتظريني، لكي أقول لكِ أحبكِ لمرة واحدة وبعدها أعود للجحيم بكامل إرادتي.

أتذكر الآن اليوم الذي بدأنا فيه في قراءة المطهر، كان والدي بحالة جيدة وحرارة الجو تمنحه بعض الراحة من الألم، جلسنا في الفناء هو على كرسيه المتحرك وأنا ليس بعيدا عنه بيننا فقط الطاولة، أحيانا تمر نسمة هواء باردة قادمة من البحر، كان والدي يستنشقها بكل ما فيه من قوة، و كعادته في عدم الدخول في الموضوع مباشرة قال وهو يحرك أصابع يده اليمنى على راحة يده اليسرى:بيكيت قرأ دانتي أثناء فترة دراسته في جامعة ترينتي، ثم

قرأه مرة أخرى على شاطيء طنجة، حتى عندما دخل دار المسنين في ريمي دومونسل أعاد قرأءة الكوميديا الإلهية وهذه المرة باللغة الإيطالية، لماذا يهتم صمويل بيكيت بدانتي كل هذا الاهتمام وهو الكاتب اليائس والساخط والساخر من كل شيء، تم النظر إلى هذه القضية من عدة زوايا بعضها بسيط جدا وأغلبها معقد بطريقة متناقضة ومفرطة في عمقها، لكن الأكيد أن دانتي يمثل سلطة مرجعية بالنسبة لبيكيت، لكن وهذا هو الأهم كان بيكيت يستخدم دانتي لتحطيم أي سلطة أخرى، استخدم بيكيت دانتي لهدم السلطة اللاهوتية بسخرية مرّة، وهذا ما قال عنه هارلد بلوم أنه تخريب متعمد وقراءة خاطئة وتحريفية، وما يهم في كل ما كتبه بيكيت هو أنه يميل إلى المطهر أكثر من الجحيم، وهذا نادر الحدوث جدا، لقد خلق الجحيم في الكوميديا الإلهية ضبابا كثيفا حول المطهر والجنة، ربما لأن الأرض هذا الكوكب القديم لم يعرف سوى مشاهد الجحيم، والحرب كانت هي أعنف التشنجات التي عرفها هذا الكوكب، لهذا العالم مشغول بترتيب المقابر كما كان دانتي مشغولا بترتيب الجحيم، في كل الكوميديا الإلهية الحب هو مركز الدائرة، أو مركز المتاهة بشكل أكثر دقة وإذا كان الحب إلها كما يكتب دانتي فهو في المركز ويرى كل نقاط الخط الزمني، للماضي والحاضر والمستقبل، يترك دانتي خلفه الجحيم بكل ما فيه من مشاهد مرعبة، يترك خلفه القسوة وأرواح الملعونين، ويترك خلفه أيضا كل الشعراء قبله،

المطهر مخروط في شكل جبل شاهق، عندما سقط إبليس من السماء شكل سقوطه العظيم هاوية هي الجحيم وارتفع فوقها جبل المطهر، في مركز الأرض وسط محيط من الماء، لا يمكن الصعود إلى هذا الجبل إلا بشكل دائري في ممر ضيق وخطير، فهو بلا حماية من أي نوع وإذا لم ينتبه الصاعد فيه إلى خطواته فقد يسقط، يبدأ المطهر بباب في نهاية جو الأرض، بعده دائرتان كمقدمة للمطهر، أما المطهر نفسه فهو سبع دوائر مضافا إليها الجنة الأرضية، في المطهر يجد دانتي الأمل، هنا لا شيء دائم، لا وجود لأبدية العقاب أو أبدية النعيم، وهذا يعني عودة دانتي إلى الوقت، لا وجود للزمن في أبدية الجحيم، تشرق الشمس في المطهر وتغرب كما هو الحال في الأرض، الليل مرصع بالنجوم وفيه شيء من السكينة، يسترد دانتي التاريخ البشري بعودته إلى مناظر الأرض الطبيعية، لقد عاد الفضاء والزمن إلى ما كان عليه قبل زيارته الجحيم، على الرغم من الأهمية الكبيرة التي منحها المفسرون والشراح والمعلقون للجحيم إلا أن المطهر هو ما جعل الدومنيكان يمنعون قراءة أو دراسة الكوميديا، ففي المطهر يظهر بوضوح الصراع بين قناعات دانتي السياسية وأساس العقيدة المسيحية، ومن هنا تم التشكيك في عقيدة دانتي.

في المطهر نحن أمام رؤية دانتي الدينية مقابل اهتماماته السياسية، هذه المقابلة نظرت إليها الكنيسة كبدعة المراد منها

تشكيل حياة الناس، دانتي مقتنع بأن الأدب قادر على إصلاح الإنسانية، السياسة كانت خيبة أمل بالنسبة له، أما الأدب بقدرته على الإقناع من خلال نداء العواطف فهو يجذب الأرواح البشرية، هذه البدعة مرفوضة بالنسبة للكنيسة، النص الديني وحده يفترض أن يكون قادرا على نداء الأرواح، دانتي في المطهر يرفض التقارب بين اللاهوت والأفلاطونية الجديدة، ويعتبر هذا الوئام الفاشل الذي غير شكل الفلسفة هو المشكلة التي تعاني منها السياسة، الكوميديا الإلهية عمل فلسفي ولا علاقة له بالأخلاق.

ما يجب أن تقف عنده قبل قراءة المطهر هو أهمية الاعتراف في هذا الجزء من الكوميديا، في الدين المسيحي يجب أن يعترف الإنسان البالغ رجلا كان أو مرأة بكل آثامه على الأقل مرة في العام أمام كاهن الرعية، في عام 1215 أصدر البابا إينوسنت الثالث مرسوما يقضي بأن الاعتراف السنوي إلزامي، قرر البابا وأساقفته المجتمعون في مجلس لاتيران أن الاسرار الدينية والاعترافات على وجه الخصوص أفضل وسيلة لحماية الناس من البدع، ومن خلال هذه الاعترافات الإلزامية يمكن للكاهن العثور على أصحاب البدع والتبليغ عنهم لمحاكم التفتيش، يشير الكثير من المؤرخين إلى أن هذا القانون هو أهم قانون تشريعي في تاريخ المسيحية، الاعتراف بالفم جعل الكنيسة تسيطر على عقول كل رعاياها، في الجحيم يقف مينوس الجبار والمزمجر على باب

الجحيم، عندما تقف الروح أمامه تعترف بكل شيء وهو يعرف مباشرة أي دائرة من دوائر الجحيم تناسبها، الاعتراف في الجحيم هو أساس العقاب، بعدها تتحول أجسادهم إلى تمثيل مرعب لاعترافاتهم، في المطهر يقول دانتي:رأيت بابا، ومن تحته ثلاث درجات تؤدي إليه(ذات ألوان مختلفة) وشهدتُ حارسا لم ينطق بكلمة*وعندما فتحت عيني أكثر فأكثر، رأيته يجلس على الدرجة العليا، وكان ذا وجه لم أقو على النظر إليه*وأمسك بيده سيفا عاريا عكس بشدة نحونا أشعة أنواره، حتى كان اتجاه نظراتي إليه مرات عديدة أمرا غير ذي جدوى*وشرع يقول:خبراني حيث أنتما:ماذا تبغيان؟وأين دليلكما؟خذا حذركما حتى لا يسوءكما المجيء فوق* فأجابه أستاذي:إن سيدة من السماء عليمة بهذا الشيء قالت لنا الآن:فلتذهبا هناك:فهناك المدخل*فاستأنف الحارس اللطيف كلامه:عساها تسارع بخطاكما إلى طريق الخير، ولذا فلتأتيا صُعدا إلى درجاتنا*فذهبنا إلى هناك، وكانت درجة السلم الأولى مصوغة من مرمر أبيض أملس شديد اللمعان، حتى انعكست عليه صورتي كما أبدو*وكانت الدرجة الثانية سوداء أكثر منها داكنة محمرة، ومصنوعة من صخرة خشنة ذات حبب، ومشقوقة طولا وعرضا*والدرجة الثالثة التي ارتكزت فوقها، بدت لي ذات حمرة نارية مشتعلة، كدم ينبثق من شريان*على هذه الدرجة وضع ملاك الله كلتا قدميه، وجلس على العتبة التي بدت لي كصخرة من ألماس.عند المفسرين لا يمكن الشك في أن الرخام الأبيض يمثل

اعترافا صريحا، السوداء الداكنة المشقوقة طولا وعرضا هي الندم والقلب المكسور، أما ذات الحمرة المشتعلة فهي الحب الحارق، الخطوة الأولى تتضمن الاعتراف، سواء بين يدي مينوس أو ملاك لطيف، سرد الاعترافات هي المادة الأساسية في الكوميديا الإلهية، ولا يفتح باب المطهر إلا بعد هذا الاعتراف، يقول دانتي:فألقيت بنفسي خاشعا عند قدميه المقدستين:وسألته أن يفتح الباب رحمة بي، ولكني ضربت صدري أولا ثلاث مرات*فرسم على جبيني بطرف حسامه سبع خاءات، وقال:احرص على أن تزيل عنك هذه الندوب حينما تصبح بالداخل*كان لون الرماد أو الأرض التي تحرث وهي جافة في لون ثيابه، ومن تحتها سحب مفتاحين إلى الخارج*ومن الذهب كان أحدهما مصوغا، ومن الفضة صيغ الآخر:وبالأبيض عالج الباب أولا، ثم بالأصفر حتى صرت راضيا*وقال لنا:كلما يعجز أحد هذين المفتاحين عن الدوران–لا ينفتح هذا الطريق*إن أحدهما أغلى ثمنا، ولكن الآخر يقتضي فنا وحذقا أكثر حتى يفتح الباب–لأنه هو الذي يحل العقدة.مفتاحا السماء هنا رمزاً لسلطة القساوسة وعملهم، وقد ورد هذا التعبير في الكتاب المقدس، المفتاح المصنوع من الذهب رمز لسلطة القسيس في أداء واجبه الديني، المفتاح المصنوع من الفضة رمز لعلم القسيس ومعرفته وقد تحدث عنهما توماس الأكويني، ورسم الملاك على جبين دانتي سبع خاءات رمزاً للخطايا السبعة، و طلب الملاك منه إزالة هذه الندوب عندما يكون بالداخل، وهو

يقصد طلب منه الاعتراف قبل أن يكون بالداخل، لا شك أنك لاحظت سرد حقيقة قانون الاعتراف والسلطة التي منحها هذا القانون للقساوسة والكهنة، هذا الاعتراف في المطهر مستوحىً من الاعتراف في الجحيم، وكلها مستوحاة من محاكم التفتيش.

والدي يكتب تاريخه الخاص، تاريخ رغباته وأحلامه، أما في الخارج فهناك تاريخ آخر يكتب، تاريخ يواجه فيه الإنسان الموت والفقر والنزوح، التاريخ يعتقد أن كلماته قادرة على وصف ما حدث، لكن هذا هو وهْمُ التاريخ الذي يدعو للسخرية، حكاياته التي تريد أن تخدعنا باسم الحقيقة ما هي إلا تلفيق، التاريخ يحتاج إلى أن يعترف بأن كلماته ليست كافية، الآن في هذه اللحظة التي أدفع فيها بوالدي على كرسيه المتحرك أفهم قول نوال مروان في فيلم الحرائق بعد أن فتح كاتب العدل جين يبيل وابناها سيمون وجان وصيتها:يقوم كاتب العدل بوضعي في قبر دون تابوت، عارية، وبدون أي صلاة، وجهي نحو الأرض، وظهري باتجاه هذا العالم، لا يوضع شاهد على قبري ولا يُنقش اسمي في أي مكان، أولئك الذين لا يحافظون على وعدهم لا يستحقون الرثاء.مثل هذه الكلمات تجعل التاريخ الذي يشعر بحرية كاملة تجاه كتابة عذابنا ومآسينا أمر فاضح كعمل نوال تماما، هذا هو الرد على الحرب، الموت، التاريخ، نوال فتاة لبنانية عاشت أيام حرب لبنان الدموية، نوال تحب شاب من المخيمات الفلسطينية وهذا أمر يعد فضيحة

في تلك الفترة، أرادت الهروب معه لكن إخوتها كشفوها وأطلقوا عليه الرصاص أمامها وتركوه مرميا على الأرض، تكتشف الجدة أنها حامل فتعدها بمساعدتها إلى أن تنجب الطفل، وبعدها ترحل إلى خالها كي تدخل المدرسة وتتعلم، وعندما تلد طفلها يؤخذ منها، تترك الجدة علامة على رجل الطفل وتقول لنوال:انظري للعلامة لعلكِ تجدينه يوما ما.هذا هو الواقع غير القابل للكسر، هذه القصة الصغيرة لا تهم التاريخ في شيء، إنها مجرد تفصيلة على هامش الحرب، التاريخ لا يهتم بالانتماءات السرية للأمل، لا يهتم بإزالة اليأس، يهتم فقط بالحرب، التاريخ لا يتكلم عن غزو الحرب لمشاعرنا، عواطفنا، حياتنا اليومية، في هذه الحالة يصبح التاريخ غائبا عن نفسه ولا يعرف سوى الصمت، تركت نوال لجان ظرفاً فيه رسالة لأبيها الذي رحلت وتركته في لبنان، وعلى جان أن تسافر إلى هناك وتبحث عنه، تركت ظرفاً لسيمون فيه رسالة لأخيه وعليه أن يبحث عنه ويسلمها له، وعندما يتم تسليم هذه الرسائل سوف تسلم لهما رسالة بعد الوفاء بالوعد، تذهب الكاميرا إلى نوال أيام الحرب، المتاريس والدبابات على الطريق وفي كل مكان، تنظر بخوف من خلال نافذة الحافلة وهي عائدة إلى القرية للبحث عن ابنها في دور الأيتام، لكنها تُفاجأ بأنهم تركوا الإناث وأخذوا كل الأولاد إلى الحرب، لم تكن الإنياذة تاريخا ولم تكن الكوميديا الإلهية تاريخا لكنها كانت شبح التاريخ الذي يبحث عن الحرب، عن آخيل وهيكتور وأغاممنون، يبحث

التاريخ عن الملاكمين والمصارعين ورجال العصابات، أما بقية الناس فهم مجرد جثث لا تطارد الحاضر ولا تريد منه شيئا، تمشي نوال على قدميها في متاهة البحث عن الطفل المفقود، تشاهد الدمار والنار التي تأكل الحياة منهم، تجلس وسط دار الأيتام المحترقة وتبكي، لا أحد ينظر إليها سوى الدخان الذي يعرف معنى التعتيم الصامت على مصائب الطيبين، لا تكفي مساحة اللغة ليكتب التاريخ عن دموع نوال، تصعد إلى حافلة يُقتل أغلب من فيها من قِبل ملثمين لم ينظروا ولو لحظة إلى وجوه من قتلوهم قبل إطلاق النار على الحافلة، لا يمكن وصف مشهد إحراق الحافلة بمن فيها من الأحياء، لكن نوال تخرج الصليب الذي أخفته قبل ركوبها مع هؤلاء المساكين وتصرخ:مسيحية، مسيحية، وهذه الكلمة فقط كانت كافية للنجاة من الحرق بنار الجحيم، هذا هو الجحيم الذي لا يقف مينوس على بابه، لا يحتاج إلى اعتراف لمعرفة نوع العقاب، هذا هو الجحيم الذي يجعل التاريخ يقف في حيرة من نضجه المشؤوم، عاد بي صوت والدي من هذه الصورة الغاشمة وغير المصبوغة بالوهم، سمعته يقول:هل استمتعت بهذه الفترة الطويلة من العزوبة؟ لا أدري يا أبي بماذا أرد في هذه اللحظة، الآن في هذه اللحظة أحتاج إلى كلمات جيدة التهوية، كلمات ليست مهزومة كروحي أو معنوياتي، لكني لا أستطيع تجاهل هذا السؤال المطروح، أعلم أنك تستفزني لكي اتحدث وأبتعد عن خزانة حزني، تعبت يا أبي من ترتيب هذه

الخزانة ألف مرة يوميا، تعبت يا أبي وأصبحت مرهقا من الإمساك بالأشياء العارضة، المؤقتة، الأشياء التي تقاوم الوجود، لا أستطيع قول كل هذا لك، ليتني أستطيع أن أنقل لك صورة نوال وهي معنا في الجحيم الذي نعيش فيه أنا وأنت.

عندما جلس على السرير بشكل مريح، طرح عليَّ السؤال مرة أخرى:هل استمتعت بهذه الفترة الطويلة من العزوبة؟تكرار السؤال يعني أن الإجابة إلزامية، جلست بجانبه على السرير وقلت:هل يجب أن أكون في ملجأ رعوي مع زوجة، هل تريد سماع الحقيقة يا أبي؟أنا في التجربة السابقة كنت أنسى الشخص الذي يعيش معي بسبب التركيز على تفاصيل أخرى في الصورة، في الحقيقة الزواج هو أكبر تحدٍ لعاداتك الشخصية، الزواج تقنية مرتبطة بممارسة المشاركة، كي يستمر يحتاج إلى الإسهاب، صيغ تمتد إلى مالانهاية، زيادة مفرطة ووفرة في المجاملة والكذب، لا أعتقد أن تقاسم نفس طريقة الحياة مع شخص آخر أمر سهل، الحياة مع شخص آخر تحتاج إلى تفاصيل ممتعة وغريبة، لا تحتاج هذه الحياة إلى تكتل الأشياء في البيت، لا تحتاج إلى تواطؤ سخيف مع جمال تصفيفةِ الشعر أو الزينة الأقرب إلى الحماقة منها إلى البذخ اليائس، أنا لا أصلح لهذا الأمر وأنت تعرف ذلك جيدا، الزواج لم يكن أبدا بستان المسرات بالنسبة لي، الناس تلمح بسهولة إلى الربط بين العزوبة وعالم سري، أو عالم من الأفكار

الخاطئة والأعمال المنحرفة، لأن هناك انحرافا لديهم في فهم معنى السرية، السرية ليست تجنب الفضيحة، السرية هي تضحية مقدمة من أجل حماية عالم لا يحتمل وجود آخر فيه، لا يمكن ربط العزوبة بالإنكار والإخفاء والخداع بهذه البساطة، العزوبة لها تاريخ طويل، أثينا إلهة الحرب والحكمة والحرف اليدوية كانت عازبة، آرتميس إلهة الصيد والحيوانات كانت عازبة، هيستا إلهة الموقد كانت عازبة، كانت عزوبة أثينا جزءا لا يتجزأ من شخصيتها، قد تكون حقودة، تافهة أحيانا، انتقامية، لكنها لا تسمح بانتهاك حصنها الشخصي، كانت تقول:أنا بنت أبي، لم أعرف ظلام الرحم.الوحيد الذي رآها عارية هو تريسياس الذي أصبح الرسول الأعمى لأبولو، كانت مجرد صدفة وهي تستحم في الهواء الطلق في فصل الربيع، لم يكن تريسياس يقصد، لكن أثينا في نفس اللحظة أعمت بصره، وعوضته بعدها عن ذلك بمنحه هبة النبوة، لم يكن لدى أثينا عالما سريا، لم تكن تتظاهر بأنها عازبة، مع أنها كانت تفضل الرجال على النساء وساعدت العديد من الأبطال، أرسطو قال:الشخص الذي لا يستطيع العيش في مجتمع أو لا يحتاج أن يكون جزءا من المدينة لأنه مكتفٍ ذاتيا، فهو إما أن يكون وحشا أو إلها، لست ضد كلام أرسطو أبدا، من قال أن العازب لا يستطيع العيش في مجتمع أو مكتف ذاتيا، العزوبة ليست انسحاب من المجتمع بل هي تجنب الصورة البائسة للمجتمع، الاكتفاء الذاتي لا يعني العزوبة، أمر مضحك

أن تقرأ أن لحية ليوناردو دافنشي الطويلة هي محاولة لإخفاء وجهه الجميل، وأن وجهه وسيلة لإغراء الآخرين، أو أن السجن بسبب قضية سالتاريلي هي ما جعله يقرر العزوبة، لقد عقد دافنشي العزم بعد خروجه من السجن على أن يكون رجلا شجاعا، وهذا يعني أن يكون عازبا بقية حياته، لو تزوج دافنشي هل كان قادرا على تحقيق كل هذه الإنجازات؟أشك في ذلك، العزوبة يا أبي أنانية لطيفة لا يتضرر منها أحد، أو يمكن أن تقول عنها أنها إغفال ذو مغزى حميم وهادف، لن أكذب عليك بعد تجربتي السابقة أنا متشائم من إمكانات الزواج في تحقيق السعادة، لدي إحساس عميق بأن الزواج جزء من هيمنة المجتمع عليك، إنه خدعة تشبه خدعة الاعتراف التي تحدثت عنها، الزوج يخاف من سيطرة زوجته عليه، لكنه ينسى أنه قد أصبح بسبب الزواج تحت رحمة المجتمع والدولة والحاجة للمال، قد لا يكون كلامي مقنعا بالنسبة لك، لكن لا تخف لن أبقى عازبا إلى الأبد لدي مخططاتي الكارثية والصادمة بالنسبة لك كالعادة، لكنها تبقى مخططات ويمكن إنجازها، شعر بالسعادة بسبب هذه الكلمات الأخيرة، خرجت من الغرفة وذهبت إلى المطبخ وأنا أفكر في بياتريس، كان الليل يهبط ببطء، ها هو العالم يتحول إلى لوحة من فن سومي الياباني، لوحة بالفرشاة والحبر الأسود، الخط فوق الخط، الظلال فوق الظلال، النهار راكع على ركبتيه ويقدم اعترافه الطويل أمام الليل الذي لا ينتهي.

تلك الليلة وقبل أن أنام فكرت في خيال والدي حول الأدب وقدرته على تغيير أي شيء، فكرة أن الأدب قادر على خلق عالم أفضل مجرد وهم، ليس لأن الأدب غير قادر على فعل ذلك، بل لأن هذا العالم الأفضل ليس له وجود، قلت لنفسي:أنت منخرط في إحباطك، لا تمجيد العالم ولا تحقيره يفيد في شيء، كنت أريد أن أنام لكن الاشتباكات وقذائف الهاون لم تتوقف تلك الليلة، كانت الأمور هادئة لفترة من الزمن وجارنا أخبرني في إحدى زياراته أن عددهم في تناقص، و الكثير منهم يخرج في الجرافات ولا يعود، أنا يجب أن أخرج من هذه الحالة، لا يجب أن أعيش في مثل هذا اليأس، عليَّ أن أتغلب على هذا الشعور باللاجدوى، يجب أن أفكر في انتظار بياتريس لي كنوع من مقاومة تبديد نفسي، في الصباح وقبل أن يستيقظ والدي صعدت إلى السطح ومعي التيلسكوب، هذا الإجراء الروتيني اليومي لابد منه للإطمئنان على جارنا والنظر إلى البحر، هذه النظرة أصبحت هي الرفاهية الوحيدة التي أستمتع بها، عندما تصبح الأماكن غير قابلة للتبديل يتحوّل هذا الأفق إلى مكان خلاب ويشبه اللغز، رفعت يدي لجارنا الذي أخبرني أنه قادم هذه الليلة ثم اختفى، ربما ذهب لينام، فهو يقضي الليالي في قراءة الكتب التي أصبح يستعيرها مني بانتظام، و يقوم بالرياضة يوميا داخل البيت، و أصبحنا نتشارك ما تنتجه المزرعة من خضراوات، رفعت التلسكوب أنظر إلى البحر وأنا أتمنى أن أضع يدي على كتفه، شعرت أنه يقول يدك ودية

لكن بلا فائدة، عليك بتجاوز الليالي الدامية، عليك بخلق معجزة تحميك من الانحناء، فجأة ظهر أمامي حصان على الشاطيء، أنزلت التلسكوب للحظة ورفعته مرة أخرى، أنا لا أتخيل، إنه أمامي مباشرة، لونه بنّي داكن يتحرك ببطء وكلب يدور حوله، في عنق الحصان حبل يتدلى إلى الأرض، ربما هرب هو والكلب من قذيفة مدمرة البارحة، أكيد أن صاحب الحصان والكلب موجود في مكان ما من الحي، الكلب يدور حول الحصان بطريقة فيها مرح اللعب، وفي لحظة لم أكن أتصورها اخترقت رصاصة عنق الحصان، لم أسمع صوت الرصاصة ولا خمنت من أين جاءت، حاول الحصان أن يخطو خطوة أخرى لكن رصاصة أخرى مزقت المنطقة القريبة من أذنه، سقط على رمال الشاطيء، الكلب يدور حوله لكن هذه المرة بعصبية كبيرة بدأ في النباح، كنت أتمنى أن أصرخ، توقف عن النباح، توقف، لكن الرصاصة كانت قد اخترقت لحمه وسقط بجانب الحصان، البحر أصبح هو الكفن الذي يلف جسد الحصان والكلب، الموجة تصل إلى بقعة الدم وهي تحاول أن تقنعها لترحل معها، كم هي باردة يد القاتل، الحيوانات تُعدم هنا بتهمة البقاء على قيد الحياة، حاولت أن أضع خطواتي بعناية على الدرج حتى لا أسقط، وفي مرحلة ما من الدرج جلست لم أتمكن من رفع رجلي، لم أعد قادرا على التنفس، أحدهم أخذ رئتي والهواء وتركني في هذه البيوت والشوارع المهجورة، لم أستطع منع دموعي، بكيت لأني لم أجد كلمة، كأن حجراً تم إلقاؤه

في جوفي، بيكت كل شيء في هذا العالم، بيكت الحياة التي أصبحت تجري كعجلة مشتعلة في بنغازي، بكيت نوال مروان وهي تقول:عمي شربل يعتقد أن الكلام والكتب قد يحافظ على السلام وأنا صدقته.بيكت كدماتها وتقرحاتها في الزنزانة الصغيرة، بيكت غناءها الذي يسمعه السجناء والسجينات كأنه الحرية، بكيت محاولتهم كسرها بكل الوسائل، بكيت اغتصابها المرة بعد المرة كي تتوقف عن الغناء، بكيت الحصان والكلب ونفسي ووالدي، نوال لم يكتب عنها أحد ولم يرسمها أحد، لم تكن هناك مساحة فارغة في التاريخ لها، و لا لحزني أو لهذه الصحراء المليئة بالموت، لا يوجد ظل يقف تحته يأسي في هذا المكان، صوت نوال كان مثل العاصفة في أرجاء الصابري، يركض صوتها إلى الشاطئ، إلى الميناء، يدخل من الأبواب والنوافذ المغلقة منذ عام، صوتها يجري مدفوعا برغبة وحشية في الثبات وعدم قبول الارنكسار، علينا أن نبتلع اليأس ومعه الأمل، أن نبتلع الغضب ومعه الهدوء، الموت له فم كبير وقادر على ابتلاعنا جميعا، لدى والدي الذي أنظر إليه كملاذ مبني من الأسرار، لن أنكسر الآن وأتخلى عنه، ليس لدي وعاء في قلبي لحزنه أو موته، لن يمحو شيء من مخيلتي الكوخ بجانب ضفة النهر.

نزلت وأنا أحاول بكل جهدي أن لا يظهر أي شيء من رعبي أمام والدي، جهزت له الشاي وقطعة خبز صغيرة، لا أعتقد أنه

نام بعد صلاة الفجر، لكنه يتظاهر بالنوم حتى يترك لي مجالا أكون فيه لوحدي، تغيرت علاقتي بوالدي في هذا العام كثيرا، وضعنا كل شيء جانبا طوال هذه الفترة، لم تكن بيننا مشكلة أو عدم اهتمام، لكن دائما كنت أشعر في قرارة نفسي أنه يريد مني شيئا لم أعرفه ولم أفهمه، علاقتي به الآن حميمة وفيها الكثير من المزاح والسخرية والتفاهم، كل فجر في هذا العام وحتى قبل الأذان أعرف تفاصيل اليوم بالكامل، لا اختلاف بين الأمس واليوم وغدا، تكرار وروتين قد يرى البعض أن فيه الكثير من الملل، أنا لم أشعر بهذا الروتين بطريقة سيئة لأني أفعل كل شيء بحب وامتنان له، من صلاة الفجر والذهاب إلى الحمام، من إعداد الوجبات وغسل الصحون إلى غسل الملابس وتنظيف المكان كانت أعمال يومية أقوم بها له هو، بل إنني أصبحت أبحث كل يوم عما يجعلني أكثر كفاءة بحيث أكون أسرع وأكثر فاعلية، أنا وهو رسمنا خريطة للحزن وتقاسمناها بصمت، وكل منا يحاول أن يمنع وصول الآخر إلى الكآبة التامة، المحافظة على الحزن في مكان سري مهمة لا يمكن احتمالها، عندما يصمت والدي تسمع صوت اهتزاز الأشجار العتيقة، ترى بحيرات زرقاء داكنة يتحرك على سطحها تيار حزين، تحت هذا التيار تتفتح أزهار حزن لا يمكن التعبير عنه، حزن في مكان بعيد ودقيق لدرجة أن المجهر لا يصل إليه، خلال هذا العام وصلت إلى هذا الحزن المدفون، أعتقد أنه هو من قرر السماح لي بالوصول إليه، قبل أن

يخفي الإنسان حزنه بهذه الطريقة الماكرة يكون قد مر بفترات من الضيق، الغضب، القلق، الفوضى، اليأس، ثم إلقاء اللوم على شخص ما، ثم حالة من العبثية بعدها يصبح قادرا على السير مع حزنه جنبا إلى جنب في الطريق إلى عالم خاص، هذا الشبح الذي لا يراه أحد غيرك هو حزنك الذي يعتني بك جيدا، لقد اكتشفت الكثير عن والدي في هذا العالم الذي عشناه معا، أحيانا أشعر أنه يرتجف بسبب حبه للماضي، بقدر ما في هذا الماضي من ذكريات مؤلمة مثل موت أمه في سن مبكرة جدا والعيش مع الجدة، إلا أن هناك ذكريات جميلة وساحرة، حدثني مرة عن صرامة الجدة قائلا: كانت كتلة من المعاناة الصامتة، كنا نعيش في شارع العيساوي، لقد أخذتني من والدي في حين ذهب عمك مع جدك، لا أدري لماذا تمسكت بي إلى هذه الدرجة، لديها ستة بنات وولد واحد هو خالي، مع هذا الكم من الأولاد وموت زوجها كان عليها أن تكون صلبة وقادرة على التحكم في كل شيء، عندما كان أحدنا يبدي أي امتعاض من الطعام، تتركنا حتى ننهي طعامنا ثم تأخذ القصعة وتضع فيها كمية من الماء وتخلطها ببقايا الطعام وتمشي إلى أن تقف أمامه وتفرغ ما في القصعة على رأسه، هذا هو عقاب التكبر على الطعام، إلى أن أصبحت في سن الشباب وعندما أعود متأخرا أجد في المطبخ كسرة من الخبز ونصف علبة حليب كورنيشن، لم أتذمر ولو مرة واحدة، لأنها كانت تعيش في عالم لانهائي من الحزن، كانت

جميلة جدا وتقدم لها الكثير من الرجال بعد موت زوجها، لكنها اختارت تربيتنا والاعتناء بنا، كانت توصي الجيران في الشارع أن يقوموا بإبلاغها إذا دخل جدك الشارع، لكي تبعدني عن البيت خوفا من أن يكون قادما لأخذي منها، أصرت على تعليمي، فقد وهبتها التجربة إحساساً بأن التعليم هو المخرج الوحيد من هذه الحياة البائسة. لدى والدي دائما حنين لهذا الماضي بكل ما فيه من بؤس، الحاضر يفتقد الحميمية التي عاشها مع اليتم والفقر، فقدان هذه الحميمية النظيفة يجعل الحياة دائما قريبة من الموت، لقد اكتشفتُ أن والدي لم يكن سعيدا أبدا، كان يعيش على الجانب الآخر من كل شيء، لكنه قادر على إخفاء أشجار حزنه الشاحب بين سطور الكتب وصوت فريد الأطرش والهتاف لعبدالناصر.

في المساء جلسنا من جديد للدخول في عالم المطهر، والدي كان متحمسا جدا لهذا الجزء من الكوميديا، ربما بسبب ميوله الصوفية، وربما لأن فكرة الجحيم قاسية جدا ولا تناسب روحه الشفافة، كنا جالسين في الغرفة والشمعة بيني وبينه، لهب الشمعة مثلي يكرّس نفسه للاستماع دون ضجة، والدي ينتظر قليلا قبل أن يبدأ حديثه، كأنه ينتظر أن يسيطر دانتي تماما على الغرفة، لكنه في النهاية قال:دانتي أحيانا يكون مثل الضباب في الأفق البعيد، و في أحيان أخرى سهل الوصول إليه، كلمات دانتي

مثل زهور عباد الشمس التي تدور بحثا عن الضوء، أحيانا نسمعها مجرد همهمة صامتة، هذا لأننا لم نختر الزاوية الصحيحة للسمع، دانتي يجب أن نتنصت عليه لنسمع الأصوات القريبة والبعيدة، في الكوميديا لا يكون المعنى الظاهر سوى حجاب لمعنى خفي، علينا أن نرحل إلى أماكن أخرى، كتب أخرى، أفكار أخرى لمعرفة المعنى الخفي، يمكن تفسير كل فصل من فصول الكوميديا بطرق مختلفة، لكن دون معارضة أيٍّ منها أو تهميشه، يجب التعامل معها كأجزاء من نفس الكل، لا أدري لماذا كل الشعراء والكتَّاب الكبار الذين تم نفيهم لأي سبب هم الأكثر امتصاصا لحزن الإنسانية وعذابها، بل إن النفي يتحوّل إلى نعمة إلهية، شيشرون مثلا، عندما تم نفيه من العمل السياسي وروما، جلس في بيت ريفي مع عبده المثقف جدا الذي ينتظر أن يملي سيده ليكتب كل كلمة بحرص شديد، كان بجانبه كتب الإغريق والمؤرخين الرومان وكتب القانون، ترك ساحات روما وصرخات السياسيين وتزوج فتاة جميلة لأنه مؤمن أن الاستمتاع ليس فقط بجمال التماثيل واللوحات ولكن بالحياة مع زوجة جميلة، لقد تحول النفي من عقوبة إلى مجد بسبب هذه العزلة التي فرضها على نفسه، وعندما وجد بترارك رسائله عن طريق الصدفة بدأ عصر النهضة، عاش دانتي نفس القصة فخلق الكاتب الحديث ومنح العامية المبتذلة سموها ومجدها، تجربة دانتي الواسعة وسنوات النفي والقراءات المتعددة وحبه المتفاني لبياتريس جعلت الكوميديا عملا صعب، فيها باب

لما هو فلسفي، ديني، اجتماعي، سياسي، لاهوتي، لكن هذا لا يعني أنه استخدم أياً من هذه الأبواب بشكل حرفي، كان يدور في دوائر ويصنع متاهة يحتاج الخروج منها إلى الكثير من اليقظة، إلى عام 1254 لم يكن المطهر معروفا ولم تعترف به الكنيسة إلا في هذا العام، كانت الأدلة على وجوده قليلة جدا، تم النظر إليه كمكان للتنقية من الذنوب، لكن بالنظر إلى الكوميديا لا يوجد فرق بين الجحيم والمطهر، أنوع العذاب موجودة وقريبة من أنوع الجحيم، الفرق الوحيد أن من هم في المطهر تابوا في لحظة الموت، لكن هذه التوبة ليست كافية وهناك مراحل من العلاج لابد منها، المطهر هو المكان الذي يعيد فيه الناس النظر في ماضيهم، و علينا أن نحذر من الفرق بين تاريخ فكرة التطهير والمطهر كمكان ؛ لأن فكرة التطهير توجد فيها النار كوسيلة للخلاص من الذنوب، أيضا علينا فهم أن الفترة بين الموت والحكم النهائي كانت ملامحها غائبة في الدين المسيحي، الحكم النهائي موجود في سفر الرؤيا أما هذه الفترة فقد كانت ثغرة يجب أن تسد، وكان على أحدهم اختراع مكان ليكون هو ما يسد هذه الثغرة، هذا ما يجعلنا نعترف بأصالة دانتي وعبقريته، لقد أصبح هذا الجزء من الكوميديا أساسيا لفهم فكرة عن موضوع التطهير، لكن دانتي الماكر استغل المسيحية والأفلاطونية لتمرير آراء سياسية وباطنية عميقة، في المطهر تظهر النكهة السياسية بقوة أكثر من العقيدة المسيحية، لهذا شعر بيترو ابن دانتي بالخوف الدائم من أن يكون

في قصيدة والده هرطقة، لهذا أصبح هناك تساؤل حول عقيدة دانتي الباطنية، لنفهم المطهر علينا أن لا نبقى في إطار المسيحية أو هذا الدين أو ذاك، فدانتي يذهب إلى العقيدة الأساسية في كل الديانات، العقيدة المخفية وراء كل هذا التنوع الظاهري، نحن لا نتحدث عن توفيقية سطحية، بل عن وحدة أساسية عميقة تجمع كل الديانات، لهذا يستخدم دانتي كلمات وأسماء ورموز من الإغريقية والرومانية القديمة والإسلام والمسيحية واليهودية، الحلاج مثلا يُنظر إليه في الغرب أنه صاحب إفصاحات متهورة، الباطني الحقيقي عليه التحكم في الإفصاحات المفاجئة، وهذا دليل على نضجه وابتعاده عن دائرة المبتدئين، دانتي كان عضوا في رابطة مقدسة، هذا ما أجمع عليه الكثير من المعلقين على الكوميديا، و هذا الصعود في المطهر جزء من الصعود الهرمي في هذه الرابطة، وهو هنا يدخل في مناطق القبالة اليهودية والباطنية الاسلامية.

في مدارج المطهر السبعة سنلاحظ ونحن نقرأ أنه لا يتأثر جسديا عندما يمر بمدارج الحسد، الكسل، النهم، الشراهة، لا يشعر دانتي بالألم عندما يمر بهذه المدارج، لكنه يشعر بكامل ألم المعذبين بسبب الكبرياء والغضب والشهوة، دانتي في مسارة تؤهله للحصول على التطهر اللازم من أجل هدف، لن يتحرر الإنسان في المطهر إلا من خلال الاعتراف والندم، دانتي يعترف بكبريائه

وسرعة غضبه وشهوته تجاه بياتريس، هناك إشارة أخرى مهمة وهي أن المطهر يمثل الزمن الحاضر الذي فيه العذاب. الجحيم والجنة موضوعة أبدية تمثل الماضي والمستقبل، أما المطهر فهو الشعور بالوقت ومرور الزمن، و الأكثر أهمية من هذا كله هو أن المطهر هو إعادة اكتشاف للعواطف، في ستينيات القرن الثالث عشر سقط المجد الإمبراطوري، كان الصراع الدموي في إيطاليا يفوق أي وصف، الدم كان في الطرقات وعلى الجسور، بعدها جاء الطاعون الذي أخذ حياة الآلاف من البشر، كان الناس يسرقون الطعام ويذهبون للاعتراف بهذه الخطيئة، لم يجد الكهنة الوقت للطعام من كثرة هذه الاعترافات، رؤساء الأحزاب وجحافل القلاع العائلية جعلت بيوت الناس مجرد حطام عاطفي، لم يعد في إيطاليا إلا الفشل وبقايا الخسارة، دانتي كان يعيش المنفى المضاعف، ضاعت مدينته وها هي إيطاليا نفسها تضيع منه، لم يكن له دور، ضائع، وغائب عن ذاته، كان العالم يفلت من دانتي مثل الحلم الجميل، يجلس في الظل وينظر إلى كل هذا الخراب فيشعر أن الظل تحول إلى جحيم، كانت خيبة الأمل تسيطر عليه، حاول معرفة أسباب انهيار الأمل واكتشف أنه الروح المنكوبة، لم يكن لديه حل آخر إلا الكتابة، طريق العودة إلى الذات هو طريق الكتابة، في إطار السيرة يتحرك الشخص الحزين، سرد الحزن مرتبط بالكلام عن الذات، مرتبط بعودة الأمل والمستقبل، دانتي يكتب عن نفسه بكلمات تتعلق بشخص آخر، يحوّل تضاريس

العالم الطبيعي إلى نص عن الروح، يرسم جغرافيا وعيه ويعتبرها وعيَ العالم، و عندما يعود دانتي إلى ذاته لا ينظم حياته فقط، بل ينظم الحياة على أساس القانون الطبيعي، ويستخدم الطبيعة كرموز في هذا الترتيب، الغابة، الحيوانات، النهر، السماوات، ...إلخ، في مرحلة ما من عصر النهضة كان الناس يناقشون حقيقة رؤية النار والجنة في الكوميديا، بعدها أصبحت الصلات بين الكوميديا والتاريخ هي مركز الاهتمام، ثم بعد ذلك انشغل الناس بالبعد الجمالي البعيد عن الدين، و أكثر ما أربك هؤلاء وزاد من حيرتهم هو قول دانتي نفسه أن الكوميديا لها معانٍ متعددة، وهذا ما فتح باباً للتأويل لا ينتهي، وأصبح مصدر دانتي لكتابة الكوميديا موضوع جدل كبير، المطهر هو مركز المتاهة في الكوميديا، فمن ناحية هو نشيد روحي عند البعض ومن ناحية أخرى هو مكان الفن في الكوميديا، نقوش حجرية وجداريات وغناء وشعر غنائي، الأغنية عنصر أساسي في المطهر، الجحيم خالٍ من المظاهر الفنية، لا موسيقا ولا نحت ورسم، هناك رثاء مع موسيقا في المطهر تسير معه بشكل تصاعدي، مائة روح يغنون في صوت واحد، الموسيقا ليست للتسلية، بل للمساعدة في لحظات الصراع التي يمر بها الإنسان مع ذنوبه، أو ربما هي مظهر من مظاهر التطور المخفية تحت رمز الموسيقا، لأن حارس الشاطيء يوبخهم على تمسكهم بملذاتهم في الحياة السابقة، كيف تكون الموسيقا من الملذات وهي موجودة في مكان للتطهر منها؟ربما

لأن الأغنية لم تكن دينية خاف حارس الشاطئ من أن تعيدهم إلى التفكير في الدنيا، و يشير إلى أن هذا ليس الدور الصحيح للموسيقا، هناك أغاني للروح التي لم تتلقَ الطقوس الأخيرة، أغاني للذين لم يفعلوا الخير وقد كان في حدود قدرتهم، و هناك أغاني للروح الحزينة التي أضاعت فرصتها.

توقف والدي عن الكلام، كانت نقطة نقية من زيت الشمعة تصعد مع اللهب إلى الأعلى، أثناء صعودها رسمت هالة على وجه والدي المتعب، كان منتشيا ومتوهجا وجفونه مليئة بسحر دانتي، ومع ذلك أسمع رنين حزنه جيدا في الغرفة، كان لابد من إخراجه من هذه المنطقة الناعمة والمفزعة في نفس الوقت، قلت وأنا أرفع قدميه إلى السرير:هل حديثك عن زواج شيشرون من فتاة كان مجرد صدفة أم أنك أردت به شيئا آخر.ضحك ورد قائلا:نعم أردت أن لا تنسى وعدك، لا يجب أن تكون نهاية الرجل غامضة، لابد من وجود شخص يروي حكاية الوحدة.وضع رأسه وغاب في أحلام يقظة مليئة بكثافة شعرية، الآن أفهم جيدا لماذا كنا نشعر دائما أنه في مكان آخر، الآن أعرف أين هو تماما، إنه هناك حيث الأسئلة التي ليس لها إلا إجابات قاتمة، يجلس في ظل شجرة رمادية مع دانتي، يتحدث عن بنغازي كأنها مدينة من الأساطير القديمة، و عن الحرب التي تجعل فروع شجرة التفاحة الذهبية عارية، عن الصابري الذي نسي في العام الماضي

موعد هجرة الأسماك والطيور، وجدت أن لدي وقتاً قبل موعد وصول جارنا، قررت كتابة رسالة جديدة لبياتريس، ذهبت إلى مكتب والدي الذي يعتبره أغنية داخل هذا الموت الهادئ:

عزيزتي بياتريس

رسالتي الأخيرة ليست أكثر من سحابة حميمية مرت فوق تلال حزني، ليست شكوى، لا لم يكن هذا هو السبب وراء كلماتي، كانت شيئاً يشبه أغنية البعث، محاولة مني لبعث العلاقة التي تخيلت في لحظة أنكِ قد تكونين نسيتِها في لحظة ما، مجرد التفكير في هذا الأمر يجعل الحزن ينبع من وسادتي قبل قلبي، لقد تعلمت الكثير من الزراعة، فهمت جيدا معنى التغيير الجذري في نمط العيش، وكيف أصبحت الزراعة ثورة، وعرفت معنى التجربة والصبر، العلاقة مع النبات تشبه تماما العلاقة مع إنسان حساس وراقٍ جدا، النبات لا يحب الإهمال أو العنف أو القسوة في التعامل، يجب أن تكون لينا وحساسا تجاهه، لا يحب النبات الضوء المشكوك فيه، النبات ليس له عش يعيش فيه، لا يعرف فكرة العودة إلى البيت، فكرة المكان غير واضحة وغامضة بالنسبة له، النبات يتنفس الحرية، يتنفس الحقل المفتوح ولحن هروبه في الخريف، اللون الأحمر وحده يعرف نقطة ضعف النبات، أثناء عملي في المزرعة الصغيرة عرفت أني أصم ولم أسمع الهمهمة الجميلة للنبات قبل هذه التجربة، في هذا المكان الذي

تظهر فيه الحياة كهيكل عظمي بلا جلد ولا قلب، تكون الزراعة شغفا مناسباً لمعارضة الموت، وضع البذرة والانتظار مع الكثير من الاهتمام إلى أن تنبت حياة جديدة، هذا في حد ذاته معجزة يخافها الموت، الآن فقط فهمت شغفك الكامل بالطبيعة، الفرق بين النبات والمعدن مهم، الفرق بين السنابل والسلاح مهم، كل مرة أكون فيها في المزرعة الصغيرة يزيد إعجابي بكِ، في كل مرة ألمس نبتة برفق أحبكِ أكثر، في الأيام الماضية كنت أقرأ كثيرا في أشياء كثيرة، لقد وقع بصري على أمر غريب في مكتبة والدي، اكتشفت أن والدي أيضا يحب خوليو كورتاثار، ربما بسبب وجوده في نفس الفترة التي كان فيها كورتاثار في فرنسا، بالتأكيد سمع عنه أو قرأ له فاهتم به كل هذا الاهتمام، المفارقة يا عزيزتي هو أن هناك صديقة لكورتاثار تسمى أليخاندرا بيزارنيك، شاعرة أرجنتينية ولدت في مدينة أفيلانيدا يوم 29 أبريل 1936، والداها هما إلياس بيزارنيك ورجزل بورمكييه، مهاجران يهوديان من أصل روسي وسلوفاكي وكلاهما تاجر مجوهرات، تم إبادة كل أفراد أسرهم في أوروبا أثناء الحرب، هذا كله شكّل لدى أليخاندرا شعورا بالمنفى والغربة، كانت تعاني من الاكتئاب وحاولت الانتحار، عاشقة للألم والمعاناة، في مراهقتها كانت تعاني من الربو وحب الشباب، فتاة حزينة، إنطوائية، وتشعر بالوحدة، كانت في هذه الفترة عكس أختها مريم تماما، مريم هي مثال الأنوثة، في تلك الفترة في الأرجنتين كان هناك عادات وتقليد لابد من الالتزام بها،

صاغ المجتمع صورة لفتاة من الطبقة المتوسطة، السلوك الجيد، السير بشكل ممتاز في الدراسة، لباس أنيق، خاصة الفساتين من الأقمشة الفاخرة، لغة متعلمة لا وجود فيها لأي كلمة وقحة أو بذيئة، وطبعا لا ننسى فن الطهو وتنفيذ الأعمال المنزلية بطريقة ممتازة «ست بيت يعني»، لكن أليخاندرا كانت تلبس بنطلون جينز وقميص وملابس أخرى غريبة، تدخن سرا غير مكترثة بأنها مريضة بالربو، وعندما تكون مع صديقاتها فهذا يعني كل قاموس الكلمات البذيئة والوقحة، ومع كل هذا كانت ذكية بدرجة مرعبة، ومتفوقة في دراسة الأدب والفلسفة وعلم النفس، إلى درجة أن اسمها بين الأصدقاء هو سارتر، في الجامعة درست في كلية الآداب والفلسفة، وأخذت دروساً في الرسم مع الرسام الأرجنتيني خوان باتل بلاناس، من وجهة نظر أليخاندرا الشعر والرسم شيء واحد، بعد التخرج سافرت إلى باريس واستقرت هناك بين عامي 1960 و1964، أصبحت صديقة لخوليو كورتاثار وأوكتافيو باز، العلاقة بين كورتاثار وأليخاندرا فيها الكثير من الثقة والمودة، وهذه رسالة مؤرخة يوم 9 سبتمبر 1971 من كورتاثار إلى أليخاندرا قبل عام من انتحارها:

هل تدركين حقا معنى ما كتبته لي؟نعم، تدركين، أنا لا أقبلكِ بهذا الشكل، أنا لا أحب أن تكوني هكذا، أريدكِ أن تكوني حية، حمارة، أنا أتحدث إليكِ بلغة الحب والثقة ذاتها، يجب أن

تكوني في صف الحياة وليس الموت، أريد رسالة أخرى منكِ في أقرب وقت، أنا أقبلكِ الآن، فقط أرجوك ابقي على قد الحياة، أنا أحبكِ بصدق أليخاندرا. كلمات كورتاثار لم تكن نافعة فقد انتحرت أليخاندرا في الساعات الأولى من يوم 25 سبتمبر 1972، تركت ورقة بجانبها مكتوب فيها: «لا أريد الذهاب إلى الأسفل»، هذا التشابه بينكِ وبينها مرعب، حتى في قصائدها تعبر عنكِ أنتِ، دائما ما تتحدث عن العالم الميؤوس منه، و الشحنة الكبيرة من العواطف تجاه الليل والصمت والغياب، هذه الكلمات التي تتكرر كثيرا في كلامك، يكفي أن تسمعي الناقد سيزار آير وهو يقول:أليخاندرا لم تكن شاعرة عظيمة فقط، بل كانت أكبر من ذلك، لقد مات معها الشعر. صحيح أنكِ لم تنتحري بطريقتها، لكن الوقوع في الحب مع شخص ياباني يمكن اعتباره انتحاراً بطريقة أبشع بكثير من طريقة أليخاندرا، أنا أمزح حول هذه النقطة، لكن الحقيقة هناك تطابق بينكِ وبينها في الكثير من الأمور، أعلم أنكِ لو قرأتِ هذه الكلمات فردكِ لن يكون أقل من:أنت لست كورتاثار يا حيوان، الحقيقة يا بياتريس أنا أقول كل ذلك لكي أبعد به طيات الحزن من عمق روحي، لأني أحتاج أن أضع جبهتي على جبهتكِ، أحتاج لمسة طويلة من يدكِ الناعمة، أشجار روحي كلها مكسورة يا بياتريس، في صباح اليوم مات أمامي حصان وكلب، كانت الموجة تستيقظ على خطواتهم، رصاصة القناص لم ترحم عدم فهمهما لما يحدث، ياله من مصير

حزين، ياله من حظ يشبه حوضا من ظلام، بكيت من هذا الموت الكئيب، لهذا أحتاج إليكِ الآن أكثر من أي وقت مضى، أرفع يدي كل ليلة للإمساك بنجمة نظرت إليكِ، أرفع يدي إلى القمر الذي يجلس في سكون الريح، فربما نظرتِ أنتِ إليه في لحظة ما، انتظريني يا بياتريس، انتظريني لعل حظي يكون أفضل من حظ الحصان والكلب وأخرج من هذه القلعة السوداء، انتظريني لأن الخروج من هنا لا يعني سوى الاشمئزاز أكثر من هذا العالم إذا لم أجدكِ في انتظاري.

وصل جارنا في الموعد المحدد، كانت معه مفاجأة كبيرة جدا، كمية كبيرة جدا من السجائر والقهوة، عندما سألت من أين حصل عليها، رد بأن لديه مصادره الخاصة، شعر بقلقي من هذا الرد، فقال:لن أكذب عليك هناك رفيق طفولة وصديق عمر قد أصبح عبدا لهم بسبب المال الذي أخذه، الآن هو يدفع الثمن وقد يكون هذا الثمن حياته، هو جارنا وإنسان طيب وبسيط، لكن المال أعمى بصره، الآن هو يساعد سرا كل العائلات التي لم تخرج من الحي، وهذا الأمر قد يكلفه حياته أيضا، لقد تربينا معا وكنا معا في مراحل التعليم الأولى، لكنه لم يتجاوز مرحلة التعليم الإعدادي، لقد تم استغلال حاجته للمال والظهور الذي يستر الشعور بالفشل، الحقيقة أن كل المعلومات التي نقلتها إليك كانت منه، لا أحد يقف بجانب بيتنا ولا أحد يمر من

هناك أساسا، سامحني على عدم البوح لك بسره قبل اليوم، كلامه أربكني وهز ثقتي فيه، لكن في نهاية المطاف أنا أشعر بمسؤولية تجاهه، سألته ما إذا كان قد أخبره عنا أنا ووالدي، فرد بأن مجرد الشك في هذا الأمر يعد طعنا في رجولته وشرفه، أخبرني أن عددهم قد يقل الفترة القادمة، الجرافات بسبب رصد طائرات الجيش لها شبه متوقفة وأن المساعدات بدأت تصلهم في أوقات متباعدة وهذا قد يجعل الأمر كله لا يطول أكثرمن ذلك، و أن هناك صراعا بينهم لأن جزءاً منهم يفرض على الآخرين البيعة بالقوة، بعض الاشتباكات التي سمعناها الفترة الماضية كانت داخل صفوفهم، كان في كلامه الكثير من الأمل، ما كان يقلقني هو دواء والدي فلم يتبقَّ منه سوى القليل ولن يكفي إلا لشهرين على أكثر تقدير، عندما علم بذلك طلب مني علبة فارغة من كل نوع من الأدوية لعله يحصل على المساعدة في هذا الأمر، شعرت أن في هذا الطلب تهورا كبيرا، لكن بعد تفكير لم أجد حلا آخر، لابد من شيء من المغامرة في هذه اللحظة، وعندما أحضرتها أخذها من يدي وقال:أنا آسف مرة أخرى لأني لم أخبرك من البداية، لكن أعدك بحياتي أن لا أحد سيعلم بوجودك هنا تحت أي ظرف، أنا جئت اليوم وفي نيتي أن أخبرك بأني سأرحل من هنا، لدي القدرة على السباحة إلى المنقار أو أبعد، لن أبقى هنا أكثر من ذلك، و إذا لم يقدر لي الموت غرقا ووصلت سالما فأنا لن أعود إلى هنا، لم يعد هذا هو الصابري الذي أعرفه،

ليس هذا هو المكان الذي لم أنم ليلة بعيدا عنه، لقد تغير كثيرا وأصبحت الذكريات فيه مليئة بالأشباح والموتى والشعور بالقهر، سوف أهاجر إلى أقصى مكان في هذه الأرض، أنا ذاهب إلى كندا، لا تسألني عن الكيفية التي سوف أصل بها إلى هذا المكان لأني لا أعرفها، لن يكون الصابري هو الصابري ولن أكون أنا نفس الشخص بعد هذه التجربة المريرة، لا أريد أن أعود إلى هنا، لا، هذا أمر لن يحدث أنا متأكد من ذلك، فجأة هبطت دمعه على خده، كانت مثل وميض هز بركة الليل، رأيت فيها سعف النخيل، وحبات الرمل، رأيت فيها الطفل الذي يلعب على الشاطئ طوال الصيف، ويحمل حقيبة المدرسة طوال الشتاء، الطفل الذي يجري مع الريح كل صباح ليصل قبل الموج، رأيت فيها الفخر بأنه ابن هذا الحي، لكنه فخر مكسور ومهزوم ولم يعد له ذاك البريق، ضممته بكل عواطف الأخوة في قلبي، وبعد دقيقة سألته هل دخنت، هز رأسه بأنه لا لم يفعل، قلت:سوف نجعل من التدخين بعد شهور طويلة حفلا صغيرا، ذهبت لإعداد القهوة وعندما عدت كان قد استعاد بعضا من حيويته وقال:الآن لن أخرج قبل أن يكون لديك هذا الدواء مهما احتاج هذا الأمر من الوقت، إنه والدي أنا أيضا، بل هو والد الحي كله، لن أخرج إلا إذا عرفت أنه سيكون بخير، شكرته وأشعلت السيجارة، كان الأمر غريبا بعض الشيء، كأنها السيجارة الأولى التي دخنتها في حياتي كلها، ضحكنا بسبب هذه الغرابة وتذكرنا الكثير من تفاصيل الصابري ورحل

قبل الفجر بقليل، جلست وحدي في الفناء أنتظر موعد أذان الفجر، فكرت في كل ما قال وفي حجم المخاطرة وفي نهاية الأمر قلت لنفسي:لم يكن هناك خيار آخر، وجودنا هنا مخاطرة كبيرة، وستكون هذه المخاطرة أشد صعوبة بدون دواء والدي، جاء الأذان في موعده من عمارات 602 أو عمارات السبخة لا أدري، كان صوت المؤذن واضحا كالعادة وقريب جدا، فكرت في المسافة بيننا وبين المئذنة، ربما لا تتجاوز الكيلو متر الواحد، لكن هذا صوت كأنه يدخل هنا إلى عالم آخر، الخط الفاصل بيننا وبين عالم المؤذن هو الموت، الحساسية الإنسانية تتطلب الانتباه المستمر إلى هنا والآن، لكن هنا والآن أصبح شظايا وألف قطعة وقطعة من الحزن، الانتباه المستمرهنا يجب أن يكون على المجهول، هذا المجهول يقوض الأساس الصلب لهنا والآن، عندما تكون على مقربة رهيبة من الموت تعمل كل حواسك ضد واقع الحياة، تخلق مكانا دون وقت ودون تاريخ، مكان بدائي وتعيش بروح البدائي، لأنك في اللحظة التي تنزع فيها الشرعية عن الحاضر تتحول الحياة إلى قناع فضي بريء، الخيال يتخلى عن الحاضر في صمت ويبدأ في رسم صور الماضي ويخرج من الغرفة المهدمة، عندما انتهى والدي من الصلاة عاد للنوم، كنت مستلقيا على الفراش وأتسلق جبل المطهر للوصول إلى وجه بياتريس في ليلة مقمرة، نمت قبل أن أصل.

في الصباح كانت القهوة والسيجارة في الفناء نوع من الرفاهية غير المتوقعة، أخذت والدي بعدها إلى الفناء معي، كانت بينه وبين المزرعة الصغيرة كما يسميها حميمية خاصة، كان ينظر إليها كإنجاز عظيم من لا شيء، وبمجرد أن وصل إلى الفناء رائحة السجائر جعلته يطرح الكثير من الأسئلة، أخبرته بكل شيء عن جارنا والدواء وتلك المخاطرة التي قد لا تكون محسوبة، لم يعلق ولو بكلمة عن الموضوع، بل إنه نظر إليَّ وقال:رائحة هذه السجائر تذكرني برائحة لن أنساها أبدا، كنت في إيطاليا في ستينيات القرن الماضي، دخلت السينما لمشاهدة فيلم العذاب والنشوة المأخوذ عن رواية للكاتب إيرفينغ ستون، يحكي الفيلم صراع مايكل أنجلو مع البابا يوليوس الثاني أثناء رسمه للوحات سقف كنيسة السيستين، هذه الزيارة إلى إيطاليا كانت قبل وصولك إلى هذا العالم بأشهر قليلة، كان هناك شخص في المقعد الذي أمامي مباشرة، أشعل سيجارة كان لها رائحة الرخام، كأن الرائحة خرجت من الشاشة وليس من بين شفتيه، أتذكر حتى اللقطة التي مرت فيها هذه الرائحة أمام أنفي، كان مايكل أنجلو يقول وهو يضع يده على الرخام الخام : موسى القادم من سيناء موجود في هذا الرخام، غضب الرب في عينيه، هو على قيد الحياة ينام داخل هذا الحجر، الرب سجنهم هنا والنحات فقط يطلق سراحهم. تصور أنه لم يكن في عائلة مايكل أنجلو فنان واحد، ولد هذا الإنسان المعجزة في عام 1475 بقرية توسكان بمدينة كابريسي،

والده كان عمدة البلدة، في العائلة جنود وقادة أما فنان فلم تخطر الفكرة على بال أي شخص من عائلة بوناروتي، في ستينانو تعلم أساسيات النحت، أولا الحجر العادي ثم الرخام أو حجر النور كما يسميه الإغريق، تعلم اكتشاف عيوب الرخام ليستفيد من أقصى إمكاناته، هذا هو الأساس الذي يتعلمه الطالب، عمله الأول كان نحتا غائرا تمثال سماه مادونا الدرج، كان فقط في الخامسة عشر من عمره لكن الرخام لم يصمد أمامه، الرخام بين يديه لينا مثل الشمع وشفاف مثل المرمر، بعدها لم تتوقف الأعمال العظيمة، رفض مايكل أنجلو الرسم بشدة، سقف السيستين هو عمل فنان لم يرغب أبدا في ممارسة الرسم، لقد صرخ في وجه البابا يوليوس الثاني عندما طلب منه تزيين سقف كنيسة السيستين:أنا نحات ولست رساما، لكن البابا لم يترك له خيارا، لقد كان متغطرسا ودمويا ونرجسيا، وطلب رسم الحواريين الاثنى عشر على السقف، وتزيين القبة بالرسم المناسب، بالنسبة لمايكل أنجلو كان القيام بهذا العمل بمثابة الدخول إلى الجحيم، لكن تيسينا من عائلة لورنزو الذي يعتبره مايكل والده الثاني قالت:اعتبره المطهر وليس الجحيم، أقنعته تيسينا بالبقاء بدل الهرب إلى القسطنطينية وعدم العودة إلى وطنه أبدا، بعد الانتهاء من العمل يذهب إلى الحانات بحثا عن وجوه تصلح لأن تجسد وجوه الحواريين، يقوم بعمل السيكتش أثناء الشراب، لكنه في لحظة يأس يتوقف عن العمل ويهرب إلى الجبال ويأمر البابا بالقبض عليه وإعدامه، يقف على

حافة الجبل فيرى الشمس وهي تشرق، شمس المطهر ظهرت أمامه فجأة، لقد وجد الإلهام الذي كان يبحث عنه، أقنع البابا بأن فكرته لسقف الكنيسة لم يكن فيها أي فن وعرض عليه التصاميم الجديدة، قبل البابا وعندما سأله أحد رجاله أن هذا ليس ما كان يخطط له قال:أنا أريد تزيين سقف وهو أراد عمل معجزة لهذا وافقت.لقد أصبح هذا السقف هو أشهر أعمال مايكل أنجلو، الرسم الذي رفضه أعظم نحات عرفته البشرية هو ما جعله أشهر فنان في ذلك العصر، كل القصة بسبب قصيدة كتبها مايكل أنجلو، في هذه القصيدة قام بهجاء البابا ووصفه بالمسيح الدجال، وكان عقاب البابا هو جدارية سقف السيستين، الكثير من الناس لا يعرفون مايكل أنجلو الشاعر، أو النحات المعذب بسبب الألم الإنساني، لقد قضى مايكل أنجلو آخر إحدى عشرة سنة من حياته في نحت آخر أعماله وهو روندانيتي بحث فيه عن أعمق علامات المعاناة داخل الروح الإنسانية، وجد دانتي أن النحت أو الرسم لم يكن كافيا لتصوير عذاب الإنسانية فكتب الشعر، لقد أكد العديد من النقاد على عظمة شعره، الذي قد لا يكون مفهوما بالنسبة لنا اليوم، لقد حاول إليوت ترجمة هذا الشعر وفشل، حاول بعده ريلكه وفشل، وردززورث، ايمرسون، لونغفيلو، سانتايانا، كلهم فشلوا واعترفوا بأن شعر مايكل أنجلو هو الأصعب على الإطلاق، وفي النهاية ترجم كلماته جون أدينغتون سيموندز وبعدها ترجمت إلى العديد من اللغات.

في شعر مايكل أنجلو لدينا دائرة مكوّنة من دانتي، بترارك، الكتاب المقدس، سافونارولا، وتجربة الشاعر نفسه، لا يمكن فهم وحل ألغازجدارية سقف السيستين إذا لم نقرأ الكوميديا الإلهية، كان هذا السقف خطاً فاصلاً بين العصور القديمة التي سيطر فيها شبح الانحطاط وبين العصور الكلاسيكية وعصر الإنسانيين، مايكل أنجلو أوضح في جدارية سقف السيستين كيفية التعامل مع الماضي، الإنسان الحديث يجب أن لا يتعامل كقرد مقلد مع الماضي، بل كالابن الذي يحترم أباه ويأخذ صفاته الجيدة، مايكل أنجلو في شعره يستحوذ على معنى الكوميديا الإلهية، و يصف هو نفسه دانتي بالمعلم العظيم، وكتب بعض القصائد له مباشرة، هناك تشابه لفظي واضح في الكثير من القصائد، ترك مايكل أنجلو أكثر من ثلاثمائة قصيدة ولم يفكر في النشر في حياته، ولم تنشر هذه القصائد إلا على يد ابن أخيه عام 1623، ولم تخرج هذه القصائد بشكل مرتب زمنيا ويظهر فيها أسلوب الشاعر إلا في عام 1863، كان مايكل قد كتب الكثير قبل هذه القصائد إلا أنه كان يدمر كل ما كتبه، عاش في لحظات صعبة مثل العصر المأساوي للبابا يوليوس الثاني، حصار فلورنسا، والحرب، ما يهم هو أن مايكل أنجلو صنع متاهة بفنه وشعره تشبه تماما متاهة دانتي الشعرية في الكوميديا الإلهية، لقد انتقد يوليوس الثاني والفاتيكان في وسط الفاتيكان، سقف السيستين منحه الفرصة التي يبحث عنها، لقد وضع فيها بفنه كل الرسائل التي أرد

أن يوصلها إلى الناس، أربع سنوات من الاستعباد وهو معلق في السقف، رد عليها مايكل أنجلو بمجموعة كاملة من الأسرار في الجدارية، في المنطقة التي يطلق عليها الوجه الشرير، نرى النبي ينظر بحزن وغضب إلى حيث يجلس البابا على عرشه الفخم تحت مظلة ملكية، كان إرميا قد حذر من الكهنة الفاسدين أمثال يوليوس الثاني، نرى في خلفية المشهد شاب وشابة يبتعدان عن الكنيسة، كان الشاب يلبس ملابس لونها ذهبي والفتاة تلبس ملابس لونها أحمر، و إرميا يلبس ملابس لونها ذهبي وأحمر، إرميا لم يكتب فقط كتاب النبوءات بل كتب كتاباً آخر كله رثاء لتدمير القدس على يد البابليين، كتاباً حزيناً فيه تفاصيل شنيعة عن هذا الدمار، يشير مايكل أنجلو بشكل ماكر إلى هدم الدين والكنيسة على يد هؤلاء الكهنة والباباوات المفسدين لكل شيء، كان الفنان قريبا من التشابه الواضح بين الكنيسة والقيصر، لقد أصبح الفاتيكان مكان الفساد والجشع والمحسوبية والحرب، وقد تم نسيان الفقراء والمحتاجين تماما، لم يكن شعر مايكل أنجلو يخلو من نفس الرسائل السرية، تم تفسير شعر دانتي ومايكل أنجلو كنوع من الحب الأفلاطوني، أما دانتي فهو يخاف من الأصل الحسي للحب فيهرب إلى حب روحي، وهذا بسبب تعقيد الكوميديا وما فيها من أسرار، وتم تفسير أشعار مايكل أنجلو على أساس الحب الأفلاطوني للذكور، وهذا بسبب ما في شعره من غموض، هذه تفاهة وتطرف لا يمكن قبوله، إنها نكتة تشبه

النكتة الخاصة بلحية ليوناردو دفنشي، دائما عندما يصعب التأويل يذهب البعض إلى مثل هذه التفسيرات المتطرفة لخلق أسطورة من لا شيء، تأثير دانتي على مايكل أنجلو واضح في لوحاته وشعره، وتأثير سافونارولا على مايكل أنجلو واضح، سافونارولا الذي عاش في فلورنسا لكنه تركها بسبب سخرية الناس على طريقته في الكلام ولهجته الغريبةلقد وصفه بعضهم بالخطيب البائس والضعيف، رحل عنها في عام 1487 إلى بولونيا، وهناك عمل بجد على مهارات الخطابة ثم عاد إلى فلورنسا عام 1490، عندما خطب في قداس يوم الأحد أذهل الناس، ليس فقط بسبب مهارته في الخطابة ولكن بهجومه الشرس على الباباوات الفاسدين الذين سيكونون أول من يدخل الجحيم، و الأثرياء وكل من تعامل بالربا وقال:الثروة والأرستقراطية دمرت الديانة المسيحية، هذه ليست فلورنسا، هذه عرين اللصوص، ورد عليه البابا قائلا:آه! الراهب الصغير المسكين.أليس ما يقوله سافونارولا هو نفسه ما يقوله دانتي في الكوميديا الإلهية بشكل أدبي، ويقوله مايكل أنجلو على سقف السيستين بشكل فني، كان مايكل أنجلو يداوم على حضور خطب الراهب الزاهد والشرس سافونارولا، و يقرأ الكوميديا بل يحفظ اجزاء كثيرة منها، فهل من المستغرب أن يكون هو من دق في الحكم الأخير مع دانتي وسافونارولا أول مسمار في نعش عصر النهضة؟

أحيانا أشعر أن والدي أحد الناجين من العصور القديمة، أحد الذين عاشوا بين اللوحات والمخطوطات القديمة، بين الأباطرة والفنانين، وهو من خلال فتحة في الزمن استطاع القدوم إلى عصرنا، شعره الأبيض ولحيته الرماديه تجعلك تبحث عنه في لوحات مايكل أنجلو، إضافة إلى ذلك هذا الأنف الرهيب الذي يشم رائحة كل شيء وأي شيء، يتشابه والدي وبياتريس في هذا الموضوع، هي أيضا لها أنف يعمل منذ قرون ويعرف روائح العالم، قبل بياتريس كنت أتصور أن المتعة الحسية هي أساس المتعة الجمالية، و أن المتعة البصرية نفسها لن تكون ممتعة إلا إذا ارتبطت في ذاكرتنا بتجارب حسية، لكن هي تفهم الأمر بشكل مختلف قليلا وهو أن التجربة الجمالية تشارك فيها كل الحواس، و تتطلب معرفة سابقة، أما والدي الذي يوسع الموضوع فهو يرى أن حاسة الشم القوية نوع من الرفاهية، حاسة الشم الضعيفة تجعل العالم فقيرا بشكل جذري، أنا وبياتريس كنا في صراع حول الشم واللمس، ودائما ما كانت تردد أمامي أن الشم هو لمس في الحقيقة لهذا نقول هذه رائحة باردة وهذه رائحة ساخنة، و أنا أرد عليها بأن اللمس يعزز الثقة ويزيد من الإحساس بالملكية، تعتمد تجربة شرب النبيذ على الشم في البداية، لكن هذه التجربة ناقصة إذا لم تشرب النبيذ، دائما ما تقول أشياء مربكة وغريبة، مثل شممت رائحة يدك على الكتاب، رائحتك في كل مكان في الشقة، وليس للموضوع علاقة بالعطور أبدا، أنا لا أستخدمها فهي

تسبب لي الدوار والغثيان، الأمر يتعلق برائحة أساسية، تُمسك بالأشياء وتشمها بقوة، كل الأشياء لها رائحة في ذاكرة بياتريس حتى الحزن والدموع لها رائحة تعرفها جيدا، بليني قال:متعة العطور هي المتعة الأكثر أناقة وهي متعة الشرفاء في هذه الحياة، اليوم قد يكون الحديث عن حفل عشاء معطر أو حفل معطر قد يبدو سخيفا، أما في العالم القديم فقد كانت عروض المسرح لها روائح وعطور، حتى الأحداث الرياضة والجنازات لها عطورها الخاصة، الروائح جزء مهم من العالم القديم مرتبط بالآلهة والشعور بالشباب والنعمة، عندما قلت لبياتريس إني في منتصف العمر قالت:الزهور تعطي أقوى رائحة لديها في منتصف عمرها، كل شيء لديها مرتبط بالرائحة، ربما كانت تفهم الأشياء من خلال رائحتها وليس شكلها أو ملمسها، في أحيان كثيرة أستغرب حديث والدي أو بياتريس عن رائحة شمها أو شمتها منذ عشرات السنين، لكن والدي يرى أن الحياة كلها بحث عن روائح مفقودة، ربما كان يبحث عن أمي في رائحة كل شيء يقترب منه، مرة قال : إن رائحة الإنسان في الذاكرة أجمل بكثير، هناك عطور يجب أن تشمها من بعيد، المسافة هي ما يعطيها قوتها وسحرها، الاقتراب منها يضعف رائحتها، لكن إذا تعلق الأمر ببياتريس فالأمر مرعب، عندما تمر بها امرأة في الطريق أو تجلس بجانبها في مطعم أو مقهى وتهمس في أذني:هذه المرأة في وقت دورتها الشهرية، أو أن هذا الشخص مارس الجنس ولم يستحم، فهذا الأمر غريب

ومضحك ومفزع، كنت أنظر إلى أنفها الجميل وأقول في نفسي ربما للأمر علاقة بشكل الأنف، لكن أنف والدي لا يشبه أنف بياتريس ومع ذلك هو قادر على شم رائحة التجارب السيئة التي مر بها في حياته، بلوتارخ يرى أن العطور لها القدرة على تخفيف القلق وشفاء الروح، لكن مع الوقت أخذت العطور شكلا اجتماعيا مختلفا تماما، أصبحت هناك عطور شعبية وعطور برجوازية، تحوّل العطر لعلامة أو إشارة إلى الطبقة التي تنتمي إليها، تجار العطور القدماء كانوا يحتفظون بالعطور في مزهريات من الرخام، لتكون مسجونة مثل موسى مايكل أنجلو، الرخام يمنع العطر من التبخر ويمنح التاريخ عطره الخاص.

بقدر ما كنت أستغرب هذه العاطفة لدى بياتريس تجاه الروائح، أفكر فيها بنفس هذه العاطفة الآن، عندما أنظر إلى صورة من صورها في هاتفي أتذكر رائحتها عندما أشعل سيجارة أتذكر رائحة سجائرها، أتذكر رائحة الشقة وخزانة ملابسها، كان والدي على حق، المسافة تجعل الرائحة أقوى وأكثر حميمية، تتسرب الآن رائحتها في كل شيء من حولي، هذه الرائحة تقاوم رائحة الحرائق، رائحة الجثث، رائحة الموت، لقد كتب بروست رواية من عدد ضخم من الصفحات الأساس فيها هو رائحة المادلين المغموسة في الشاي، الذاكرة لديها علاقة فريدة من نوعها مع الذاكرة، أتذكر الآن الرائحة التي كنت أشمها وهي بجانبي تقرأ

كتابا أو تكتب بعض ملاحظاتها، رائحة ثيابها المرمية في كل مكان في الشقة الصغيرة، رائحة يدها كانت أقوى من كل عطور العالم، الآن في هذه اللحظة أشم رائحة يدها الجميلة، تذكر الرائحة هو تحريض على تذكر كامل الحدث المرتبط بها، في كل الأدب هناك طوفان من الصور المرئية، بل إن الروائح بالكاد مذكورة في كتب أكبر الأدباء، وهذا ينطبق على رواية البحث عن الزمن المفقود لبروست، أنا الآن لا أشم رائحتها مرة في اليوم، أشم رائحتها بشكل متواصل، لا أستطيع وصف الأفكار والعواطف التي أشعر بها وأنا أستنشق رائحتها في كل شيء من حولي، عندما تحدث والدي عن رائحة السيجارة وارتباطها بفيلم العذاب والنشوة، تذكرت كيف كانت تمسك المنديل الورقي وتشم رائحته بعد أن أكون قد استخدمته في مسح يدي، وأنا أصبحت أفعل الشيء نفسه لأشم رائحة يديها، رائحة يديها لها جمال حزين وخافِت، الرائحة ليس لها صدى لهذا أنت لا تتذكرها بل تشمها فعلا، إنها البساط السحري الذي يأخذك إلى لحظة من حياتك فريدة واستثنائية، رائحة يد بياتريس تشبه رائحة قلوب الملائكة والقديسين والصوفية، يقال أن الملحن الكبير ريتشارد فاغنر عندما تم نفيه لم يجد أبدا البقسماط الذي كان يتناوله في الصباح وهذا ما تسبب في توقفه عن التلحين لفترة طويلة، وبعد وصول شحنة من هذا البقسماط إليه في منفاه عاد للتلحين مرة أخرى، رائحة هذا البقسماط كانت تثير ذكرياته وإحساسه الإبداعي،

وهذا كان قبل مادلين بروست بزمن طويل، أنا أشم رائحة بياتريس في كل شيء، حتى في كلمات والدي أشم رائحتها، أتذكر الآن وجهها عندما تشم رائحة القهوة، أو رائحة دخان سيجارتي، تبتسم ابتسامة كبيرة جدا وتقول:رائحة هذه السيجارة تجعل رائحة يدك أجمل. الرائحة تتحلل في الذاكرة بشكل بطيء جدا عكس الصور والكلمات، وهذا ما يعطيني بعض الأمل في أن بياتريس لن تنساني بسرعة، ربما ذكرها شيء ما بالرائحة التي كانت تشمها وأنا معها، خاصة وأنها قد قالت مرة:أنت لا تضع أي عطر وهذا ما يجعل رائحتك أساسية جدا وغير قابلة للنسيان أو الاختلاط برائحة أخرى، لم أتوقع هذا الحب يا بياتريس صدقيني، لم أتوقع أن أنجرف نحوكِ بهذه الطريقة المجنونة، كنت بعيدا جدا عن هذه البقعة من العذاب والنشوة، أخاف من التعلّق بأي شيء أو إنسان، الآن وأنا وسط هذه الحرب والدمار والموت أجد نفسي متعلّقاً برائحة إنسان قد لا أمر في ذاكرته إلا في صورة شبح من الماضي، لا أعتقد أن هناك ما يلزمكِ بانتظاري أو حتى متابعة أخباري، الصداقة في العالم الذي نعيش فيه أصبحت خيطا رفيعا جدا يمتد عبر مواقع التواصل الاجتماعي، إغلاق صفحتك يعني نهاية الصداقة، الذنب ليس ذنبكِ إذا كنت قد أحببتكِ، لا ليس لكِ أي دخل في هذه العواطف تجاهكِ، بل إنك لم تفعلي أي فعل قد يجعلني أحبكِ إلى هذه الدرجة، دائما ما كنتِ تحافظين على هذه المسافة الرمادية بيننا، لكن هذه المسافة جعلت رائحة

حبكِ أقوى بكثير ولا يمكن مقاومتها. في لحظة ما اعتبرت هذا السجن الطوعي فرصة للتخلص من هذا الحب، لكن ما حدث هو العكس تماما، لم يتآكل الحب بمرور الوقت أو بعد المسافة التي بيننا، لم يتآكل بسبب عدم وجود أي اتصال من أي نوع بيننا، صورتكِ لا تفارقني ورائحة المنديل الورقي لا تفارق أنفي، كلماتكِ، حركاتكِ، ملمس أصابعكِ لا يفارق روحي ولو لحظة واحدة، كل هذه الحرب ورعبها لا تصمد لحظة واحدة أمام ذكرى واحدة من ذكرياتنا معا.

مرت الأيام ووالدي يتحدث عن المطهر، وأنا أسجل كل كلمة وبعدها أغلق النقال إلى الجلسة القادمة، والدي هذا الفائض الحزين لجمال الأدب، عجوز من الصابري نصفه عاش في النسيان والنصف الآخر تحوّل إلى أسطورة، يتحدث عن دانتي ويمر من أمامي كتيار قوي لنهر كبير، طعن نفسه بالعزلة وجلس كبطل نبيل في حكاية سحرية ينتظر الربيع الأكثر غنائية، في كل مرة أنظر فيها إليه أسمع الطنين الذي لا يتوقف في قلبه، وأرَى سرب الكلمات الذي يجمعه بعيون ذابلة، كم يتمنى أن يعيق مسار هذه المدينة إلى الخراب ولو بكلمة، كم يتمنى لو يستطيع السيطرة على حزنه والعبور من طريق الحداد بسلام، الأيام تمر وهو يجعل من فرحي بدانتي مصدرا لتعزية نفسه من حجم الخسارة، في هذا الوادي الكئيب الذي يسمى الصابري، هذا المكان الذي

أصبحت الحياة فيه غشاء نحيفا جدا لا يحمي من التعاسة، هو وحده يحاول إيقاظ قطيع الأحلام النائمة، لماذا لم يهرب منذ زمن طويل إلى بلدة صغيرة في نهاية العالم، ربما في كندا كما يحب جارنا أن يسمي آخر مكان في العالم، بلدة صغيرة يشرب فيها عصير الكرز، يلمس الأشجار والصخور الباردة، يسبح عاريا في البركة ويمشي في الغابة إلى أن يسقط مغشيا عليه، ليس لديه هنا إلا نحن وحب هذا الوطن الذي سقط بطريقة خاطئة وحطم كل شيء، الأنشودة بعد الأنشودة، و والدي يتعب ونتوقف لفترة، ثم يعود للحديث عن دانتي والأدب، كأن والدي لن يكون إلا غريبا إلى الأبد، لا يسأل عن شيء ولا يتقن الوعظ، أحيانا أشعر أنه يتلقى دعوة غير مرئية للعيش في زمن آخر، عصر آخر، مع الذين يكتبون على جسر ضيق، يستمتعون بضوء القمر والبكاء والوحدة، أنا لدي مزرعة في الفناء، وهو لديه مزرعة في عقلي وقلبي، هناك شيء مسكر في الزراعة، أنا الرجل البدائي الذي كل همه المأوى والغذاء، تعلمت أنه من خلال التعامل مع النبات تعرف كم هي الحياة مرنة، خفية، هشة، وأحيانا تكون لا جيدة ولا سيئة، بل مجرد حياة فقط، لا يمكن ترك هذه الحياة في منتصف الطريق، لابد من محاولة التمسك بها ولو كان من باب المجاملة، دانتي يقول على لسان والدي:بدا لي في الحلم أني أرى نسرا معلقا في السماء برياش من ذهب، وذا جناحين مفتوحين ويوشك أن يهبط * وتراءى لي أني كنت حيث تخلى جانيميد عن

قومه، حين رفع إلى المجمع الأعلى * وقلت لنفسي : ربما اعتاد الصيد هنا فحسب، وربما يأنف أن يحمل بمخالبه – ومن غير هذا المكان– فريسة إلى أعلى* ثم بدا لي أنه دار قليلا ثم هبط كالبرق رهيبا، واختطفني صاعدا بي حتى منطقة من النار*وهناك تراءى لي كأن كلينا احترق، وشواني الحريق الذي تخيلته، حتى لم يكن بد من أن ينقطع نومي.هناك ثلاثة أحلام في المطهر عليك أن تنتبه إليها جيدا، هذا الحلم الذي وصلنا إليه الآن والحلم الثاني في الأنشودة التاسعة عشرة يقول فيه دانتي: تراءت لي في الحلم امرأة متلعثمة اللسان حولاء العينين، وتبدت ملتوية على قدميها، مبتورة اليدين، شاحبة اللون*فأخذتُ أنظر إليها، وكما تبعث الشمس الدفء في الأطراف الباردة التي يثقل عليها الليل، هكذا انطلق بنظرتي*لسانها، ثم انتصبت قامتها في برهة، واكتسى وجهها الشاحب باللون الذي تتطلبه المحبة*و حينما حلت عقدة لسانها على ذلك النحو شرعت تغني، حتى كان من العسير عليَّ أن أحوّل انتباهي عنها*وغنت قائلة:إنني عروس البحر الفاتنة التي أضل الملّاحين في عرض البحر، وإني لمفعمة باللذة التي أبعثها فيمن يصغي إليّ*ولقد اجتذبت بغنائي أوليسيس الهائم في رحلته، وإن من يألف معايشتي يندر عني ارتحاله ؛ إذ أرضي كافة رغائبه*ولم تكن قد أغلقت بعد فاها، عندما مثلت إلى جانبي سيدة مباركة، متحفزة لكي تُدخل الاضطراب في روعها*وقالت وقد علاها الازدراء:فرجيليو يا فرجيليو، هذه المرأة من تكون؟ فأقبل

هو بعينين مثبتتين على تلك الأمينة فحسب*وأمسك بالأخرى، وعراها من الأمام بشق ملابسها، وكشف لي عن باطنها، فأيقظتني كريه الروائح التي فاحت منها.أما الحلم الثالث فهو في الأنشودة السابعة والعشرين، أنا لم أعد أذكره حرفيا، أذهب إلى الأنشودة وأقرأ الحلم، قرأت قائلا:تراءى لي في الحلم أني أنظر غادة في مقتبل العمر جميلة، تسير في روضة وتقطف من أزهارها، وأخذت تترنم قائلة:فليعلم كل من يسأل عن اسمي أني أنا ليئة، وأنني أسير جائلة بيدي الجميلتين فيما حولي، لكي أصنع لنفسي إكليلا من الزهر*ولكي أبتهج أمام مرآتي، فإنني هاهنا أتزين، لكن راحيل شقيقتي لا تفارق مرآتها أبدا، حيث تجلس قبالتها طيلة النهار*وإنها بالنظر إلى عينيها الجميلتين ولوعة، كولعي بأن أزين نفسي بيدي، وهي ترضى بالنظر أما أنا فبالعمل.

لابد أن تعلم أن مايكل أنجلو نحت تمثالا لليئة رمز الحياة العملية، وتمثالا آخر لراحيل رمز الحياة التأملية، وجعل مكانها إلى جانب تمثال موسى الغاضب على شعبه، في الضريح الذي أقامه للبابا يوليوس الثاني في كنيسة سان بيترو إن فنكولى الموجود في روما، أما ما يخص الأحلام، فهناك من قال إن الأحلام في المطهر هي رؤى تكرر درجة التطهير التي حققها دانتي خلال اليوم، وخلال الليل يمتد هذا التطهير إلى العالم الخيالي، وهذا ما يساعد دانتي ليكون خياله مستعدا للتغلب على الأوهام، والبعض

نظر إليها على أساس أنها عملية تحضير لدانتي والقارئ لمتابعة الأحداث، هناك قول آخر يرى أن الأحلام الثلاثة هي تحرير لدانتي من صلاته مع العالم المادي، بما في ذلك جسده، ومن خلال الأحلام أصبح أبعد ما يكون عن طبيعته البشرية، و أخيرا هناك قول بأن هذه الأحلام ما هي إلا تخلص دانتي من كل شيء يقف بينه وبين بياتريس، لكن هذه الأقوال كلها تخضع لكلام القديس أوغسطين المتعلقة بالرؤية، و لا نجد فيها إجابة عن السؤال:لماذا هؤلاء الأشخاص بالذات؟لماذا النسر، ليئة، رحيل، عروس البحر؟كل التفسيرات السابقة لاهوتية بحتة لا علاقة لها بالأدب، ليس من قبيل الصدفة أن يكون الحلم الأول قبل دخول المطهر، هناك تطهير شخصي في الأحلام الثلاثة، تطهير من كل الرذائل الشخصية، من الخوف من الحب، من القلق أثناء السفر إلى بياتريس، لا يمكن قبول التفسيرات حول حلم صعود النسر، على أنه الاتحاد مع المسيح والنشوة التأملية بسبب هذا الاتحاد، الحلم في المطهر هو الربط بين الواقع والخيال، دانتي في المتاهة يبحث عن حب بلا خطأ، الأحلام كانت بسبب الحديث عن الحب والإرادة الحرة، هناك تناقض مقلق في هذه المقولة، هناك تناقض بين فعل الحب والإرادة الحرة، هناك الغرور، الإغواء، التناقضات الإنسانية، الأحلام هي تصادم الحب مع الإرادة الحرة، عندما يصل دانتي إلى بياتريس فهذا يعني أنه تحرر من إرادته الحرة، هذه الإرادة هي جدار النار الذي يفصله

عن بياتريس، وجود المرأة في الأحلام الثلاثة له معنى خاص، ثم في الإطار المنطقي كيف تكون ليئة ضعيفة البصر هو رمز الحياة العملية بينما رحيل المبصرة هو رمز الحياة التأملية، هذا عكس القصة الواقعية تماما، راحيل كانت ترعى غنم أبيها لابان، وتقوم بكل العمل، كيف أصبحت ليئة هي رمز الحياة العملية، إنه التناقض بين الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية، الإنسان ضعيف البصيرة المرتبط بالعمل لابد أن يقع في الأخطاء البشرية، آدم في الجنة وقع في الخطأ البشري ولن تتوقف البشرية عن تكرار هذا الخطأ، لن يكون هناك اتحاد بين طبيعتين متناقضتين، الكوميديا لا تقوم على العقيدة اللاهوتية، بل تضرب هذه العقيدة في الصميم من خلال الأحلام الثلاثة في المطهر، دانتي لم يتخلص من جسده ولا بشريته أثناء الرحلة، والحديث عن الاتحاد مع جسد المسيح مجرد تأويل مفروض على الكوميديا من الخارج، تأويل يتناقض وينتهك مبدأ أرسطو الذي يقول بعدم قبول أن يكون الشيء هو نقيضه في نفس الوقت، تفسير النسر بأنه المسيح والصعود هو انفصال عن الجسد هو عكس معنى الحلم تماما، دانتي يحترق في الحلم ويعود إلى طبيعته البشرية، إنها لحظة من النشوة تنتهي بسرعة لأنها مرفوضة، إنها ليست نبوءة كما يعتقد، بل الحلم هو تحطيم لهذه النبوءة، المرأة المشوهة والقبيحة هي الحياة، جميلة في بعض الأحيان وقبيحة في أحيان أخرى، أما ليئة فهي الطبيعة البشرية وراحيل هي الطبيعة الإلهية وهما مبدأ أرسطو،

وهذه الأحلام كلها في الصباح، و المعروف في كل الديانات أن الأحلام الصباحية لا علاقة لها بالرؤية، الرؤية لها أوقات محددة، أحلام دانتي الثلاثة كان يسبقها كلام فيرجيل عن الإرادة الحرة، عن قدرة الإنسان على اختيار مساراته وسط هذه المتاهة، ليس من السهل أبدا أن يعيش الإنسان التناقض بين الإرادة الحرة والحب، وهذا هو جمال الحب وانتصاره العظيم.

نام والدي وأنا جالس في الفناء أدخن وأفكر في كل كلمة قالها، الحياة، ما هي الحياة؟الأخطاء، التردد، الخسارة، الانتظار، فشل الانتظار، الأخطاء وهكذا، تفاصيل كثيرة تكوّن لعبة فردية، ليس هناك صورة مثالية للحياة أو نموذج يجب أن نصل إليه، الحياة هي السير في المتاهة على أمل أن تكون أسهل في المراحل المتقدمة، لكن هذا لا يحدث أبدا، المتاهة تزداد تعقيدا مع مرور الوقت، تعيش وفي عيونك ظل لا يراه أحد غيرك، ظل حزين وبدونه تشعر أن عينيك مكان بارد، الحياة تشبه الفصول في فيلم الأمواج المتكسرة للمخرج لارس فون تريير، الفصل الأول بيس تتزوج يان، الفصل الثاني الحياة مع يان، الفصل الثالث الحياة وحيدة، الفصل الرابع مرض يان، الفصل الخامس شك، الفصل السادس إخلاص، الفصل السابع تضحية بيس، الفصل الثامن الجنازة، هذه هي فصول الحياة، إنها بسيطة جدا، ومعقدة إلى درجة الموت، إنها حرب ضد الملل، الملل، تم اكتشاف

هذه الكلمة في الأدب عام 1786، كتبها كارلايل قائلا:الذين يشعرون بالملل من هؤلاء الفرنسيين، وكلمة الحزن لم توضع في القاموس إلا قبل 147 سنة فقط، لم يتوقع أحد أن العالم الغربي سيشعر بالملل والحزن، لم تدخل هذه الكلمات إلى القاموس إلا بعد أن عرف معظم الناس في الغرب الملل والحزن، لكن العالم الشرقي خلق من الملل وحزين إلى الأبد، يقال أن الكاتب يوكيو ميشيما في يوم 25 نوفمبر 1970، حلق ذقنه بعناية شديدة وبطء غير مسبوق. عندما تقرر مقابلة الموت يجب أن يكون وجهك ناعما وخاليا من العيوب، استحم وارتدى الفوندوشي أو الملابس الداخلية المصنوعة من القطن الطازج، يتم لفها حول مكان الكليتين تماما، ثم ارتدى ثيابه التي تسمى تاتينوكاي وهي ملابس المحاربين الذين كرّسوا حياتهم للتقاليد اليابانية وتكريم الإمبراطور، ميشيما ليس فقط أحدهم، بل هو قائدهم ومعلمهم، كانت زوجته قد خرجت من البيت ومعها الأولاد في طريقها إلى المدرسة، يوكيو وحده في البيت الكبير الذي تم بناؤه على الطراز الغربي، يقع البيت في الضواحي الغربية لمدينة طوكيو، كان يوكيو قبل فترة قصيرة قد نشر كتابه اعترافات قناع، كتاب مرعب ووحشي لكن حميم وقريب إلى القلب، عاش يوكيو حياة غريبة مع جدته التي كانت تنتمي إلى طبقة الساموراي، الجدة تعلمه كيف يكون متكبرا قدر الإمكان، تمنعه من اللعب مع الأطفال، و لا يخرج إلى الشارع أبدا، قضى معظم وقته في القراءة، وأحب شخصية

البطل المأساوي في الحكايات الشعبية، في الثانية عشرة كان مريضا بفقر الدم، شاحب، ودائما ما يتعرض لنوبات عاطفية قوية تم تشخيصها على أنها تسمم ذاتي، كان مفتونا بالموت لأن فيه الكثير من العنف والشهوانية، وقع في حب الأدب الياباني في العصور الوسطى، و أحب كل الروايات التي تتحدث عن الموت، مثل بروج مدينة الموتي، انتصار الموت، ربما كان يوكيو يتذكر كل هذه الأشياء وهو يضع مغلف كبير فيه مخطوط رباعية بحر الخصوبة وهي آخر ما كتبه، قام بمكالمة هاتفية سريعة، كان أحد الطلبة ويدعى تشيبي كوجا قد وصل إلى الباب الأمامي، خرج إليه سلمه ثلاثة مغلفات مكتوب عليها أسماء المرسلة إليهم، دخل وأخذ كل ممتلكاته الشخصية ووضع سيف الساموراي على جنبه الأيسر وخرج، أخذته سيارة تويتا كرونا كانت واقفة بيعدا عن منزله، وضع يوكيو مبلغاً من المال في ظرف وسلمه لأحد الطلبة الموجودين معه في السيارة من أجل المصاريف، وصل يوكيو ومعه أربعة طلبة إلى مدرسة الدفاع عن النفس، تم الاتصال بقائد الجيش الشرقي وإعلامه بالأمر، كقومي متعصب وماركسي كان يوكيو مثيرا للقلاقل، بل وكان أحد عناصر انقلاب فاشل، لقد مل من التظاهر بالامتثال للمجتمع أو أن يصبح عبدا هاربا، و الحياة كالمنبوذ اجتماعيا، وهذا كله بسبب أعماله ومواقفه السياسية، كان على خلاف مع المجتمع وكل القواعد الاجتماعية، كان تحت قناع يوكيو الحساس والضعيف وحش لا يمكن السيطرة عليه.

وقف يوكيو في وسط المكتب، قام الطلبة بتجريده من ملابسه، كان الجنرال يطلب منه التوقف، لكنه استمر في خلع ملابسه العلوية، رمى الحذاء جانبا، ظهر الفوندوشي الناصع البياض، ركع على السجادة الحمراء، يوكيو تقريبا عارٍ، مد يده وأخذ السيف الصغير والمستقيم بيده اليمنى، تقدم طالب واقترب منه بورقة وفرشاة ليكتب رسالته الأخيرة، رفض وقال:لست بحاجة إلى ذلك.فرك أسفل بطنه جهة اليسار بأصابع يده اليسرى، وفي هذه البقعة بالذات حيث الطريق إلى كليته ضغط على السيف، صرخ بكل قوته يحيا الإمبراطور ثلاث مرات، تنفس بقوة لطرد كل الهواء من جسمه، ثم ضغط على السيف ليدخل بكل قوته، ارتعشت يده اليمنى قليلا، سمع بكاء الطلبة والجنود والجنرال، نظر إليهم بحميمية، تذكر وجه جدته وهي تخبره بأن عليه أن يكون متكبرا قدر الإمكان، سحب بكل قوته السيف القصير إلى أن وصل إلى كليته اليمنى، نزل دم غزير ولطخ كل شيء بلون أحمر زاهٍ، التناقض بين الحياة والفن، التناقض بين النقص الإنساني والكمال الإلهي، جعلت الكآبة تتسرب إلى روح يوكيو ميشيما، كان حزينا في كل لحظات حياته وشعر بالملل من كل شيء، الحب والموت والخلود هو كل ما كان يهم يوكيو، كانت التناقضات تسيطر على أعماله وأهم هذه التناقضات هي الأبدي والمؤقت، و يؤكد على هذا التناقض في عنوان كتابه اعترافات قناع، فإذا كان الكتاب هو اعترافات يوكيو فما الحاجة إلى القناع، هناك تناقض بين

ليئة وراحيل وهناك تناقض في ليئة نفسها يرمز له بأنها ضعيفة البصر وتعمل بيديها، يوكيو لم يتحمل حزن هذا التناقض، ولم يتحمل ملل الحياة بدون هذا التناقض، والدي ربما كان سيفعل ما فعله يوكيو ميشيما في اللحظة التي قرر فيها الانتحار، ربما كان سيفضل انتحارا علنيا على طريقة الساموراي أمام هوميروس وفيرجيل ودانتي وشيشرون وكل الكتَّاب الذين أحبهم، عندما كان يتحدث عن التناقضات أنا أعلم أنه كان يتحدث عن دانتي وعن نفسه، يتحدث عن حزنه والملل الذي عرفه في العمل والبيت والشارع والحياة كلها، هذا الشعور المدمر الذي يهاجم بلا رحمة، عندما نسمع شخصا يتحدث عن الموت من الملل، فهو يعني انتحار يوكيو ميشيما، الملل لا يقتل لكن يدفعك إلى الهزيمة، إلى الخسارة الفادحة، والدي عندما نظر إلينا على الشاطئ قرر التضحية بهذا الموت لصالح موت آخر أكثر إيلاما وهو الحزن بلا سبب، تحوّل إلى بطل مأساوي صامت ولا يحفز نفسه على الموت، البعض يرى أن لا عظمة في الحزن، لكن أيضا لا توجد نكهة العظمة في السعادة، ما هي السعادة؟إنها خيبة أمل لا تعلن عن نفسها، السعادة الوحيدة هي الحب، لكن الحب نفسه نفي حزين للحزن، الحب لا يكون حزينا عندما يفشل، هذا الفشل هو تمجيد لخسارة أبدية، الحب يكون حزينا عندما ينجح، الحزن هنا بسبب الخوف من توقف الحب عن أن يكون ناجحا، أما بعد نقطة التوقف فلا تشعر بالحزن، بل تشعر بعذاب الخسارة، والدي

حزين لأنه لم يفعل أمرا معترفا به وهو موته، توقف ليس بسبب الحب، بل بسبب الإشفاق وبسبب لحظة مكثفة من الشعور بعدم الوفاء لنا وليس لنفسه، دخل والدي متاهة الكتب، متاهة الحزن، متاهة التشرد الوجودي، الآن أنا أعرفك جيدا يا أبي، الآن أشعر بك وأنت تلعب مع حزنك لعبة الثقة بالنفس، لم أتصور أننا متشابهان إلى هذه الدرجة، لم أتصور أن عاطفتي تجاهك كانت محاصرة بعاطفة نرجسية، كنت أبحث عنك بطريقة مبهمة وبدون شهية البحث، لا أدري ربما أحتاج الآن أن أكون مع الطلبة الراكعين أمام يوكيو، أبكي معهم موتك الذي لم ينفذ، والحب المؤجل إلى حين أن يتوقف العالم عن رثاء نفسه، ربما كنت سأضع يدي معه على السيف القصير لأشعر بتلك الرعشة الحميمية، هذه الرعشة الوحيدة التي يمكن بها التصالح مع العالم بشكل مقنع، أنا وأنت وحدنا هنا مع كل الميزات الخائبة وكل الشعور بعقم الوجود قادرين على البقاء على قيد الحياة.

مر شهر ونصف بعدها جاء جارنا في موعده المعتاد ومعه الدواء، كانت سعادتي لا توصف ولم أطرح أي سؤال عن كيف أو من ؟ المهم أن الدواء هنا الآن، بعد الانتهاء من السيجارة قال جارنا:لقد انتهيت من هذا المكان بعد ثلاثة أيام سيكون القمر بدرا وسأرحل، خلال هذه الأيام سوف أمر كل ليلة لنقل كل مالدي من أشياء صالحة للأكل أو الاستخدام إليك، حاولت

إقناعه بالتريث والصبر لكنه كان قد حزم أمره منذ فترة، أخبرته لماذا أخفيت عنه أمر المولد وأن أكثر ما أحتاجه هو البنزين، فرد بأن لديه كمية منه وسوف تكون معه في المرة القادمة، كان قد أصبح نحيفا وبائسا بعض الشيء، لم يحلق شعر رأسه أو لحيته طوال الفترة الماضية، وأنا فعلت نفس الشيء، لم أجد أي مبرر للحلاقة في هذا السجن، كنا قريبان جدا من متوحشين من عصور ما قبل التاريخ، يجلسان أمام الكهف يتحدثان عن شراسة الحيوانات في الخارج وصعوبة الحياة في هذه البقعة من الأرض، عندما ذهب شعرت بحزن عميق، بعد أيام لن يكون هناك من أصعد إلى السطح لأطمئن عليه كل صباح، أو أنتظره عند منتصف الليل مرة كل أسبوع، في هذا المكان كل الأشياء تتسرب إلى الغياب، تنتهي في اللحظة التي تكون فيها في أشد الحاجة إليها، هو أيضا قرر الرحيل ككل شيء آخر، قبل أن يخرج من الباب أخبرني أنه سيذهب إلى البحر من هنا، ربما أراد ان تكون لحظته الأخيرة في هذا المكان فيها ذكرى وداع لشخص ما، فعل ما وعد به، في الأيام الثلاثة كان يأتي في منتصف الليل ومعه كل ما يستطيع حمله، دقيق، أرز، زيت، صلصة الطماطم، السجائر، جالون من البنزين، و أشياء أخرى كثيرة، حتى أسطوانة الغاز المتبقية خاطر وأحضرها معه، قرر أن يكون رحيله قبل ساعة من الفجر، كانت معه ملابس الغطس كاملة، وكان قد جهز كل شيء، وضع كل أوراقه وملابس ليرتديها بعد وصوله في

كيس نايلون وأغلقه بطريقة محكمة، كنا نشرب القهوة وندخن في صمت عندما قال:أتذكر الآن كيف كنت تجتمع مع إخوتي للذهاب إلى السينما، كان يبدو كاجتماع لجيش صغير ذاهب إلى القتال، ضحكت وقلت:الذهاب إلى سينما الهايتي أو النصر يشبه المعركة، هناك عصابة صغيرة في كل منطقة وتتحرك بالكامل عندما تذهب لمشاهدة فيلم، الذهاب وحدك عملية انتحارية بكل معنى الكلمة، الطريق نفسه لم يكن سهلا على الإطلاق فأنت خارج الصابري ومعرض لكل أنواع المعارك، للصابري سمعة يجب المحافظة عليها بكل السوائل.أخذ نفسا من سيجارته وقال:شيء ما ضاع مني في الأيام الماضية، ضاع أو تلوث لا أدري، كان لدي علاقة سرية وبسيطة مع هذا الحي ومع المدينة لكنه ضاع، لم أعد أتذكر حتى ما هو السر، كان للحي والناس فيه تأثيرٌثابت على روحي وقلبي، ربما هذا هو ما ضاع مني، أعتقد أن السر هو الشعور بهذا التأثير الحميم، لم أتوقع أن يتبنى شخص واحد في الحي هذا الفكر المجرم، لكن الصدمة كانت كبيرة جدا، من تعلمت معهم السباحة في هذا البحر، من جريت وقفزت معهم في كل ركن من أركان هذا الحي، اكتشفت في لحظة أنهم قتلة، تصور كل هذا الزمن ولم أكتشف كم كانت أرواحهم سيئة ومظلمة وخطيرة، بعضهم كان يأتي ويذهب ولا يتمكن أحد من رؤيته، مجرد نكرة لا يصلح لأن يكون حتى خدش بين الأسنان، لقد قاموا بقتل جيرانهم وإحراق بيوتهم ونهبوا ما فيها،

الأغرب أن تجد في وسط هذا الذعر والموت والعذاب أن هناك من ينتظر جاره ليخرج كي يسرق بيته بعد ساعة من خروجه، ما الذي حدث؟كيف فقد الحي هويته في لحظة ما؟لا أدري كيف حدث ذلك على وجه التحديد، لكن ما أعرفه جيدا هو أنه لم يعد يعنيني، لا هذا الحي ولا المدينة ولا هذه البلاد، لم يعد الصباح هو الصباح الذي أعرفه، الصباح الآن يجعلني أشعر بالركود والملل واليأس، هل تتصور أني لم أمسك بهذا المسدس ألف مرة وأفكر في إطلاق النار على نفسي، لكن في كل مرة أفعل فيها ذلك يهبط دلو من الماء البارد على رأسي، لا لن أمنحهم انتصارا آخر وأنا جالس في البيت، هذا كثير، كثير جدا في الحقيقة، إن كان هناك من يستحق شرف موتي فهو البحر، لأن البحر كالحبيبة يقتلك بسبب الحب وليس بسبب الكراهية. قال كلماته بحرقة شعرت بها كالنار تأكل قلبي، كان لديه وعي مدهش بالخسارة، الحزن أمر لا مفر منه مع هذا الوعي العميق، لتغيير الجو الكئيب جدا طلبت منه أن يستعد للحلاقة وقلت:لن تخرج بهذا الشعر وهذه اللحية، قد يتوقع أي شخص أنك من هؤلاء القتلة، ابتسم وقال:الغريب أنني حزين بسبب وجودك هنا، سوف أشعر بالحنين لهذه الجلسات والحوار معك، أرجوك لا تدع هذه الحفرة الجهنمية تنتصر عليك، إذا خرجت من البحر سالما سأنتظر يوم خروجك واحتفل وأنا في كندا.

قبل الفجر بساعة لبس ملابس الغوص، ثبتنا الكيس على ظهره جيدا، بعد الحلاقة رجع ذاك الشاب الصغير الذي أعرفه، لكن مع تجربة خلفت الكثير من الاسى على وجهه، وقفت معه خلف الباب وأنا لا أدري ما أقول، كل ما استطعت فعله هو ضمه بقوة وهمست في أذنه:لا تمت هناك حياة تنتظرك في كندا وامرأة جميلة تحبها إلى آخر يوم في عمرك.شعرت في لحظة أنه يوكيو ميشيما وقد جهز كل شيء قبل رحيله، طردت الفكرة وقلت:اذهب الآن وبلغ إخوتي أني بخير ووالدي بخير أيضا، اذهب، خرج من الباب يحمل في يده الزعانف أو حذاء الغوص، أغلقت الباب خلفه وأسرعت إلى السطح، كنت أعلم أني لن أرى شيئا، لكن تخيلته الآن يمشي على الصخور بحذر، وصل إلى حيث المكان الذي سيقفز منه إلى الماء، نظر إلى البدر المكتمل في السماء، إلى نجمة لم يرها من قبل في هذا الجانب من السماء، نظر أخيرا إلى البحر، سمعته بقلبي يقول له:ها أنا وأنت مرة أخرى أيها الكبير، أنا أعرفك جيدا كما تعرفني أنت جيدا، رضعت ملحك مع حليب أمي، ونظرت إلى بياض هذا الملح على جبين أبي الطيب، أول صفعة قوية تلقيتها كانت من يد موجة من أمواجك الحائرة، ها أنا أمامك أيها القديم جدا والواسع جدا وكل ما أملكه هو أنت، أعلم أني أخطأت في حقك كثيرا، أعلم أنك تكره الصيد بتفجير الحياة في قلبك، لكن ما الذي كان يجب أن أفعله؟هل ترضى أنت أن أتسول ثمن السجائر من إخوتي؟أعلم أنك لن ترضى هذا

لولد من أولادك، سامحني أيها الطيب قد تكون هذه المرة الأخيرة التي نلتقي فيها، وإذا عدت إليك يوما فلن أكون هذا الذي أمامك الآن، هذا وعد من صبراوي إلى صبراوي، لبس الزعانف وقفز ومعه في الكيس صورة أخرى للغياب، تمنيت أن أراه وهو يسبح بطريقة أبناء الصابري الشجعان، أو أهمس في أذنه قائلا:هذا هو المطهر، عليك بالسير فيه إلى النهاية، اترك كل شيء في هذا الماء الذي خلقت منه، طهر روحك من هذا الجحيم، من الحرب والموت والكآبة بسبب دخان البيوت المحروقة، انظر إلى ذلك الضوء البعيد وتخيله فيرجيل، هو المرشد إلى خلاصك من كل هذا العذاب، كان رأس البحر ممتلئا بالأسئلة التي ليس لها إجابة، نظرت إلى بياض الموج البعيد، إلى المكان الذي سقط فيه الحصان كهدية مجانية لمعنى الوحشية، شعرت بأني تائه وضعت يدي حيث وضع يوكيو يده على بطنه، لم أقوَ على منع نفسي من التفكير في هذه اللحظة، رأيت رأس يوكيو المرتفع بأكبر قدر من الكبرياء ينحني إلى أن وصل ذقنه إلى صدره الصغير والقوي، هناك فقط عرف رأسه المحطة الأخيرة، ودموع الطلبة مختلطة بدمائه، لم أكن أدري ما إذا كان الذي في فمي في تلك اللحظة هو طعم ملح البحر أم ملح دموعي، شعرت بالوحدة والحرمان من الرفقة، الآن الوحدة أصبحت مضاعفة، طوال حياتي أشعر بالوحدة الداخلية، بغض النظر عن أين أنا أو مع من، الوحدة التي يسببها التوق إلى حالة غير قابلة للتحقق، لم أتنازل عن هذه

الوحدة إلا في وجود بياتريس، شعرت وأنا بقربها أنها هي الحالة وليست مجرد امرأة، حالة أغوص فيها للشعور بلحظة العالم، كنت قبلها بالكاد أضحك، بالكاد أبتسم، بالكاد أفهم معنى روح الدعابة، كنت روحا وحيدة هائمة في عالم الخواء، وها أنا من جديد أشعر بهذا الخواء الآن، أشعر بأن الوحدة تزداد كثافة مع كل لحظة تمر، مشكلة الإنسان الذي يشعر بمثل هذه الوحدة أنه ليس خبيرا في النسيان، لديه ذاكرة قوية تراقب كل تفاصيل وحدته، وعندما تحدث بعض لحظات الفرح السطحية تلتفت الذاكرة إلى مكان آخر، لهذا يهرب الإنسان الذي يشعر بالوحدة الداخلية من مفصل الفرح إلى حزنه الذي لا يدخل إلى قلبه على أطراف أصابعه، بل يضرب الباب برجله فهو لا يعتبر قلبك مكانا مؤقتا، ما هي المسافة التي قطعها جارنا حتى هذه اللحظة؟البحر لا يرد، البحر يعرف معنى كتمان الأسرار جيدا، بسبب هذا الحرص على الأسرار أصبح هو الأمين على أحزان الناس، عليَّ أن أنزل إلى والدي فقد أصبح وقت صلاة الفجر قريبا جدا، ما يفعله أبي وهو يصلي الفجر هو أكثر الأشياء في هذا المكان براءة ومتعة.

عاد والدي إلى النوم بعد صلاة الفجر، لكن أنا كان جسدي يهتز ويدي ترتعش، لا أستطيع التفكير في النوم، كما لو كنت أسبح مع جارنا في البحر، متعب وعطشان وأمسح صورة الموت بماء البحر، لن أنام قبل أن أكتب رسالة لبياتريس، هذا ما يجعلني

أشعر بقيمة الحياة وقوتها، أنا الآن في الرماد ولن أخرج منه إلا بدعم من حب بياترس والورقة والقلم، عليَّ قبل الذهاب إلى السرير من التأكد أني نفس الشخص الذي اختفى من حياتها فجأة، ذهبت إلى المكتب ومعي الشمعة، جلست على الكرسي وأنا أسمع صوت انفجارات مدوية، أمسكت القلم وكتبت:

عزيزتي بياتريس

في هذه اللحظة التي أكتب فيها إليكِ خيالي عاجز عن تصور جملة واحدة، ربما سأترك الأمر لخيال الظلام أو البحر ليتكلم نيابة عني، رحل جارنا اليوم بطريقة هي أقرب للانتحار منها للنجاة، لقد رمى بنفسه في البحر أو وسط يأس كثيف ينمو في كل لحظة، لا أدري كم من الوقت يستغرق الوصول إلى المكان الذي يتجه إليه، لا أدري ما هي نهاية هذه الرحلة في الماء، كنا نتشارك الحزن والسجائر، وهو يسير الآن في غرفة عارية، ينظر إلى القمر ويسمع صمت النجوم أو صوت الموج الذي يشبه الصراخ في الليل، تتلمس يداه الطريق في الماء، كان يعيش في كهف أزرق يسمى الصابري، كل الطرق التي تتبع الشمس توصل إليه، وها هو الآن في حضن هش مرسوم بالماء، عندم رحل صعدت إلى السطح، كان الهواء يندفع بهدوء مع خطواته، تذكرت في تلك اللحظة قول فرانسيس في فيلم «فرانسيس «:لا يمكنني الاهتمام بالفنون أو الكتب أو الأفلام التي تدور أحداثها حول الحيوانات،

لابد للحيوانات أن تتكلم أو تخوض غمار حرب لتصبح مثيرة للاهتمام.فرانسيس على حق يا عزيزتي، الحرب تثير الاهتمام والفزع، كم أحببت هذا الفيلم بسبب التشابه بينكِ وبين فرانسيس، التلقائية والعفوية في حدها الأقصى، أحب مشيتها الرجولية التي تشبه طريقتكِ في المشي، تجري في الشارع وترقص دون اكتراث بأي مخلوق، تتبول في الشارع في الوقت الذي تراقب فيه صديقتها الطريق، غرفتها الفوضوية وملابسها المنتشرة في كل أرجاء الغرفة، غريبة الأطوار، وتحب الأشياء التي تبدو كأخطاء، تشبهكِ في كل شيء، في طريقة تدخينها وكراهيتها للتدخين وحدها، في الوقت الذي أكون فيه هنا بعيدا عنكِ كنت أشاهد هذا الفيلم مرات عديدة، أراقب فيه حركاتكِ وطريقة كلامكِ وطيبتكِ التي ليس لها حدود، ما كان يهمني أكثر من غيره في هذا الفيلم هو قول فرانسيس:أنا أريد هذه اللحظة بالتحديد، إنها ما أريده من العلاقة، وهذا ما قد يفسر كوني وحيدة الآن، من الصعب نوعا ما...إنها ذلك الشيء عندما تكون برفقة أحدهم في حفلة، أنت تحب من فيها وهم يعرفون ذلك، وهم يحبونك وأنت تعرف ذلك، لكنها حفلة، كلاكما يتحدث مع أناس آخرين، وأنت تضحك ويشع وجهك، وتنظر عبر الغرفة وتلتقي عيونكما، لكن ليس بسبب نزوعك للتملك، ولا بسبب انجذاب جنسي، لكن لأن هذا هو شخصك في هذه الحياة، وهذا مضحك ومحزن، لأن هذه الحياة ستنتهي، ولأن هذا العالم السري الكائن في تلك اللحظة، لا ينتبه

إليه أحد، غير ملحوظ، ولا أحد يعلم بأمر وجوده، إنه شيء أشبه بتلك الأبعاد الأخرى التي يتكلمون عن وجودها في كل مكان من حولنا، ولكن لا نمتلك القدرة على إدراكها، هذا هو ما أريده من العلاقة.أنتِ شخصي في هذه الحياة يا بياتريس، وتلك النظرة التي تتحدث عنها فرانسيس حدثت بيننا مرات عديدة، هذه النظرة هي لحظة العالم، أنظر إليكِ فتأتي ابتسامتكِ لتغرق العالم ويرتعش صدر الحياة الصغير والقوي، هذا ما أحتاج إليه الآن، هذه النظرة بالذات، وسط هذا الحزن، الفقد، و الانتظار، وسط الرصاص والقذائف والانفجارات والموت، كل ما أحتاجه هو أن تلتفتي وتنظري إليَّ لكي أتمكن من السير مع أمل حلو يشبه وجهكِ، لدي أمل في أن يصل جارنا الذي يتأرجح الآن بين يدي الموج، أمل في أن لا تشرب شفتيه برودة الموت، أحاول في كل لحظة أن أنسى كيف تنزف الأيام بهدوء، وأن الوقت يمر وقد لا أرى جمال أصابعكِ عندما تقترب من شفتيكِ، الآن أعرف جيدا كيف كان آدم يشعر بالوحدة في الجنة، كان يحتاج إلى تلك النظرة وسط الجنة، دانتي عندما قرر السير في رحلته العجيبة أخذ معه فيرجيل، كان لديه رعب من القيام بهذه الرحلة وحده، دانتي كان في حاجة ماسة لسماع خطوات مألوفة، سافر دانتي من الجحيم إلى المطهر ومنه إلى الجنة، فقط ليستمتع بتلك النظرة لآخر مرة في حياته.

الأشياء التي قدمها جارنا كانت عونا كبيرا في أيام الخريف

والشتاء، لكن من الناحية المعنوية كانت حالة والدي تسوء يوما بعد يوم، كنا نسير في المطهر ببطء شديد بسبب حالته غير المستقرة ومزاجه المتقلب، و الحقيقة هي أني أنا أيضا كنت في انهيار داخلي يومي، توقفت عن الكتابة لبياتريس، وأصبحت أفعل كل شيء بطريقة خالية من كل متعة أو أمل، أصبح كل ما يهمني هو والدي، أسجل كل شيء يقوله حتى حواراتنا الخاصة، الشعور بالوحدة أصبح يهاجمني بشراسة، ما أشعر به ليس الوحدة الحميمة، تلك الوحدة التي لا تشعر فيها بالشوق إلى شيء، هذه الوحدة هي حالة أصلية، حالة آدم قبل وجود حواء، لكن ما كان يهاجمني هو الوحدة بسبب فقدان جزء من الذات، التوق إلى هذا الجزء هو توق لاكتمال الوحدة، بدون هذا الجزء أنا لا أستطيع الشعور بالوحدة الحميمة، بل أشعر بالوحدة مع فراغ يؤدي إلى انخفاض في مستوى الشعور بالحياة، ربما هذا ما كان يشعر به والدي في كل لحظة من لحظات صمته، نهاية الخريف ترسم الخريطة السرية لمتاهة الحزن، خلف هذه القضبان غير المرئية التي تمنع وصول الحياة إلى هذا المكان، تمر الساعات المقشَّرة بعناية بأصابع مطر الخريف وتتحرك بهدوء نحو اللاشيء، والدي يعيد إنتاج كل تفاصيل المطهر، وأنا أقرأ بصبر وأجعل من كلماته فقاعة كبيرة حولي تبعد عني شبح اليأس القاتل، ربما أحببت المطهر أكثر من الجحيم لأنه كما قال والدي بعيد عن فكرة الحبس والعذاب، المطهر مكان للتغيير، الغريب هو أن دانتي في

المطهر كما في الجحيم لا يرى إلا في الظلام، أما في النور فهو أعمى ولا يرى شيئاً، في هذه اللحظة التي يصاب فيها بالعمى من النور يتولى فيرجيل المهمة، في الأنشودة الخامسة عشر من المطهر يقول دانتي:وضربتنا أشعة الشمس في منتصف وجهينا ؛ إذ كنا قد قمنا بالطواف حول الجبل، حتى أخذنا نسير رأسا صوب المغرب*حينما أحسست أن جبهتي قد بهرها بهاء يفوق كثيرا ما واجهني من قبل، وأثار عجبي أشياء لم يكن لي بها عهد* لذا رفعت يديّ إلى طرف حاجبي، وصنعت لنفسي منهما ظلا يخفف عني من حدة الضوء، و في الأنشودة السادسة عشر يقول:ما من ظلمة جحيم ولا حلكة ليل اختفت فيه كل الكواكب-تحت سماء جرداء اشتد بالسحاب اسودادها*صنعت لوجهي حجابا كثيفا ولا غطاء من شعر خشن الملمس-كما صنع ذلك الدخان الذي غمرنا هنالك*إذ لم يدع لأعيننا سبيلا إلى الرؤية، وعندئذ اقترب مني رفيقي الحكيم الأمين وأعارني كتفه*وكما يسير الأعمى من وراء دليله حتى لا يضل طريقه، ولكي لا يصطدم بشيء يؤذيه أو ربما يقتله*هكذا سرت خلال الهواء المرير الخبيث، مصغيا إلى دليلي الذي جعل يقول:حذار أن تنفصل عني.في الجحيم . أغلقَ دانتي عينيه بيديه ومعها يدا فرجيل خوفا من عيون ميدوزا، و في المطهر يفعل دانتي الشيء نفسه، في الجحيم فيرجيل يخبر دانتي أنه قام بهذه الرحلة من قبل، يقصد نزوله إلى الجحيم في الإنياذة، دانتي يشرح صعوبات

السير في متاهة المطهر وفيرجيل يحذره من الابتعاد عنه، إذا كان فيرجيل قد قام بهذه الرحلة وحده فلماذا لا يستطيع دانتي القيام بها وحده؟في الجحيم عندما يصعد دانتي إلى قارب خارون لعبور نهر أكيرون يشعر بأن القارب قد هبط قليلا في دموع الآثمين فنهر آكيرون يتشكل من هذه الدموع، ولا يشعر بأن ذلك حدث عندما صعد فيرجيل إلى القارب، دانتي إنسان حي مازال يشعر بجسده، وعندما يرى النور يترك الأمر لفيرجيل، لأنه لايزال مرتبطاً بالحياة، لا يفرط دانتي في إنسانيته في كل منعطفات الرحلة، فيرجيل بالنسبة لدانتي هو تجسيد لكل ما هو نبيل وعظيم ونقي، في الأدب كله من الصعب أن نجد كلمات فيها مثل هذا الاحترام والتبجيل الذي يخاطب به دانتي فرجيل، ومن الصعب أن نجد في الأدب كله مرشدا يراقب حركات دانتي كلها، ويساعده في إيجاد الكلمات المناسبة عندما يتعثر لسانه، ويتوقع رغباته ويعمل على تحقيقها، ويدافع عنه مثل فيرجيل، دانتي يعالج كل نواقص سلفه فيرجيل بكل احترام، لقد ترك إينياس ديدو من أجل العالم، دانتي ترك العالم من أجل بياتريس، الكوميديا الإلهية هي تعويض لفيرجيل عما يعذبه بعد موته، يفرق دانتي بين فيرجيل الإنسان وفرجيل الكاتب، فيرجيل الإنسان في قبره، أما فيرجيل الكاتب فهو مرشد دانتي، في الأنشودة الثانية يلتقي دانتي وكازيلا موسيقي ومطرب من فلورنسا فيقول: إذا لم يحرمك قانون جديد من ذاكرتك أو من براعتك في أغاني الحب، التي اعتادت أن

ترضي كل رغباتي* فلعله يروقك أن تسري بها قليلا عن نفسي المكدودة المتعبة، لمجيئي بجسدي هاهنا*بدأ عندئذ بصوت عذب رقيق، لا تزال عذوبته تتردد بين جوانحي: «الحب الذي تتجاوب كلماته في خاطري»*وبدا أستاذي وبدوت ومن كانوا في صحبة كازيلا في غاية الرضا، حتى لكأنه لم يعد يخطر ببال أحدنا شيء سواه*وظللنا صامتين منتبهين جميعا إلى أنغامه:وإذا بالشيخ الوقور يصيح بنا:ما هذا كله، أيتها الأرواح الكسلى؟*ما هذا التهاون وهذا التوقف؟فلتسارعوا إلى الجبل لكي تنضوا عنكم هذه الغشاوة التي تحجبكم عن رؤية الله.

قول دانتي:لمجيئي بجسدي هاهنا، يفسر الكثير من الأشياء في الكوميديا، لكن ما توقف والدي عنده كثيرا هو كاتو، هذا الشيخ الوقور الذي صرخ فيهم أيتها الارواح الكسلى، والدي كان يتحدث عنه بحميمية كبيرة جدا، هناك سر بين والدي وكاتو، لمحتُ ذلك في عينيه وهو يقول:لم يكن هذا هو اللقاء الأول بين دانتي وكاتو، فهو حارس المطهر وعندما رآه دانتي أول مرة قال:رأيت بقربي عجوزا بمفرده، جديرا في مظهره بالتجلة التي ليس للابن أن يبدي لأبيه أكثر منها*كان ذا لحية شيباء طويلة، تشبه شعر رأسه الذي سقطت منه على صدره خصلتان*وبالنور زينت محياه أشعة الأنوارالأربعة المباركة، حتى رأيته كأنْ قد صارت أمامه الشمس*قال وهو يحرك لحيته الوقورة:من أنتما اللذان هربتما

من السجن الأبدي–بعكس اتجاه النهر الأعمى؟*ومن ذا الذي أرشدكما، وبأي مصباح اهتديتما، حينما خرجتما من أغوار الليل الذي يظلم وادي الجحيم أبدا؟شرح فيرجيل الأمر كله إلى أن وصل إلى قوله:وعسى أن يروقك الآن أن ترحب بمقدمه:إنه يسير في طلب الحرية، التي هي عزيزة غالية، كما يعرف ذلك من يبذل في سبيلها حياته*وإنك بها عليم، إذ لم يكن موتك بسببها في أوتيكا شيئا مريرا، حيث تركت الثوب الذي سيصبح شديد التألق في اليوم العظيم.طرح والدي سؤالا أثناء شرحه للأنشودة الثانية:كاتو هو أول شخص انتحر بطريقة علنية فكيف يصبح حارسا للمطهر؟لقد رسم الفنان النمساوي يوهان ميشيل روتماير لوحة مؤلمة صور فيها هذا الموت المرتب بطريقة مذهلة، هذا الانتحار كان بداية الموت الثقافي، الموت بهذه الطريقة يشكل علامة ويولد معنا رمزيا، لم يكن مثل هذا الانتحار معروفا في روما، الموت في المعركة أو الموت في ساحة المصارعة هو الموت المجيد الذي يحتفل به من كان شاهدا عليه من الجمهور، في الموت الثقافي يتحوّل الموت إلى أداء، يتحوّل إلى فلسفة وتاريخ وأدب وبهذه الطريقة يصبح الموت عملا جماليا، في هذا الموت أيضا يوجد شهود، لكنهم شهود قريبون جدا، العائلة، الأصدقاء، العبيد، العبيدالسابقون، لتقديم المساعدة والمشورة وليكونوا شهودا على تفاصيل الموت لنقلِها إلى الأجيال القادمة، الجنود كانوا يقومون بالانتحار في ساحات المعارك، خوفا من الأسر وسوء المعاملة، هذا الموت لا

يلهم أحد على الإطلاق، فمثلا عندما كان كاتولوس مطاردا لتنفيذ حكم الإعدام فيه، دخل إلى غرفة وسد على نفسه الباب وأشعل النار داخلها ومات مختنقا، هذا ليس الموت الذي نتحدث عنه، إنها ميتة مشرفة لأن من فعلها رفض الوقوع في يد الأعداء، ولكي لا يكون لعبة في يد المنتصرين ويتعرض للإذلال والمهانة، لكنه ليس الموت الجميل والخلاق، في الحرب الأهلية كان هناك موت مخزٍ، بعض الأطراف كانت تضرب الأسير بهراوة إلى أن يموت، والبعض الآخر كان يرمي بالأسير في زنزانة مظلمة بقية حياته، مثل هذه الميتة كانت مرعبة أكثر من الموت نفسه، لهذا كان بعض الجنود يختارون الموت بأيديهم لا بأيدي أعدائهم، الانتحار كان خيارا عمليا في مثل هذه الحالات، ومع ذلك كانت حالات قليلة ومعروفة، كاتو نفسه فضل الانتحار على عقاب قيصر، لكنه جعل لهذا الانتحار معنى، كاتو كان رواقيا بكل معنى الكلمة، الرواقي يجب أن يقول ما يفكر فيه، حتى لو كان ذلك يعني موته، كان يكره عدم ثبات الشخصية والتبدل من شخص إلى آخر مرارا وتكرارا، العيش بألف قناع لم يكن يناسب كاتو، أراد أن يلعب دورا واحدا في حياته كلها، وعندما قرر الانتحار جعله موتا خاصا وبطريقة فريدة، كان قيصر ينوي العفو عنه ولم يكن موته أمرا مفروغا منه، كان بعيدا وقادرا على الهروب إلى مكان أبعد، لكنه اعتبر أن الموافقة على رأفة قيصر به هي نفسها الموافقة على سياسته، لقد اختار العكس، اختار أن يكون انتحاره بمثابة الرفض

لقيصر وسياسته، لكن هذا الانتحار لابد أن يكون مشهورا ويسمع عنه كل مواطن روماني، لقد وضع كاتو انتحاره على شاشة كبيرة، وهذا ما فعله يوكيو ميشيما في العصر الحديث، بهذه الطريقة يتم الاعتراف بالموت كأداء تجربة جمالية، و في نهايتها لابد أن يسدل الستار بجملة جيدة.

أراد كاتو أن يكون انتحاره قطعة أثرية مميزة، عملاً فنياً بشكل من الأشكال، لقد اضطر سينيكا إلى الانتحار على يد نيرو، مات مختنقا في بخار الحمام، هذه ليست قطعة أثرية، تحويل الموت إلى قطعة أثرية يتطلب فنا، لنحت هذه القطعة لا يتطلب الأمر الكثير من الجمهور، بل عدداً قليلاً ومميزاً إلى أقصى درجة، بلوتارخ في السير لم يتحدث عن موت كاتو بل عن الدوافع التي قرر بسببها هذا الانتحار الفريد، لم يتحدث بلوتارخ عن الإشارة إلى الحرية في انتحار كاتو، أنا أنظر إلى المشهد الآن، ولا يغيب عني مشهد يوكيو ميشيما في هذه اللحظة، أثناء العشاء الفخم ينظر كاتو إلى وجه ابنه جيدا، ينظر إلى ذاك الحزن النهائي في عينيه، يضم الأصدقاء إلى صدره ويقبلهم، يستحم ثم يذهب إلى غرفته، يقول للخادم: كل شيء يجب أن يكون على ما يرام هذه الليلة. يستلقي على الفراش الذي عاش مع كاتو ليالي الأرق والألم، مد يده وأخذ إحدى محاورات أفلاطون التي تتحدث عن الروح، عندما اقترب من نهاية المحاورة لاحظ أن سيفه قد اختفى

من فوق رأسه، أمر الخادم بجلب سيفه وعاد للقراءة، لم يجلب الخادم السيف، لقد أخذه ابنه وأخفاه بعيدا عنه، صرخ طالبا السيف دون تأخير، وصل طفل صغير والسيف في يده، أخرجه من غمده ونظر إليه بكبرياء، وضع طرف السيف في نقطة عند نهاية قفصه الصدري، كانوا جميعا ينظرون إليه وهو يدفع السيف بكل قوة نحو عمق بطنه، سقط من فوق السرير، الدم لطخ يده والسجادة والتاريخ، دخل الطبيب مسرعا، حاول إقناعه بربط الجرح، لكنه رفض وفتح الجرح أكثر بيده، مات كاتو في أبريل عام 46 قبل الميلاد، كان هناك ستة شهود عيان على الحادثة، أهمهم ديميتريوس الذي عاد إلى روما وروى الحادثة لشيشرون. قِيم الجمهورية المهزومة تمنع كاتو من العيش تحت حكم قيصر الاستبدادي، هذا الموت الرمزي يمثل الخيار الأكثر حرية، الموت بشرف وأخلاق وقوة، المفارقة أن يوكيو انتحر مطالبا بقيم الإمبرطورية والتراث الياباني القديم، وهذا عكس تماما ما مات كاتو من أجله، لا يخفى علينا العلاقة بين هذا الموت المشهدي وموت سقراط، لقد اكتسب انتحار كاتو شهرة أكثر من أي شيء آخر في روما، كان انتحاره علامة فارقة وغير مسبوقة في وحشيتها وعنفها، و ما جعل موته بهذه الطريقة فريدا هو أنه لم يكن محكوما بالإعدام واضطر لفعل ذلك مثل سقراط وسينيكا، يقال أنه كان قبل الانتحار بأيام قليلة يسير كالمجنون عاريا وحافي القدمين في الغابة، فكر في هذا الموت من الناحية الفلسفية

ووجد كل الدعم في رواقيته، لم يعتزل مثل شيشرون ويتقبل المرارة في قرار البقاء على قيد الحياة، التشابه بين كاتو وميشيما هو أن الموت لم يكن يقف على باب الغرفة، الإمبراطور عندما علم بانتحار يوكيو قال:لقد فقد عقله، و الجنرال مورياتي كان يبكي، و شعر قيصر بالأسف على موت كاتو، لم يبقَ قيصر في الحكم بعد هذا الانتحار سوى عامين، الآن دعنا نجيب عن السؤال:لماذا وضع دانتي كاتو حارسا على المطهر؟لقد كانت إشادة به وبما فعله من أجل الحرية، لقد انتقم كاتو من القيصر بهذه الطريقة العنيفة والوحشية، دانتي حكم عليه بالنفي ثم الإعدام، لم ينتحر دانتي، لكنه قرر الانتقام من الإمبراطورية والكنيسة معا في ضربة واحدة وهي الكوميديا الإلهية، وعندما صرخ كاتو في المطهر أيتها الأرواح الكسلى، كان يقصد تلك الأرواح التي لا تطالب بحريتها بشرف وأخلاق، كانت الكتابة هي خيار دانتي ووجد عند فيرجيل ما يبحث عنه، يقول فيرجيل في الأنشودة الثالثة من المطهر:ولقد رأيتم قوما يتطلعون عبثا إلى أن ترضى رغائبهم، ولكنهم لم ينالوا من ذلك سوى الحزن الأبدي:وإني لأعني أرسطو وأفلاطون وكثيرين غيرهما، وهنا خفض جبينه ولم يزد عن ذلك حرفا، وظل مضطرب الخاطر.فيرجيل يحذر دانتي من تجربة الشوق غير المثمرة، التخلي عن تجربة الشوق تعني الثقة في شيء آخر، كاتو ويوكيو أعطوا كل ثقتهم للموت، فيرجيل كان مضطربا لأن لديه شوقا وحزنا لا نهائيا، فيرجيل المحروم من الجنة ويتوق

إليها في كل لحظة، هل تتذكر هذه الورقة التي حدثتك عنها؟نعم أتذكرها جيدا.عندما كتبتها كنت أقرأ كتابا عن انتحار كاتو، وقد كنت قرأت من قبل كل شيء عن ميشيما، لم يكن ذلك صدفة، الصدفة فعل تدميري، أنا مؤمن بوجود قدر في كل شيء، كاتو غريب في كل شيء حتى وجوده في الكوميديا غريب، فهو حارس المطهر بينما هو وثني، وقد انتحر بشكل شرس، حيرني كثيرا هذا الأمر، لقد وضع دانتي بروتوس وكاسيوس وهما من قتل قيصر في فم الشيطان ؛ أي أسفل نقطة من الجحيم، كاتو حارب القيصر بكل الوسائل فلماذا يضعه في المطهر؟ليس هذا فقط، بل إن وجه كاتو مضاء بأربعة نجوم هي الحكمة والعدالة والثبات والاعتدال، أي إن دانتي يقول:كاتو هو الرواقي المثالي، أنا كنت رواقيا مثل كاتو، كان لدي نفس الشوق والحزن اللانهائي، لم أفعل ما فعله، وهذا ليس بسبب الوثوق في الموت، لم أفعل ما فعله لسبب بسيط كتبته في تلك الورقة اللعينة.

تذكرت كل هذه الكلمات وأنا أعمل في المزرعة الصغيرة، كان كل شيء جلبه جارنا قد انتهى، وما كان موجودا من قبل انتهى معه، لم أعد احتفظ إلا بالسجائر_لأني أصبحت أدخن كل يوم سيجارة واحدة_وجالون البنزين واسطوانة الغاز، فأنا لم أعد أستخدمها إلا في حالات نادرة، والكثير الكثير من علب الفول جزء منها منتهي الصلاحية، أصبحت المزرعة والعمل فيها هو كل

همي، مع باقي الأعمال الروتينية اليومية مثل التنظيف، وغسل الملابس بأقل كمية من الماء، قبل أيام انتهى عام آخر هنا، مرَّ عامان على ذكرى خروج إخوتي من هذا البيت، عامان من العيش في هذه المساحة الضيقة، عامان من الحصار والقتال العنيف في بعض الأحيان، وفترات أخرى تشهد صمتا كاملا لدرجة أنك تظن أن الحرب قد انتهت، كنا قد وصلنا إلى نهاية المطهر عندما تدهورت صحة والدي، لم يتحرك من السرير إلا إلى الحمام، كنت أدخل معه خوفا من أن يسقط، وفي بعض الأحيان كان يغيب عن الوعي، عندما شعر بخوفي وحيرتي نظر إليَّ بابتسامة كبيرة وقال:لا تخف، لماذا أنت مذعور بهذا الشكل؟إنها الشيخوخة، أربعة وثمانون عاما من تحمل عبء هذه الحياة الثقيلة، لا تخف أبدا وكن قويا، يجب أن تحرر قلبك من الخوف من موتي، أنا لست خائفا منه، وليس لدي ما أخجل منه، ربما يكون في النهاية هو الحب أو النوم المريح، مع أنه خيانة سرية سأقوم بها تجاهك، قال ذلك وضحك بصوت خافت جدا.كانت دموعي قد سبقتني إلى خدي، وضع يده على رأسي وقال:إذا كان الرجل حرا فأجمل ما يقدمه لنفسه هو الموت، لا يمكن تأجيل الموت، لن يحررني أحد من هذا السجن سواه، النجوم تختفي من ليلي الواحدة تلو الأخرى، و قد كنتم أنتم أروع هذه النجوم البعيدة، رأسي المسكين يفتقد إخوتك، عندما تأتي الريح الباردة يجب أن أبحر، لم أتوقع أبدا أن أكون قادرا على تحمل كل هذه

السعادة والتعاسة، حلمت دائما بيوم أنظر فيه في كل الاتجاهات، يوم يدوم إلى ما لا نهاية، هذا اليوم قادم من بين صخور هذا العالم الكئيب، انتهى الأمر لا خوف ولا رغبة، لا تدع الحزن يحملك ببطء نحو فمه، أنا أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، اعطنى هذا الهاتف وجهزه لتسجيل كلمة لإخوتك واتركني لوحدي.فعلت ما طلب وخرجت إلى الفناء، بحثت عن السجائر وأشعلت واحدة، موته بالنسبة لي يعني فشل العالم وإثبات ظلمه ولا أخلاقيته، إن اقتلاع هذه الشجرة الوحيدة التي أجلس تحتها ظلم، و في هذه الظروف بالذات يكون الظلم أكبر، كيف عليَّ يا الله أن أتحمل كل ذلك؟ألا يكفي ما أنا فيه من عذاب؟أنا لا أمتلك هنا حتى رفاهية الصراخ، أبحث عن إخوتي في أرض مهجورة، أكيد أن ما أمر به هو كابوس طويل، أريد أن أستيقظ من هذا الكابوس الذي أسمع فيه صوت العالم من خلال تابوته، هذه المعرفة الحية بالنهاية القادمة أمر لا طاقة لي به، وضعت يدي على فمي كي لا أسمع نفسي وأنا أبكي، كان الألم يصعد من بطني، إلى قلبي، إلى حلقي، كنت خائفا، بل كنت مرعوبا من البقاء لوحدي بدونه، كيف يمكن سماع كل هذا الصمت في البيت، لن أستطيع العيش بدون سماع صوته يهرول في الغرفة وهو ينزلق من كتاب إلى كتاب، من حلم إلى آخر، كنت أتمنى تجنب هذه اللحظة وأنا بعيد عنه، فكيف أتحمل هذه اللحظة وأنا الوحيد بقربه، عندما عدت إليه كان قد وضع الهاتف جانبا، جلست

على حافة سريره أنظر إليه، إلى التجاعيد المصممة بإتقان، إلى العيون الصغيرة الغائرة، إلى الذقن الدقيق، إلى الشفاه المتعبة من الكلام، فتح عينيه وقال:لا تستمع لهذا التسجيل إلا وأنت معهم، أنا هنا معك لايزال لدي بعض الوقت، لم أتوقع أن أعيش كل هذا العمر، ولم أتوقع أن يكون الإنسان الوحيد معي في ساعة موتي هو هذا الأحمق الذي أمامي الآن.ضحكت وأنا أبكي ولم أعرف ما أقول، طلب مني الذهاب بعيدا عنه ليرتاح، ذهبت إلى مكتبه وجلست هناك أنظر إلى الفراغ الذي أشعر به، ظهرت صورة بياتريس أمامي فجأة كنجمة في وسط سمائي المظلمة، أردت من يدي أن تنمو كشجرة وتمسك بيدها، أو أن أضع رأسي على كفها وأنام إلى الأبد، قلبي ثقيل جدا يا بياتريس، ثقيل لدرجة أنه قد أصبح عدوي، شمسه التي تحبينها جفت، لا يمكن أن أحتفظ بها وسط الظلام، خذيني إليكِ بعيدا عن كلمة الموت الغادرة، عن نظرة أبي الضعيفة للنهاية القريبة، عن الرصاص الذي يهطل مع المطر، بعيد، بعيد، عن هذه الريح التي تقف ضدي، عن هذه الجدران التي تقف ضدي، عن هذه السماء التي تقف ضدي، أرجوكِ خذيني إليكِ.

سيطر على البيت جو من الحداد، و السماء بهذا المطر الغزير توافق على وجوده، الموت يسير في طرقه الوحشية وأنا أنظر إليه وأتوقع منه خيانة بلا ضجيج، أبي لا يكترث متى يأتي

الموت بخطواته الصامتة ليأخذ معه رائحة السماء، هنا في هذه الغرفة الباردة، لا أطفال يلعبون عند قدميه، و لا أحد يجلس في السقيفة يرتجف لعدم سماعه صوته، حزين أنا لأنك مهجور في هذه اللحظات، حزين لأنك مهجور ولن تحصل حتى على الحزن المصطنع وغير المخلص لغيابك، من غير صوتك يبقي القطيع سويا، كان الأمل يُزرع في الفناء ويحصل منك على البركة، لا أمل الآن يا أبي بلا دعواتك النقية، أجلس بجانبه على حافة سريره، أراقب الأحلام التي وجدت طريقها إليه، ألم الموت يا أبي لا يشبه ألم الشعور بالإهانة أو المتعة، إنه ألم صريح يخبرنا بكل وضوح أن الحياة أُسِيءَ فهمُها، سر الحياة يا أبي هو الحرمان، كيف يمكن الاستمتاع بالحياة مع هذه اللمسة الميتة في يدها، الآن يتلاشي النعاس في طيات السهر، الآن تتجول بومة الحزن في هذا البيت، كنت أنت الشجرة في هذه الحجرة الضيقة، أنت الشمس في هذا الصدى المؤلم للشوق، أضع يدي على يده، أضع يدي على ركبته، أضع يدي على جبهته، كل عظمة فيه تبتسم في وجهي وتقول:أنت وحيد الآن في هذا الممر الطويل من الحسرة، لا أريدك أن تتخلى عن هذه المدينة التي تخلت عنك، لا تطفئ شمعة فيرجيل في هذا الليل يا أبي، معك أنسى غباء العالم، أنسى ألم حرائق الشوق، أنسى رماد بنغازي الذي يثرثر بآلام كثيرة، كان أبي غائباً وأنا أجمع الألم من على ظهر العمر، أفعل كل شيء بسرعة وأعود إليه أجلس بجانبه، وأحيانا وأنا في المزرعة

أضع رأسي على حضن الأرض وأمنحها كل ما لدي من دموع، الفناء اشتاق إليه، المزرعة اشتاقت إليه، وإلى صوته الذي يطرد شبح اليأس، تمتد فروع كلماته عن دانتي في كل أنحاء الفناء، وتطفو بخفة وسط الدمار والغبار، ما الذي يمكن أن أفعله في وجه الموت؟هذا الوجه المستدير الذي يشبه وجه ميدوزا يسلبنا كل شيء، الموت لا يخفق أبدا في العناوين التي يريد الوصول إليها، في وسط الدخان، في وسط الانفجارات المرعبة، في وسط الجثث المرمية على قارعة الطريق، في وسط البيوت المهدمة، في وسط الرصاص، الموت ينادي على جسد في كل الاتجاهات، يظهر الموت وكأن فمه الفخم لا يكتفي بكل هذا الموت من حوله، روحي المنهكة تركض خلف كلماته التي تمنحها قدرة على ازدراء المرارة، أيام مرت وهو لا يعود من غيابه إلا ساعة أو أكثر ثم يغيب من جديد، لا أدري إلى أين يذهب، ربما يمشي خلف فيرجيل في المطهر، ربما يسمع موسيقا وغناء كازيلا مع دانتي، المهم هو أني هنا بقربه متى ما عاد سيجدني مع الشمعة وخدها الدافئ من كثرة الدمع، أيام أخرى مرت شعرت فيها أنه يطفو على الهواء، بعيدا عن رفوف الألم الباردة، كان الفناء هو ملجأ الحزن، الفناء يتذكر معي حركاته وهو يمشي في متاهة دانتي، الفناء كان شاهدا على تاريخنا الإيجابي كشخصين مختلفين، دائما ما ترك لي الباب نصف مفتوح، لكن أنا كنت أسير بعيدا في منحدرات حزني، في حطام الأيام الكئيبة والمملة، في هاوية هذه الحرب

التي ترتعش فيها الملائكة وتغني أغنية لا نهاية لها، وأنا أسمع بأقصى نبض في قلبي، يستيقظ مرة أخرى، يسخر من الارتباك الظاهر على وجهي، يتكلم عن عيون الحلم المفتوحة، عن صخور شاطئ الصابري، عن جارنا الذي ذهب إلى موعد معلق على صدر الموج، يغيب مرة أخرى، ويعود ليخفف من سرعة ضربات قلبي، ويذهب مرة أخرى ليتركني مع الوقت الذي يكرّس الألفة مع الحداد.

كانت رؤيته بهذه الحالة نوع من الاحتفاظ البصري المؤلم، كل صباح أنتظر أن تعلن شفيته عن عودته، وفي صباح ممطر فتح عينيه، نظر إليَّ ومد يده طالبا المساعدة كي يجلس، لم أتصور أني سأرى يده المرتعشة ترتفع في الهواء مرة أخرى، جلس وطلب كوب ماء، رفض أي طعام من أي نوع، كان مبتسما وكأنه لم يهبط في غيبوبة لا نهاية لها، حضرت القهوة لنفسي وعدت، كان يحرك أصابع يده اليمنى في راحة يده اليسرى، كان يلتفت يمينا ويسارا كأنه يبحث عن شيء ثم قال:هذه المرة الأخيرة التي سنتحدث فيها عن دانتي، لن أتركك وفي قلبي دين لدانتي، كان لدي دائما هذا السؤال:هل اللوحات والبورتريهات التي يصور فيها شخص دانتي تشبه دانتي فعلا؟هذا الأمر أخذ من وقتي وجهدي الكثير، هناك من يقول هناك تشابه، هناك من يقول هناك تشابه بسيط جدا وفي بعض البورتريهات لا يوجد تشابه على الإطلاق،

و البعض يقول إن هناك تشابهاً كاملاً، هذه متاهة أخرى، ربما تكون اللوحات التي رسمت كلها لم تكن سوى مجرد إرضاء لفضول القراء، وقد تكون كلها رسمت بعد موته، لكن ما يمكن فعله هو تقسيم اللوحات التي تم رسمها في حياة دانتي وتلك التي رسمت بعد تاريخ موته، نحن نعلم أن رسم المشاهير في تلك الفترة كان مصدرا للرزق والفخر، ومع ذلك مازال الأمر معقدا جدا، في البداية كنت أعمل على هذه القضية من باب التسلية، لكن مع الوقت أصبح الأمر جديا أكثر فأكثر، قرأت كل شيء عن الموضوع وبدأت أجمع البورتريهات من الكتب وقمت بتصوير البورتريهات عندما كنت في إيطاليا، لقد وجدت نفسي في متاهة أخرى، وأصبحت أدور في دوائر صعودا إلى الحقيقة، في الرسم لا تبحث عن صورة طبق الأصل، هذا مستحيل مع تغير الإنسان من يوم إلى آخر، في الرسم يجب أن تبحث عن الأصالة، في غرفة الطباعة في متحف ميونخ يوجد رسم مبدئي لدانتي، تاريخ هذا الرسم غير معروف، البعض نسب الرسم إلى ماساتشو، لكن في عام 1869 أرجعه البرفيسور إرنست فريستر إلى دومينيكو غيرلانداجو عاش ما بين 1449-1494 البروفيسور أكد أنه عمل أصلي من فن فلورنسا في القرن الخامس عشر، بعدها تم طبع كتاب لدانتي في عام 1521 وعليه صورة له محفورة على الخشب، لكن وضع إكليل الزهور على رأس دانتي يشكك في حقيقة هذه الصورة ويجعلنا نستبعدها، الغريب حقا هو أن الكوميديا وبعد طبعها

بخمسين عاما تقريبا، لم تحمل طبعة منها رسما واحدا شخصيا لدانتي تم التأكيد على أنه أصيل وقريب جدا من الحقيقة، القضية تزداد تعقيدا عندما نعرف أن وصف بوكاتشيو لدانتي لا يوجد عليه دليل واحد، ولا يرقى هذا الوصف للحديث عنه كدليل قوي، أما اللوحات التي تصور دانتي في الجحيم والمطهر والجنة فلا قيمة لها على وجه الإطلاق، فهي رسمت خصيصا لطبعات شعبية من الكوميديا بين عامي 1500 و1600م، تطبع هذه الطبعات الشعبية في ايطاليا وحدها، بل في فرنسا وهولندا وإنجلترا وألمانيا، دانتي لم يكن إمبراطورا أو أسقفاً ليتم رسمه من قِبل الفنانين الكبار، كل سنوات شهرته عاشها في المنفى هاربا ومطلوبا لتنفيذ كم الإعدام فيه، في العصور الوسطى كان الكاتب آخر هم الفنانين الكبار، وقد قال ميلتون عام 1825 أشك أن كل هذه البورتريهات تنتمي إلى رجل فخور للغاية وحساس للغاية، على مر التاريخ كان هناك تحيزٌ للطابع الهائل للكوميديا الإلهية، وتحيز للطابع المعماري المكتنز لهذا العمل الجبار، كانت الكوميديا تقارن بالكاتدرائيات القوطية من ناحية بنيتها القوية، لكن لم يجد العالم بورتريها واحدا أو نقشا واحدا تقارن به كل تلك الصور المبتذلة لدانتي، في كثير من الأحيان يرسم الفنان صورة خاصة موجودة في عقله وليس صورة طبق الأصل لأي شيء، الفنان يسيطر على الموضوع وليس العكس، في اللوحات الأدبية بالذات هناك رؤية معقدة وشخصية لموضوع اللوحة، هل دانتي الواقف

على الجسر هو الشكل الحقيقي لدانتي؟هل بياتريس التي مرت أمامه مع صديقاتها هو الشكل الحقيقي لبياتريس؟دانتي وبياتريس موضوع أدبي، قوة الحب تولد الاختراع، لهذا يمكن اعتبار اللوحة الأدبية مجرد استعارة ينحرف بها الفنان عن قول الواقع كما هو، هذه اللوحة الأدبية شخصية للغاية ولا علاقة لها بشكل دانتي وبياتريس الحقيقي.

كنت أنظر إليه وهو يتكلم بهدوء، لم يكن أبدا ذلك الرجل الذي يوشك على الموت، كنت أنظر إلى شخص من عالم آخر، كان لدي إحساس متشائم من هذه العودة المفاجئة، لكن أبعدتها من خيالي وأنا منتبه تماما لكل كلمة يقولها، لم تتوقف أصابع يده اليمنى عن الحركة في راحة يده اليسرى وهو يكمل قائلا:هناك سمات مشتركة بين كل البورتريهات التي رسمت لدانتي، الميل للأمام أثناء المشي، الوجه الطويل، الأنف الذي يعطي انطباعاً بأنه مكسور، هكذا يظهر في جدارية جيوتو وهي أقدم رسم لدانتي، يقال أن دانتي بعد رحيل بياتريس أهمل نفسه وأطلاق لحيته، لم تقبل بياتريس بذلك وقامت بتأنيب دانتي على هذا الإهمال في المطهر، لكن كل هذه الأمور قد تم الاستناد في تصويرها على كلمات الكوميديا، لا شيء مؤكد في كل هذه الحالات، لقد تناول الكثيرون قضية لون شعر دانتي، أشقر، أسود، أو أن شعره قد شاب أثناء فترة النفي، كل هذا يجعل من الموضوع لغزا

محيرا ومتاهة واسعة لا يمكن الخروج منها، لكن الأكيد هو أن قناع الموت في متحف بارجيلو في فلورنسا هو لوجه دانتي . في تلك الفترة كانت توضع بجانب المتوفى صورة له، النحات يقوم بوضع الجبس على وجه الميت، وبمجرد أن يجف يصبح هذا القناع صورة طبق الأصل لوجه الميت، وعندما تم اكتشاف عظام دانتي في عام 1865 توافق القناع مع وجه دانتي، لقد لبس دانتي قناع الموت ليكتب الكوميديا الإلهية، كما لبس يوكيو ميشيما قناع الموت ليصرح بكل ما أراد الاعتراف به، الصورة الشخصية الوحيدة لدانتي هي صورة الموت، هذه الصورة لا تظهر الملامح بكل تفاصيلها الدقيقة ؛ لهذا هي صالحه لطقوس الاعتراف، ما أود قوله الآن هو أن كل هذه الصور التي تراها لي في البيت، هي صور مزيفة وليست حقيقية على الإطلاق، الصورة الوحيدة الحقيقية هي التي سأخبرك عنها الآن وهي نفسها قناع موتي، يجب أن تُلف كل الأوراق في هذه اللحظة، روحي مثقلة للغاية ولا تستطيع القيام برحلتها إلا إذا قمت بالحديث من خلف قناع الموت، الآن يجب أن يذوب الحزن ويجف مع جبس القناع، الآن سأتحدث عن رحلة فرنسا التي لم يسمع عنها إنسان كلمة واحدة، هذا هو سري الذي أردت أن يدفن معي عندما فكرت في الانتحار كما أخبرتك من قبل، أشار إلى كوب الماء، وضعت حافة الكوب على شفتيه فبللها فقط وعاد للحديث قائلا: كنت في فرنسا بداية عام 1961، شاب صغير يشبه الماء النقي،

لم يفسدني شيء في هذه الحياة، كانت باريس بأناقتها الناعمة والحزينة صدمة بالنسبة لي، لم أكن ضعيفا أمام باريس فأنا ذلك الرواقي الذي يشبه كاتو، في كل تصرفاتي صلابة وثبات لا تحركهما أي عاطفة، لكن كنت وحيدا وحزينا مثل كوخ على ضفة نهر، حدث اللقاء بيني وبين كوليت في الجامعة، كانت أستاذة في تلك الفترة قبل أن تحصل على الدكتوراة في الآداب بعد سنتين، كان لها وجه وردي جميل، وبارعة للغاية في كل شيء، عندما سألتها عما أريد أخذتني إلى المكان الذي أريد الوصول إليه، لم تكن قد سمعت أي شيء عن ليبيا، ولا حتى أنها كانت مستعمرة من قِبل إيطاليا، بعدها التقيت بها عدة مرات في المقهى، ودائما كان الحديث حول اللغة الفرنسية وليبيا البلد المجهول تماما، بعدها أصبحت اللقاءات خارج الجامعة، كانت أكبر مني سنا بسنوات كثيرة، في البداية كنت أنظر إليها كشخص شهم يساعد شابا غريبا وقليل التجربة، بعدها أصبحت أخاف من شفقتها عليَّ، لكن وفي نفس الوقت كان لجمالها وقوتها وحريتها المتطرفة أثر كبير على روحي، هي من علمني قراءة دانتي، هي من علمني الجرأة واليقظة عندما أتعامل مع الأدب، قرأت معها الكثير من الكتب، نجلس ساعات في بيتها أو في غرفتي نتحدث عن الكتب، كان لديها ومضات مفاجئة من السحر والفكاهة، لقد وقعت في حب كوليت، وأصبت مولعا بها وبكل كلمة وحركة منها، إذا كنت تريد سماع أن هذا كان خطأ ارتكبته وأني لست

إلهاً لا يخطئ ؛ فأنت في الحقيقة مخطئٌ جدا، هذا أجمل ما فعلته في كل حياتي، لمن تريد أن تعيش إذا لم تكن لديك مثل هذه المرأة وهذا الحب، وهو نفسه الحب الذي ستتعلم منه كيف تتألم وتعاني في صمت، نحن أبناء السلالات الحزينة لا نستمتع إلا بفاكهة الأسى، لم أتردد كثيرا أخبرتها بكل شيء، هذا ما تمليه عليّ رواقيتي الشرسة، صُدمت وخرجت من عندي ولم أرها لمدة شهر تقريبا.

لم يكن العيش يائسا وأعاني من الحب سرا خيار بالنسبة لي، عدم تحوّل المشاعر إلى شكل ملموس يسبب الموت دون ضجة، خلال هذا الشهر عرفت معنى الوحدة والعزلة أكثر من أي وقت في حياتي، أصبحت غربتي مضاعفة، وشعرت بالانكسار، لكنها ظهرت بعد شهر لتخبرني أنها هي أيضا تحبني، حاولت إبعاد هذه الفكرة من رأسها بكل الطرق، لكن في النهاية شغفها كان أجمل من كبريائها، وفي نفس هذه اللحظة طلبت يدها للزواج، ضحكت وقالت:أنت تمزح، ونظرت إلى وجهي جيدا وقالت:أنت لا تمزح، أنت حقا من نسل الأسود الليبية التي تتحدث عنها دائما، نعم تزوجتها، الوجود بجانبها كان بمثابة الربيع الذي يزين الأرض، وبحيرة تمزق قلبك إلى قطع بسبب جمالها، كانت تحب الحياة البسيطة والأشياء البسيطة، تهتم فقط بفلسفة التفاصيل الصغيرة وشغف التجربة، كنت أنتظر أن

تكبر أكثر لألمس وأقبّل تجاعيدها، لأثبت لها أني لن أتركها وأنها لن تنتهي صلاحيتها، كانت تقول هذه الكلمات بجدية مغلفة بمزاح أعرفه جيدا، لكن المرض لم يمنحني هذه الفرصة، كان المرض أكثر شراسة من الأسد الليبي، بعد حصولها على درجة الدكتوراة لم تفارق البيت، وأنا بقيت إلى جانبها كظلها، كنا نقرأ كل الكلاسيكيات من جديد، ومنها الكوميديا الإلهية، دائما الطريق تعود بنا إلى الكلاسيكيات بطريقة عجيبة، كانت في كل يوم تنحني أمام قبضة المرض الرهيبة، في النهاية وبعد نضال مرير أخذها الموت وتركني ضحية لآلام لا توصف، لم أكن أنوي العودة إلى هنا أبدا، لكن قررت العودة فلم يعد لدي ما أفعله في باريس، تخرجت لكن هذا التخرج لم يكن يعني أي شيء، تعلمت لغات أخرى من أجل روحها فقط، أتقنت هذه اللغات لأتقن الاستماع إليها وهي تتحدث بالإيطالية عن دانتي والفرنسية عن بودلير والألمانية عن هاينه وهو في فراشه ينتظر الموت، تزوجت أمك بضغط من جدتي التي لا أستطيع رفض طلب لها، كان الأمر شاقا جدا عليَّ وعلى أمك، لكن طيبتها واحترامها لحزني أجبرني على البقاء معها، كانت هناك مودة كبيرة وحميمية، لكن كوليت كانت دائما موجودة ولا تغيب أبدا، فكرت في لحظة ما في إنهاء هذا العذاب، لكن الوقت كان قد تأخر كثيرا، كتبت سبب عدم قدرتي على فعل ذلك في تلك الورقة وجمعتها مع صورة لي مع كوليت ودفنتها في كتاب نسيت حتى اسمه الآن، لكن لم

أنسَ أبداً كوليت ولا ابتسامتها الضائعة، اخترت الوحدة والعزلة بدل الموت، لكن للأسف لم أستثمر هذه العزلة أبدا، هذا هو اعترافي من خلف قناع الموت، ليس هناك ما أخجل منه في كل هذا، الآن يمكن أن أرتاح لقد أعلنت الحقيقة، وآن الأوآن لقلبي أن ينكمش على ما تبقى فيه من حزن، قال ذلك ومسح دمعة صغيرة كانت واقفة على رمش من رموشه، قمت بمساعدته وهو يضع رأسه على الوسادة، وجلست مرة أخرى على حافة سريره، لم ينتظر مني تعليقاً، لم يهتم بردة فعلي، أغمض عينيه وذهب في رحلته إلى كوليت، كانت كلماته قاسية وجريئة وفيها كل غضب العاشق، شعرت بكآبة متعاطفة معه، لقد كلف هذا السر والدي الكثير، كان يعيش بيننا كغريب، يعتقد الناس أن سبب عزلته هو كراهية الناس جميعا، وأنه كئيب ومتشائم، لكن الحقيقة هي أنه كان يحمل هذا السر كشجرة لا تحتاج إلى تقليم، عاش عزلته مع كوليت، وضعها في قلبه كلوحة يقف أمامها طول الوقت ويتأمل في تفاصيلها، شعرت أني أحبه أكثر بعد هذا الاعتراف الذي بلل هذه الأرض المتفحمة، يمكن للإنسان تحمل أعباء العالم، الحرب، الجوع، الفقر، لكنه لا يستطيع تحمل خسارة الحب، الليالي تتحرك وهو في عالمه الخاص، أضع القطن في الماء وأقطر بعض القطرات في فمه الجاف، توقفت عن فعل كل شيء، كأن على ظهري حجراً ثقيلاً يمنعني من الحركة، قلبي كان ينزف مع المطر وعقلي المتمرد دخل في صمت طويل، كنت أتكلم معه

وهو مع دانتي في الرحلة إلى بياتريس وكوليت، أنا هنا يا أبي حيث تركتني، هنا معي قناعي وحزني، أنتظرك ومعك كلماتك المألوفة، أنتظرك ومعك الارتجال الحميم لقول كل شيء، بعد أربعة أيام استيقظ والتفت نحوي وهو يمد يده، مددت يدي إليه، أمسكها بقوة ورفع رأسه من على الوسادة قليلا مستخدما كل ما تبقى لديه من قوة وقال بصوت خافت:استثمر عزلتك، استثمر عزلتك هل تفهم، نطق بعدها بالشهادتين وغاب هذه المرة بشكل نهائي، لقد وصل إلى نهاية الرحلة، اشتعلت في قلبي نار لا يمكن لكل هذا المطر أن يطفئها، جرفت دموعي كل شيء في طريقها، موته تركني مثل كومة من القش على حافة السرير، لم أتخيل أن الموت جليل ووحشي إلى هذه الدرجة، مر وقت طويل ورأسي على صدره، بعدها وضعت يده اليمنى وفوقها اليسرى على صدره وخرجت من الغرفة ومعي كل تاريخ هزيمة الإنسانية أمام الموت، في الفناء نظرت إلى السماء وقلت بصوت مرتفع:ساعديني يا الله، أرجوك ساعدني، لقد وصلت إلى نهاية صبري وتحملي لكل هذا الألم.

جلست على الكرسي، أنا مجبر على الجلوس في هذا المكان، ليس أمامي سوى التفكير فيما يجب أن أفعله، سأقوم بدفنه في هذا الفناء، هنا بجانب المزرعة الصغيرة التي يحبها، أحتاج إلى تابوت، لم يكن أمامي سوى التفكير في هذا الأمر وانتظار تراجع

ظلال الليل أمام خطوات الصباح القادم ليهز غبار الألم، ومع أول خيط من الضوء دخلت إلى المخزن وأخرجت كل الخشب الذي فيه، أخذت ما يلزم من صندق الأدوات لصنع تابوت، دخلت بالخشب إلى غرفة المولد العازلة للصوت، قطعت الخشب وجهزت التابوت بأفضل طريقة ممكنة، خرجت إلى الفناء وأنا أجر التابوت ووضعته تحت الجزء المسقوف، بدأت في اقتلاع جزء من بلاط الحديقة وعندما انتهيت، جلبت الفأس والمجرفة وبدأت الحفر، كانت الشمس الشتوية فوق الفناء تماما عندما انتهيت من الحفر، جلست على الكرسي لأستريح قليلا، انخرطت في بكاء لا أدري متى انتهى، كان جسدي كله يتأوه من فرط الألم، عليَّ أن أقوم بتغسيله، عليَّ أن أنظر إلى جسده في لحظته الغامضة والأكثر خطورة، جسده الذي عزله الموت في لحظة كسوف تشبه الخطأ، دخلت إلى البيت وذهبت مباشرة إلى طاولة الأكل في ركن الصالة، رميت المزهرية التي كانت فوقها والمفرش وجررتها إلى أن أصبحت في وسط الصالة، نظرت إليه وإلى تلك الكلمات التي كانت تنام في فمه، الموت نفسه ليس صعبا يا أبي، هذه الذاكرة المطلقة هي جوهر وعورة الموت، الذاكرة التي تشدد على الغياب الصارم، هذا هو المنحنى الأكثر وضوحا من الحياة يا أبي، منحنى الموت الذي يدور ليشكل متاهة ليس لها مخرج، حملته ووضعته على الطاولة، بدأت في خلع ملابسه، غطيت عورته بقطعة قماش، وجلبت الماء والصابون من الحمام، كنت أفعل كل ذلك وروحي

في حلقي، حاولت منع نفسي من البكاء، لكن في النهاية بكيت لرؤية جسده عاريا من الحياة أمامي، بكيت من فساد الحياة في اللحظة غير المناسبة، كنا نحافظ أنا وأنت على المسافة الطفيفة بيننا وبين الخارج، المسافة الآن ليس لها وجود، في الخارج موت وهنا موت وهذا ما يجمد شعوري بالحياة، أسكب الماء على رأسه ببطء، ها أنت يا أبي صامت، هناك أنت وراء كل شيء، وراء الكتب والكلمات والحب، هناك على الجانب الآخر من كل شيء، كأن موتك كذبة يجب أن أصدقها، كأنه حلم عليَّ أن أعتبره نبوءة ترسم القدر، أسكب الماء على الجانب الأيمن، أراك الآن كحصاة بيضاء في عالم مظلم، حصاة بيضاء تتكلم من داخل صمتها، أنت من يعرف السطر الأخير جيدا، أنت من يعرف النهاية الشفافة التي تشبه موتك الآن وفي هذا المكان، أسكب الماء على الجانب الأيسر، ها هي رحلتك قد بدأت، كنت عاشقا للمشي في شوارع المدينة حيث الحياة أجمل، وها هي الآن في تابوت إلى جانب تابوتك، كل شيء فيها توقف عن الأنين ودخل في صمت الموت، أعتقد أنك سعيد الآن يا أبي، لن تخرج من بيتك حتى بعد موتك، لا جنازة ولا طابور للعزاء، لن تجد صعوبة في حب مكانك الجديد، إنه بجانب الحقل الصغير الذي زرعناه، هذا الحقل الصغير أصبح واسعا بشكل غير متوقع، الآن يمكنك السير فيه مع دانتي بحرية، أكملت مراسم التغسيل، وجلبت ملاءة بيضاء نظيفة وضعتها على سريره، ثم حملته ووضعته

في وسطها، قمت بلف الملاءة حوله جيدا وعقدتها من عند رأسه ومن عند قدميه، سمعت الرعد في الخارج واعتقدت أنه بعيد فوق البحر، تجمعت الغيوم كأنها تريد أن تمشي في جنازته، حملته وأنزلته في التابوت وأغلقته جيدا، كان لابد من جره إلى القبر، أبعدت كل شيء قد يعيق تحرك التابوت إلى الأمام، وأنا أجره هطل المطر فجأة وبغزارة، لم أتوقف جررته إلى أن وصلت به إلى القبر، وضعت التراب حتى ارتفع إلى حافة القبر في الجانب الآخر حتى لا يسقط التابوت بقوة، نزعت ملابسي العلوية ورميتها، كنت قد أصبحت مبللا تماما بالماء، جررت التابوت ونزلت به إلى القبر، هبط في الجهة الأخرى على التراب برفق، سحبت بيدي التراب من تحت التابوت ورميته خارج القبر، وخرجت أنا أيضا، نظرت إليه النظرة الأخيرة، الوداع يأبي، ها قد وصلت إلى عزلتك الأخيرة، ثم أخذت المجرفة وبدأت أُهيلُ التراب على التابوت، لم يتوقف المطر ولو لحظة واحدة، كان جسدي خارج الزمان والمكان، لم أشعر بأي شيء على الإطلاق، لا البرد ولا المطر ولا التراب الذي يمسحه المطر من على وجهي، وعندما انتهيت شعرت أني فعلت كل هذا بقوة خفية وصبر عجيب، فجأة خارت قواي وروحي أصبحت منهكة لدرجة الموت، سقطت على ركبتي، مددت يدي إلى أن أصبحت راحة يدي على القبر، وانفجرت في بكاء لا نهائي بعبرات لم يسبق وأن عرفتها من قبل، رفعت يدي إلى الأعلى وصرخت لماذا؟لماذا هنا والآن؟عصرني البكاء إلى

أن استقرت جبهتي على تراب القبر المبلل بماء المطر، بعدها نهضت وسرت إلى داخل البيت، خلعت كل ملابسي وذهبت إلى السرير ورميت بنفسي عليه، ولم أستيقظ إلا بعد يوم كامل.

لمدة أسبوع تقريبا وأنا لا أعرف الوقت، أنام ثم أستيقظ ثم أنام في ظلام يعكس واقع ما أعيشه، الفتيلة لم يضف إليها زيت فانطفأت، عندما أستيقظ في الظلام لم يكن يمنعني من الذهاب لأي مكان في البيت، لقد تعودت على الأمر مع الوقت، أسير في الظلام إلى المكتب وأقف لفترة من الوقت ثم أعود إلى السرير، أحيانا أجد نفسي أمام القبر عارياً وحافياً وغير مدرك لما حولي، لقد أصبح الانغماس في العزلة والوحدة نهائيا، وفي واحدة من هذه الليالي ذهبت إلى المكان الموجود فيه المسدس، أخرجته وذهبت إلى الفناء وسقطت على ركبتي، وضعت فوهة المسدس على رأسي فوق أذني تماما، شعرت بأن أمامي طريق مفتوح يناديني:تعال، فكرت في توديع الحياة قبل أن تنتحر هي أمامي، لم تكن يدي ترتعش أو أي شيء من هذا القبيل، ولم أكن خائفا من الموت، بل كنت خائفا من التمزق المأساوي الذي أعيشه وقد يكون الموت هو المخرج منه، روحي جفت في هذا الخراب، أحتاج إلى ممر تخرج منه روحي إلى مكان أوسع، وضعت إصبعي على الزناد، بالكاد كنت أتنفس عندها ظهر وجه والدي أمامي وهو يهز رأسه بأن لا تفعل، أنزلت المسدس إلى حجري كي أتخلص من

صورته ثم رفعته مرة أخرى، لكنه ظهر بسرعة وعلى وجهه تنعكس صورة بحيرة تمزق القلب إلى قطع بسبب جمالها، وقام بنفس الحركة مع أسف شديد على وجهه، أنزلت المسدس وهذه المرة لم أستطع رفعه إلى رأسي، كانت دموعي تخبره بأن هناك صخرة في قلبي، وأني تعبت من ساعات الصمت الخانقة، وأن الحياة لم يعد لها أي لون وتشبه الوخز في الحلق، أرجعت المسدس إلى مكانه وعدت أنا أيضا إلى السرير، استيقظت وأنا أسمع والدي يقول:استثمر عزلتك، هل تفهم استثمر عزلتك، لم يكن حلما، لم يكن وهما لقد رأيته مثل نقش حميم على جدار الزمن، قلت بصوت مسموع:ما الذي تريدني أن أفعله أخبرني أرجوك؟أنا في مكان مهجور خارج الزمن، في متاهة لا نهائية من الألم، ما الذي يمكن أن افعله؟ما كنت متأكدا منه هو أنه غير راض عما أفعله الآن، ذهبت إلى حيث الماء المتبقي من طقوس التغسيل، خرجت إلى الفناء وجلبت أحد الأواني التي أضعها لجمع مياه الأمطار وأضفت ما فيه للماء في السطل، دخلت إلى الحمام واستحممت بالماء الذي يجمد الأطراف، وارتديت بعض الملابس، عندما دخلت إلى المطبخ رفعت إسطوانة الغاز كانت ثقيلة بعض الشيء، جهزت القهوة وخرجت إلى الفناء وأشعلت سيجارة، نظرت إلى القبر وقلت له:هل أنت راض الآن، أنا أشعر بالشوق إليك، هذا الصمت بيننا يرعبني، أشتاق إلى كلماتك المبهرة التي كانت تقفز في هذا الفناء بثقة كبيرة، لمس الهواء البارد وجهي وأنا أدخن على

مهل، كان في قلبي إحساس بقسوة العراء الذي أعيش فيه، أنا في أرخبيل ضيق مع ريح هوجاء، نصفي تحت الأرض والنصف الآخر فوق الأرض، عليَّ أن أتعلم تفاصيل الشعور بهذه الحالة، عليَّ أن أعيش مع قلب يجب أن يظل صامتا، يجب أن تتحول العزلة من موقف إلى شغف، من المؤلم أن تكون العزلة هي شغفك، لكنه ألم حميم وأجمل من الآلام الأخرى في هذا العالم، قررت أن أخبر إخوتي بموت والدي، ليس لدي ما أخافه الآن، الذي كنت أخاف عليه من موتي ها هو أمامي في قبره، سوف أذهب هذه الليلة إلى أقرب نقطة من الطريق العام، شغلت المولد وشحنت الهاتف، جهزت ملابس سوداء واخترت النقطة التي يجب أن أصل إليها، هناك صيدلية مقابلة لمحطة البنزين على الطريق العام، وضعت خريطة في رأسي للوصول إلى هناك، الساعة الثانية بعد منتصف الليل لبست ملابسي وقبعة صوف سوداء، وضعت المسدس تحت ملابسي وأخذت «كرتاً «من فوق المكتب لتعبئة الرصيد، ذهبت إلى قبر والدي وأخبرته أني ذاهب وقد لا أعود، كانت يدي على القبر عندما قلت:سامحني لابد من إخبارهم وإقامة عزاء يليق بك، هذا هو عزائي الوحيد الآن، أنت في الحقل الصغير، النباتات ستعتني بك جيدا، لن تكون وحدك، سوف تنمو قربك حياة كاملة أكثر هدوءاً من هذه الحياة، خرجت من الباب الأمامي للبيت وأغلقته، شعرت بغرابة من وجودي في الشارع بعد أكثر من عامين، مشيت ببطء شديد بجانب جدران البيوت،

وصلت إلى الجامع ومنه مباشرة إلى حيث كان فرن سعد بوبا، أتذكره الآن جيدا وهو في الحفرة أمام فتحة الفرن القديم، يسخر منا جميعا وينادينا بأسماء أمهاتنا لاستفزازنا، يضحك طول الوقت غير مكترث بحرارة الفرن، تركته ومشيت محاذيا لزاوية البهلول، اكتشفت أنها كانت مهدمة وأصبحت ركاما، درت حول الحديقة وأخذت الشارع المقابل، لم أسمع صوتا ولم أرى أو أشعر بأي حركة، فقط صوت الريح والمطر الذي بدأ يهطل بنعومة.

وصلت إلى النقطة التي أريد الوصول إليها، خلف الصيدلية في بقعة مطلة على الشارع العام، جلست القرفصاء وشغلت الهاتف، أخرجت الكرت الذي كنت قد كشطت عنه ما يحجب الأرقام، بعد ثواني كان لديَّ تغطية ضعيفة لكنها تفي بالغرض، قمت بتعبئة الرصيد واتصلت بأخي الأكبر، رن جرس الهاتف إلى أن انقطع الخط، اتصلت مرة أخرى وهذه المرة رد، كان نائما وعندما جاء صوته يسأل إن كنت أنا فعلا قلت بصوت خافت:ليس لدي وقت، يجب أن تسمعني جيدا، الوالد انتقل إلى رحمة الله، لقد دفنته في فناء البيت، عليكم أن تقيموا مراسم عزاء له، أنا بخير لا تخف وأرجو أن تكونوا جميعا بخير، أغلقت الخط ونظرت إلى الأضواء البعيدة، فتحت الهاتف من جديد ووصلت إلى رقم بياتريس، حدقت في الرقم بضع ثواني ثم أغلقت الهاتف من جديد، لم أكن أعرف ما أخبرها به، قد تكون نسيت كل شيء

عني، ربما قد حذفت حتى رقم هاتفي، يكفي ما أنا فيه من عذاب، لن أتحمل صدمة أخرى إضافية، وأنا في طريق العودة لاحظت أن أبواب البيوت مفتوحة، وأن الكثير من البيوت قد أصبحت ركاماً من التراب، لم أشعر بالرعب من اكتشاف أمري أو موتي، لكن شعرت بالرعب من كل هذا الخراب، عندما وصلت إلى الجامع توقف المطر وظهرت النجوم في السماء، تذكرت جارنا وقوله إنَّ عدد هؤلاء المجرمين يصبح أقل في الشتاء، هم أيضا يعانون أكثر مني، لم تعد سياراتهم تتحرك بسبب نقص البنزين، وسحبهم كل البنزين من السيارات المتبقية في الشوارع لم ينفعهم كثيرا، الإمدادات تكاد تكون متوقفة منذ فترة، الجيش استنزف كل قواهم ومعنوياتهم، أخيرا وصلت إلى البيت، فتحت الباب وذهبت مباشرة إلى والدي ليعلم أنني بخير وقد عدت سالما من هذه المغامرة، بعدها دخلت وخلعت ملابسي ونمت، لكن استيقظت مرة أخرى على صوته وهو يقول:استثمر عزلتك، وهذه المرة كان يقولها بغضب، فكرت قليلا في المقصود بكلماته وفي النهاية خرجت من السرير، إذا كان ولابد من الاستمرار هنا فعليَّ أن أرتب كل شيء من جديد، أخذت معي بقايا قهوة يوم الأمس وبدأت العمل في المزرعة الصغيرة من جديد، وأنا أقوم بجمع النباتات الضارة تذكرت قول والدي:أنا لم أستثمر عزلتي، ما الذي لم يفعله والدي في عزلته؟فجأة توقفت عن العمل وكأن السماء انشقت وهبط ملاك ليهمس في أذني:الكتابة ؛ والدك

لم يكتب بعد كل هذه السنين من القراءة، تركت كل شيء من يدي وذهبت إلى الكرسي وجلست، قلت لنفسي، والدي كان قادرا على الكتابة، لكنه أحب القراءة أكثر، ولم يستثمر هذه القراءات في كتابة أي شيء، عرفت الآن ما يريده والدي مني:أراد أن أكتب، لكن ما الذي يجب أن أكتبه؟هل أراد أن أكتب شيئا معينا؟تذكرت في هذه اللحظة قول كافكا:ليس عليك أن تخرج من المنزل ؛ فقط اجلس إلى الطاولة واستمع، أو لا تستمع، انتظر، أو لا تنتظر، كن صامتا وحدك، العالم سوف يأتي إليك ويُمكِّنك من خلع قناعه، لا يستطيع العالم أن يرفض.نعم هذا ما سوف أفعله، أجلس وأستمع وأنتظر، هذا كل ما يتطلبه الأمر، هذا ما أريده بالضبط خلع قناع العالم، أريده أن يفعل كما فعل دانتي ويوكيو ميشيما ووالدي، أريده أن يعترف بأنه ظالم، وبأن صمته لا يعني غياب الضوضاء، بل يعني الرعب والخوف، هناك تاريخ من الصمت تكثف وأصبح ثقيلا ومقززا، صمت العالم ليس هو صمت العزلة الحميمة، صمت العالم يعني صمت التاريخ، هناك جرائم منسوجة من الصمت، صمت العالم يعني أنه قد تحول إلى قبر، سوف أجلس وأسمع وأنتظر، فهمت يا أبي ما تريده تماما، الهدوء والصمت الداخلي والانتظار هذا كل ما يتطلبه الأمر، وهذا ليس بالأمر الصعب في مثل هذه العزلة.

في الأيام التالية كان الصمت يلف كل شيء، لا اشتباكات

أو أصوات انفجارات بعيدة، لا شيء سوى صوت الرياح الباردة ودقات قلبي، قررت أن أكتب رسالة أخيرة لبياتريس، لعلها تكون بداية لكتابة شيء ما في الأيام القادمة، دخلت المكتب وأخرجت ورقاً أبيض وقلماً، وجلست أسمع وأنتظر، و فجأة أخذت القلم وكتبت:

عزيزتي بياتريس

الناس يتمنون الحصول على مكان منعزل وصامت، مكان خاص وسري وليس هناك ما يربطه بضوضاء الحياة، الناس يدفعون أموالاً طائلة ويطيرون آلاف الكيلو مترات من أجل الحصول على هذا المكان، أنا لم أذهب إلى أي مكان، لم أدفع درهما واحدا ووجدت نفسي في هذا المكان المولع بالصمت، وهذا يذكرني بكتَّاب القرن التاسع عشر الذين لديهم هوس بالغرفة الصامتة، والدي مات وهذا أمر يصعب الحديث عنه، لكن ما يمكن قوله هو أن الإنسان يعتبر الموت أمرا مألوفا، بل ينظر إليه على أنه أكثر الأمور ألفة في هذه الحياة، لكن عندما يموت شخص يحبه يصبح الموت غريبا ويشبه سكينا حادا، يقال إنَّ الخلفية ليست مهمة في النحت، لأن المنحوتة منفصلة ومستقلة عن الخلفية، هذه الخاصية في النحت هي ما جعل قناع الموت مقبولا لتمثيل الميت، في النحت تظهر الشخصية بلا خلفية تضيف عليها أو تسلب منها أي قيمة،، فإذا فصلنا خلفية الحرب والموت والدمار،

فهذا يعني أني في عزلة معكِ وحدكِ، أو في حالة حنين أبدي إلى وجودكِ، هذه هي مشكلة الحب يا بياتريس، الحب يعشق الميتافيزيقا، يعشق أن يكون مزيجا من المأساة وقوة تحمّل هذه المأساة، العزلة ملهمة إذا تعلّق الأمر بالكتابة أو الحب، لكن هذه العزلة التي أعيشها لا تشبه عزلة الصوفي الذي يبحث عن غرفة مهجورة أو مصلى مظلم ليعيش فيه، أنا في عزلة وسط حرب، أعيش الصمت في أكثر مكان تتصارع فيه الأصوات، لكن هذه الأيام بالذات الصمت داخل وخارج البيت، هذا الصمت يشبه صمت الطبيعة، كأن العالم أراد أن يستمع إلى نفسه هذه الأيام، أتذكر الآن الصمت الذي يعيشه «شون بين» في فيلم شجرة الحياة، صمت وعزلة وسط ضجيج الحياة اليومية، تنتقل الكاميرا بعدها إلى الطبيعة، شون بين يمشي ببطء بين الصخور وعلى الرمال، الطيور في الجو تصنع أشكالا سحرية، صوت يقول في بداية الفيلم:الناس يمشون في طريقين في هذه الحياة، طريق الطبيعة أو طريق النعمة، وما عليك سوى أن تختار أحد الطريقين، هذا ما يقوله الفيلم لكن عندما يموت أبوك أو أمك أو ابنك يصبح هناك طريق ثالث، طريق العزلة والصمت الذي لا يشبه صمت الطبيعة في شيء، الصمت الذي يمكن اعتباره اختباراً لقوة الحب، أنا وأنتِ مررنا بهذا الاختبار الصعب، صمت لا يشبه صمت الصوفي في قبته المهجورة، ولا صمت الراهب في الدير البعيد، ولا الصمت أثناء زيارة قبر، هذا الصمت هو ما يفصل بين

الإنسان ومن يحب بسبب سوء الفهم، سوء الفهم الذي ينتج عن اختيار أحد الطريقين في كل علاقة، طريق أنا أحبك أو طريق أنا صديقك، الصمت مما هو ميؤوس منه هو أصعب أنواع الصمت، لقد حذرتِني من هذه الكلمة «أحبكِ»، منذ أيام اكتشفت أن والدي لم يعطِ لسوء الفهم فرصة في حياته، كان رواقيا أو أسدا من الأسود الليبية المشهورة بعدم ترددها، عندما أحب اعترف بهذا الحب، كان يريد الحب بكل ما فيه من ملل وشهوانية، الانتظار والاستماع يقتل زخم الحب، كان عليَّ أن أفعل ما فعله وأتحمل النتائج، أعتقد أنه لم يجلس إلى الطاولة ويستمع وينتظر الكلمات لكي يكتبها لأنه لا يتحمل مثل هذه الأرستقراطية، هل هذه الكلمات التي أكتبها الآن ناتجة عن الندم؟ لا، كان لابد من هذه الصداقة التي تؤطر الحب لكي يبقى ويستمر، بدونها التنافر الحميم لا يجد الفرصة ليصبح جوهر العلاقة، ربما تأخرت قليلا إذا كان هذا يرضي غرورك، ربما هذه الصداقة أخذت الكثير من الوقت، لكن تأخرت لأنكِ قلت الرد منذ زمن طويل، أردت أن أكون بقربكِ أطول فترة ممكنة، مهما يكن من أمر، أنا الآن على وشك فعل ما كنتِ تطالبين به طوال الوقت : وهو أن أكتب، ما الذي سوف أكتبه ؟ لا أدري إلى الآن، لكن لن أرفض مثل والدي مبدأ الكتابة الأساسي، سأجلس إلى الطاولة وأستمع وأنتظر، ربما والدي اكتشف هذا الاختلاف بيني وبينه ولهذا قال استثمر عزلتك، أعتقد أني سأكون قادرا على كتابة شيء، لأن الحب

يمنحنا القدرة على كتابة الأصوت غير المسموعة، أو القدرة على كتابة الصمت، هذا النوع من الكتابة يحتاج إلى عزلة بدائية أنا أعيشها الآن .

ما ينقص هذه العزلة التي أعيشها هو أنتِ، وأي كلمات تتحدث عن موت علاقتي بكِ تشوه فمي وتشوه هذه العزلة، عندما يقول فاليري:استمع إلى ما يُسمع عندما لا يسمع أي شيء، كان يقصد الجلوس بجانبكِ، في هذا المكان فقط أسمع ما يسمع عندما لا يسمع أي شيء، لا نتكلم لساعات ونحن لا يفصل بيننا سوى سمك ملابسي وملابسكِ، هذه هي العزلة التي أبحث عنها، عندما نمشي لساعات في غابة ولا يتفوه أيٌّ منا بحرف واحد، هذه هي العزلة التي أبحث عنها، عندما أنظر إليكِ وأنتِ ترقصين ولا وجود لموسيقى في المكان، هذه هي العزلة التي أبحث عنها، عزلة أسمع فيها كل ما لا يسمع في هذا العالم، في هذه العزلة أشعر أني أنا الصمت، دائما ما كنت أتبع خطواتك لأنها تزخرف عزلتنا بكل الألوان الممكنة، عندما تحتكُّ أظافرك بملابسي وتصدر ذاك الصوت الحميم أسمع دحرجة كرة الطين التي خلق منها الإنسان، العزلة ليست مكان الهروب من أخطاء نريد تجنبها، هذه عزلة جبانة وغريبة عن الحب، هذه هي عزلة الناسك، هذه عزلة الذي لا يحلم إلا بلقاء مع نفسه، العزلة المضيئة هي التي تتحمل كل الأخطاء التي لم نرتكبها بعد، العزلة

المضيئة هي التي أكون فيها معكِ دون الحاجة للقيام بأي شيء، فقط أنتِ والصمت الذي يغمر العالم بكلماته، لقد أحببتكِ يا بياتريس في كل لحظة، أحببتك ونحن نتسكع في متاهة العالم، أحببتكِ ونحن نتناقش بجدية عن ماركس، أحببتك وأنت تتحدثين إليَّ من خلف باب الحمام كي يستمر نقاشنا، أحببتك وأنت جالسة قرب النافذة صامتة لساعات طويلة، لم أكن أتوقع كل ما حدث، لم أتوقع أن أكون منفيا بعيدا عنكِ كل هذه المدة، هذا النفي هو وسيلتي لتبرير نسيانكِ لي كي أغفر لكِ، ربما من وجهة نظر البعض أن التفكير في العالم هو ما يهم، أنا لا أريد التفكير في العالم، كل ما أريده هو قضاء أمسية معكِ في شقتكِ الصغيرة، أتذكر الآن الجلسة التي قلت فيها أمامكِ أنا لا أتخيل أبدا أن أراكِ تلبسين فستانا، ضحكتِ وقلتِ من الجيد أنك لا تتخيل ذلك، أتذكر كيف جهزتِ لي هذه المفاجأة وظهرت أمامي بفستان وحذاء بكعب عالٍ، كنا قد حجزنا في حفلة موسيقية وانتظرتكِ أمام باب المسرح، وعندما نزلتِ من باب السيارة شعرت بأنه من الصعب على هذا العالم غريب الأطوار تجاهل كل هذا الجمال، في تلك اللحظة عرفت لماذا لا يحتاج النحت إلى خلفية، عرفت لماذا الحياة حزينة إلى هذه الدرجة، عرفت لماذا في العصور الرومانسية عندما يتزوج أرستقراطي من جميلة مثلكِ يختار برجاً ليعيش فيه معها، ليسمع كل نفس من أنفاسها في صمت البرج البعيد عن ضجيج العالم، عندما جلسنا وبدأ الحفل، ساد صمت

رهيب في القاعة، لكن أنا كنت معكِ في ذلك البرج، أسمع انفاسكِ وأسمع كل ما يقال عندما لا يسمع شيء، كيف لي أن أنسى فستانكِ الأحمر الذي لبسته خصيصا لي، كيف أنسى جمال شعركِ القصير الذي يتنفس الوجود، كيف لي أن أنسى كل هذه الرقة والأنوثة والحميمية، لن أنسى يا بياتريس حتى لو أصبح جدار المسافة بيننا سميكا بشكل متزايد، سأكون معزولا معكِ هنا وهذا يكفي، معزولاً مع صوت والدي وبياتريس دانتي، معزولاً مع الحب لكم جميعا والشعور بالفقد، لن تكون هذه العزلة سوى مقاومة للنسيان، لن تكون هذه العزلة إلا للسير في الطريق الثالث، سأفكر في المواعيد المؤجلة معكِ، سأفكر في الكتابة كانتصار على الحرب والموت والحرمان، سأجلس يا بياتريس إلى هذا المكتب وأنت بجانبي، أستمع وأنتظر أو لا أستمع ولا أنتظر، العالم سيأتي وأنزع عنه قناعه، و أجعله يعترف أمامكِ بكل ما حدث هنا وبعدها لا يهم إذا ما خسرنا ذلك البرج الأرستقراطي العالي .

نسيت طعم الأكل والنكهات وكل المذاقات التي أعرفها، كنت أفتح يوميا علبة فول وأتناولها مباشرة من العلبة بالملعقة، إلى جانب سلطة مكونة من خضراوات المزرعة الصغيرة، لم يعد المذاق أمرا مهما، رائحة الطعام هي ما يهم الآن، المهم أن لا تكون هناك رائحة تثير الاشمئزار، يقال إن الهضم الجيد يعتمد

على نوعية الطعام والنكهة، كل هذا لم يعد يهم، البقاء هو الأولوية في هذا الظروف التي أعيش فيها، كنت أقوم بعملية تنظيف حول قبر والدي يوميا، أعمل في المزرعة قبل الظهر، أما في المساء فأدخل إلى المكتب للقراءة والبحث عن الورقة والصورة، قال والدي إنه قد وضعها في كتاب، هذا يعني تفتيش كل كتاب في المكتبة التي تغطي كل الجدران، مكتبة والدي موضوع استثنائي، فقد جمعها بعناية فائقة ومن كل العواصم التي زارها، لطالما حاولت تقليده في هذا الأمر، وعرفت أن الوقت الذي احتاجه لجمع الكتب بطريقته طويل جدا، عندما أشعر بالتعب من البحث أضع الورق الأبيض والقلم أمامي وأجلس وأسمع وأنتظر، أيضا من خلال الجلوس أمام الورقة البيضاء تعلمت أن الكتابة ليست مغامرة بسيطة أبدا، هناك فرق بين الثرثرة مع والدي وكتابة حرف واحد، كيف كتب دانتي الكوميديا الإلهية، ياله من صبر ومثابرة لا نهائية، دانتي لم يكسب أي شيء من الكوميديا، لأن هناك من قال:الشرف والربح لا يجتمعان في نفس الحقيبة، والدي دائما ما كان يذكرني بأن الكاتب الجيد ليس الموهوب فقط، بل الذي يأخذ موضوع الكتابة على محمل الجد، وأنا جالس كنت أفكر في موضوع القارئ، هذا الكائن الذي ينظر إلى الورقة كمراقب موجود في كل لحظة، لكن وجوده ضروري، لابد أن تشعر بأنه يتجسس عليك ويتنصت على كلماتك غير المكتوبة، جميل وجوده بقدر ما هو خطير، في وجوده لا تشعر أنك تتحدث

مع نفسك، إذا كنت في هذه العزلة لا أستيطع الحصول على الآخر فعليَّ أن أجرب الحصول على العالم من خلال الكتابة، في بداية الكوميديا يقول دانتي:في منتصف طريق حياتنا*ألفيتُني في غابة مظلمة*لأن جادة الصواب كانت مفقودة. والدي قال:لا علاقة للغابة المظلمة بالذنوب والآثام، الغابة هي المكان الذي كان فيه دانتي قبل كتابة الكوميديا، دانتي في الكوميديا يتحدث عن الشخص الذي كان قبل دانتي الكاتب، يكتب كيف أصبح شخص يسمى دانتي قادراً على كتابة الكوميديا الإلهية، يجب أن نفرق بين الكاتب الذي كان يكتب ضمن شروط العصور الوسطى، وبين كاتب الكوميديا الإلهية، الأول بعيد عن الذات وعن التعبير الذاتي، الثاني ذاتي جدا ويكتب عما هو شخصي جدا، كانت هذه هي بداية الكاتب الحديث، الكاتب الذي ينظر إلى نفسه في المرآة فيرى المأساة الإنسانية . في صورة للمصور كيشين شينوياما يظهر يوكيو العاري والسيف مغروس في جنبه ورأسه قد ارتاح على صدره، لم يتحمل يوكيو النظر في المرآة، لقد كان معبود القراء في اليابان، ترجمت أعماله لجميع اللغات، دخل باريس ولندن ونيويورك من الباب الكبير ككاتب معروف ومشهور، لكن هذا كله لم يغير شيئاً في الصورة التي كان يراها في المرآة، كاتو لم يتحمل النظر في المرآة، لكن دانتي استطاع من خلال فيرجيل التفاوض مع الصورة في المرآة، استطاع المرور في المرآة من المحلمة إلى الرواية، فهمت الآن ما أرد والدي أن

أكتبه، عليَّ أن أكتب ما حدث هنا بكل تفاصيله الصغيرة، أنا في الغابة المظلمة، في منتصف العمر، الطريق إلى الكتابة لم تكن واضحة، لكن الآن أنا أنظر إليها وأعرف ما الذي أريده فعلا، مددت يدي إلى القلم ومسكته بقوة وكتبت:اعترافات دانتي، وأنا أكتب رأيت شبح والدي يظهر أمامي في الضوء الخافت للفتيلة، واقفا في وسط الغرفة بجسده الهش، يلقي نظرة على الكتب بمزاجه المعتدل، لم يكن نصف أعمى كما كان في نهاية حياته، بل ينظر بوضوح إلى كل عنوان من العناوين على الرفوف، شبحه يتوسع ويتحول إلى صفحات، الكلمات تجسد حزنه المهيب، الصفحات تقف في الهواء والكلمات تلهث مثل قناديل البحر، تقترب مني إلى مسافة تسمح بالشعور بالألفة معها، كانت الكلمات تسقط من الصفحات بطريقة جريئة جدا ومتواضعة جدا بنفس الطريقة التي تسقط بها كلمات والدي في قلبي.

عندما انتهيت من كتابة أول ثلاث صفحات خرجت إلى الفناء، جلست بجانب القبر، كنت أدخن آخر سيجارة موجودة معي، قلت وأنا أدخن ببطء:هل أنت سعيد بما يحدث؟ها أنا قد كتبت بعض الصفحات، وحيدا مع نفسي وأرتدي قناع الموت، أليست هذه هي الكتابة يا أبي؟مجرد نظر إلى المرآة تحت عيون الوحدة، ربما أنت أيضا تكتب الآن عن كوليت، ربما تكتب عن عناق مع ذكريات حميمة وموجعة، أنا وأنت في نفس الظروف،

كلانا وحيد بشكل عاطفي ومرعب، قبل وجودي معك هنا كنت أفكر دائما في الجانب المعرفي من الوحدة، لكن الآن تعلمت التفكير في الجانب العاطفي منها، التحديق في الفراغ، البحث عن الظلال والأشباح، البحث عن مرآة بحجم كفك الذي تجمع خطوطه كل هذه الوحشة، البحث عن مرآة تظهر فيها الحياة كبقعة تشبه الشمس لحظة غروبها، أشعر بشوق لا نهائي لك يا أبي، اشتقت إلى نظرتك التي تشبه الأزميل الذي ينحت صورتي في المرآة، اشتقت إلى سخريتك القاتمة من كل شيء، أنا مازلت في عزلتي مع الضباب والظلال، لا أعتقد أن لهذه العزلة نهاية يا أبي، وحدي وسط أنقاض الحرب، وسط البيوت المفتوحة على الصمت، وسط بقايا الأسلحة الكئيبة، لا أدري ما إذا كان الاتصال بالآخرين الآن يعطي وزنا للحياة أو يدعمها بأي شيء، لم تعد بنغازي تخفي شقوقها في قلبي، هي أيضا في تابوت لا ترى منه قوس قزح، أصبحت مدينة من الصلصال تشكلها الحرب كما تشاء، ضاعت في بنغازي قصص الحب، ضاعت الأحلام والنبؤات التي لا تخلو من مبالغة وطرافة، هي نفسها تنتظر رجوعها إلى الحياة بفارغ الصبر واليأس والسخرية، تنتظر رجوعها لتجمع بنايات بلا رؤوس ورؤوس بلا أجساد، أسمع الآن صوت نوال، تلك المرأة التي تغني في زنزانتها أثناء الحرب، أرى أطفالها في اللحظة التي ترمي بهم القابلة في النهر، هذا هو نهر خارون يا أبي، هذا هو الجحيم، للحرب منطق لا يرحم

يا أبي، بنغازي تغني لأطفالها مع نوال، لا يمكن للحرب أن تخطئ فهي تعرف جيدا ما يجب فعله، الكثير من القبور مثل هذا القبر، قبور أكثر كآبة وعزلة من قبرك اليتيم، هذا هو إبداع الحرب الغامض والمفرط في وحشيته، لم أخبرك يا أبي أنك يوم اخترت الكوميديا بعينك النبوية قد منحتني متعة سماع اسم بياتريس مرة أخرى، كأن بياتريس همست في أذنك كما همست بياتريس في أذن فيرجيل قائلة: كنتُ بين المعلقة أحوالهم*عندما لاحت لي سيدة فاتنة وسعيدة*فرجوتها أن تدلي بأوامرها*كانت عيناها أسطع من النجم، فكلمتني بهدوء ورقة، بصوت ملاك ولسانه:أيهذا الرجل المهذب الآتي من مانتوا، يا من لايزال مجده في العالم حيا، وسيدوم ما دام العالم*إن صديقي الحق، لا صديق الثروة، محاصر هناك، في الشاطئ القفر، الخوف يجعله يرتد على عقبيه مراراً عديدة*وأنا أخشى أن يكون تائها وأنني لم أفق، لإسعافه إلا بعد فوات الأوآن، لفرط ما تناهى إليَّ في السموات من شكواه*فلتمض ولتعنه بكلامك البالغ الفصاحة وبما يمكن أن يخدم في إنقاذه، فيتعزى قلبي*أنا بياتريس، أبتهل إليك أن تهب، أنا آتية من الموضع الذي أرغب في العودة إليه، إله الحب يبعثني ويهبني أن أتكلم*فإذا ما رجعت قرب مولاي، فسأطنب في امتداحك أمامه.ربما مرت بياتريس في حلم من أحلامك وسمعت صوتها الساحر، ربما طلبت منك إنقاذي من الجحيم الذي عشنا فيه، أنت كنت تقودني في طريق رسمتها أصابع ملاك، بدونك

الطريق مخيف ولا أحد فيه يعترف بعواطفه أو نقاط ضعفه، ليس كل الناس مثلك يتذوقون الطعم الحميم للروح عندما تكون عارية، تركت والدي وذهبت إلى السرير، كنت أنظر إلى سريره وأنا نائم على جنبي، عندما رأيت ابتسامة كبيرة على شفتيه، نزلت دمعة ماهرة من عيني إلى الوسادة، ابتسامة كلها راحة بعد الفرار من هذا العالم الكئيب، تذكرت فرحته الطفولية بالوجبات التي كنت أعدها له، ضحكته المؤثرة عندما أخبرته أني سأبحث له عن زوجة بعد خروجنا من هنا، حماسه لدانتي وبذل قصار جهده لكي أفهم الكوميديا جيدا، لقد كان زمن الحرب لحظة صغيرة من الروعة في وجودك يا أبي.

مر الشتاء وبعده الربيع وجاء الصيف بكل ما فيه من ضوء، كنت قد وجدت الورقة والصورة، كان من الغباء ألّا أذهب مباشرة إلى كتاب السير لبلوتارخ، وجدت الصورة مع الورقة في الجزء الثالث صفحة رقم 1457، في بداية الفصل الخاص بكاتو، كوليت جميلة حقا وأنيقة جدا، والدي شاب شرقي وسيم ببدلة أنيقة هو أيضا، كوليت تضع كوعها على كتفه وهي مبتسمة، أما هو فلم يخفِ نظرته الرواقية الجادة كالعادة، ما كان واضحا على هذا الوجه الجاد هو تعبير حميم عن الامتنان، في خلفية الصورة بحيرة واسعة وطيور بعيدة، نظرت إلى الصورة مرات كثيرة جدا، أما الورقة فلم أفتحها، لم أفكر في رفع الزلجة الضخمة وفتح

الباب تركته مغلقا مؤقتا، في هذه الفترة كنت أكتب على الطاولة في الفناء مقابلا قبر والدي، أجلس شبه عارٍ وأحيانا أكتب وفي أحيان أخرى أتكلم مع الدي، وهذا ما جعلني أشعر بأني قريب من لحظة جنوني، أصبحت مجرد كرة من الشعر، نحيف جدا وليس لدي أي طاقة إلا للكتابة، أعيش على حبة طماطم وخيارة في اليوم كله، كان الموت أو الجنون هو ما أكافح ضده في كل ثانية، العزلة أصبحت لينة والوحدة أصبحت مثل عندليب يقف على كتفي، المتاهة أصبحت جزءاً مني، لم أعد أزعج نفسي بالبحث عن مخرج، لقد وجدته في الورقة البيضاء والقلم، ولم أعد مهتما بالاشتباكات أو القذائف، كنت أشطب الحرب بقلمي في كل لحظة، وفي كل يوم كنت أكتب صفحات كثيرة، وأنا أكتب اكتشفت جوانب غير متوقعة من نفسي، اكتشفت أني كنت أكتب طوال الوقت، نعم لا أضع الكلمات على الورق، لكن أكتب بطريقة أخرى، الصمت هو نوع من الكتابة، وعندما تجلس وتستمع وتنتظر تكتب ما وراء الصمت، و العزلة مهمة لأنها تغلق قنوات انتباهك عن أي شيء آخر غير الكتابة، فهمت الآن كيف كان دانتي يكتب وهو يمشي، فهمت كيف كان بورخيس يكتب وهو لا يرى الورقة والقلم، كان بورخيس يجلس طول الوقت أمام الصفحة البيضاء التي تعلن تحدي الحزن والأبدية، كان معي شبح والدي وفي كل مرة يذهب فيها يترك باب القبر مواربا لتصله كلماتي، ومعي ابتسامة بياتريس التي دائما ما أتخيلها

عندما تسمع بأني أخيرا قد كتبت، في صباح يوم 6 يوليو 2017 سمعت ضجة في الخارج وتكبيراً، لم أكترث أبدا فقد تخليت عن التوتر بسبب الأصوات في الخارج، سجين أنا أو ميت نامت روحه خارج غرفة الصبر، لم يعد اهتزاز الغبار الرمادي يربك روحي، إذا كان الموت قادما فالأفضل أن يأتي مثل صمت ناعم أو إلهام جديد، كنت أعمل في الحقل شبه عار عندما أصبحت الأصوات قريبة أكثر، بعد قليل سمعت الأصوات في الفناء نفسه الذي كنت فيه، نظرت إلى يميني، كانوا إخوتي واقفين ينظرون إليَّ باستغراب شديد، أنا في تلك اللحظة شككت في بصري، ربما هو حلم يقظة حلمته في مساء جميل وأنا أعمل في الحقل، عدت للعمل كأني لم أرهم، بعدها شعرت بيد أخي الصغير على كتفي، التفتتُ نحوه وأنا أشعر بالاختناق، لا أريد أن التفت ولا أجده، لقد حدث هذا آلاف المرات مع شبح والدي، لكنه كان موجودا ودموعه تهطل كالمطر، لمس كتفي برقة مرة أخرى وقال:هذا أنا، لقد انتهى الأمر . نظرت ناحية القبر وكأني أطلب منه المساعدة:هل هذا هو فعلا؟هل أصدق ما يقول؟ بعدها كانوا في حلقة حولي يضمونني إليهم وهم يبكون، نظراتهم تنطوي على الكثير من الشفقة والحزن، كان قد مر عليَّ هنا 982 يوما ؛ أي ما يقارب ألف يوم، لقد شعرت أن الأمر غريب ومخيف وجعلني مشلول بشكل مفاجيء، أخرجوني من الحقل وأجلسوني على كرسي وهم يكررون: لقد انتهى الأمر، أعطاني أحدهم سيجارة وأشعلها لي

لا أذكر الآن أي واحد من إخوتي هو، تركوني وذهبوا ناحية القبر يقرؤون الفاتحة على روح أبي، رميت السيجارة وذهبت إلى الباب الأمامي فوجدته مفتوحا، خرجت ووقفت في منتصف الشارع وأنا شبه عارٍ، وصلوا بسرعة وعادوا بي إلى الداخل، ساعدوني في ارتداء ملابسي، كانوا يحاولون الخروج بي مسرعين، لكني عدت وأخذت كل الأوراق التي كتبتها من فوق المكتب ومعها هاتفي والكومبيوتر المحمول، ذهبت إلى قبر والدي ولمست تراب القبر براحة يدي، ذهبت بعدها إلى المكتب وأعدت المجلد الثالث من السير إلى مكانه، خرجت معهم وهم يمسكون بي كطفل كان ضائعا من أهله ووجدوه فجأة.

وأنا في السيارة كنت أنظر إلى حجم الدمار الذي خلفته الحرب، البيوت المهدمة، شوارع كاملة أصبحت مجرد ركام من التراب، تذكرت كلام هيدجر عن لوحة الحذاء لفان جوخ، لا أحد يفكر في حذائه، وأنت تلبس حذاءك لا تفكر فيه، لكن عندما يتمزق أو يضيع منك عندها فقط تعرف مدى أهميته، الحذاء كان يؤدي وظيفته في صمت، وفي اللحظة التي يختفي فيها نتذكر ملمسه ولونه ووزنه، لا أحد كان يفكر في الصابري، كان يحتوينا جميعا في صمت، في الوقت الذي كنا نثرثر فيه كان هو يسمع غناء البحر ومواويل الأموج القديمة، الآن تذكرنا وزن وملمس ولون الصابري في قلوبنا، جراحنا عميقة ولن تشفى حتى لو عاد السلفيوم

وظهر في قلب بنغازي، رغم السعادة بنهاية الحرب والقضاء على الإرهاب إلا أن الحسرة كانت في قلوب الناس أمرٌ لا يمكن وصفه، لقد شعر كل إنسان في هذا الحي باهتزاز وجوده، كانت الحرب خارج المجال المعتاد لخيالهم وحياتهم، والعالم توقف عن أن يكون مكاناً للعيش فقط، لقد أصبح مكانا للموت بكل أنواعه، إخوتي يثرثرون وأنا أنظر من خلف زجاج السيارة وتخيلت أثينا وهي تخرج من رأس زيوس، لكن هذه المرة لم تخلع ملابس الحرب، لقد اهتز الصابري وسقط كل ما فيه، شعرت أنني كنت في رحم أمي وقد ولدت الآن مع صرخة مؤلمة بسبب كل ما أراه من خراب، أصواتهم كانت تخترقني بلا رحمة، هذا التواصل من خلال الصوت يمزق وحدتي وصمتي، أين هي الإيماءة والنظرة، لقد اختفى الصمت الذي يشبه مكتبة قديمة عتيقة، أخبروني أن شقتي في وسط المدينة قد أصبحت ركاماً، لم أهتم كثيرا بالأمر، لقد أصبحت أن نفسي مجرد ركام من العزلة والأوهام التي تملأ خيالي، فجأة خطر على بالي جارنا، سألت عنه وأنا أرجو أن لا تعزز الإجابة هذا الألم الذي يقهر الحياة في داخلي، لكنهم أخبروني أنه وصل في تلك الليلة وسلم نفسه إلى الجيش وبعد يوم تم إطلاق سراحه، وعندما زار إخوتي أخبرهم أنه حزين لأنه تركني خلفه مع والدي، وحدثهم عن كل شيء حدث معنا في تلك الأيام، جارنا فعل ما خرج من أجله، ذهب إلى تركيا ومنها صعد على أحد قوارب الهجرة غير الشرعية إلى اليونان، وبعد أشهر قليلة

وصل كندا، هذا أول خبر جيد أسمعه منذ فترة طويلة، أخبروني أن سكان الصابري الملتزمين بحيهم والبحر انتشروا في كل مكان من بنغازي وضواحيها، يعيشون في بيوت مستأجرة أو مع الأقارب كضيوف، هذه كانت المأساة الحقيقية وأكبر كارثة عرفها سكان الصابري، عندما لا يكون الفضاء الذي تعيش فيه ملكك تصبح الحياة صعبة مع وهم الانصهار في مكان أنت ضيف فيه أو مجرد مستأجر من الممكن طرده أو استبداله بآخر في أي لحظة، عندما وصلت إلى البيت الذي استأجره أخي الكبير كانت الزغاريد تعلن وصولي، أما أنا فقد كنت أواصل الكفاح ضد فكرة الهروب من كل هذا والعودة إلى بيتنا في الصابري، كنت منفصلا عن كل ما يحدث من حولي، وأراهم كرسم غير واقعي لحقيقة من عالم آخر، أنظر إلى الوراء بين الحين والآخر لعلي أرى قبر والدي أو المزرعة الصغيرة، أنا منفصل عنهم لأن هناك خسارة داخل روحي لا يمكن تعويضها بسهولة، هناك هالة من العزلة والوحدة لا يمكن كسرها الآن وبهذه البساطة، نظراتهم التي فيها الكثير من الشفقة لم تكن تزعجني، فأنا أعاني من فيض من الحزن اللانهائي ولا أملك العزاء المناسب لكل ما حدث، جهزوا لي الحمام وتم استدعاء حلاق على وجه السرعة وبدأ إعداد الطعام بكل الأصناف والأشكال، كأن هذا كله يمكن أن يعوضني عن لحظة من اللحظات التي عشتها هناك، كأن في كل هذا سلوى عن معاناتي وألمي والإحساس بالموت، كان حماسهم عفوي ونقي

لكنه يشبه النفخ في الرماد، أنا لست هنا معكم، أنا في غياب مستمر وإعادة الروابط معكم تحتاج إلى وقت طويل، وإعادة الروابط مع العالم تحتاج إلى وقت أطول بكثير، لقد فقدت كل شيء، والدي وبياتريس والصابري وأنتم جميعا، ليس من السهل الخروج من المتاهة التي رسمتها الوحدة، هذه عملية صعبة وشاقة قد يكون حلها الوحيد هو الموت.

في المساء كانت العائلة وكل الأقارب موجودين، كان هناك ضجيج في داخل روحي لا يمكن احتماله، ضجيج أكبر من أصواتهم وثرثرتهم التي لا تنتهي، صعدت إلى السطح وجلست وحدي، كنت أريد التفكير في الشيء الذي فقدته في الصابري، ما الذي فقدته في داخلي ويجعلني حزيناً على فقده إلى هذه الدرجة، كل فكرة الفرح بالخروج من هناك والعودة إلى حياتي أصبح محكوما عليها بالفشل، هناك جزء مني لا يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن هذا الفقد، والدي، بياتريس، وفقد الشعور بالحياة نفسها، ربما كل هذا ما يجعلني أتنفس الآن في عمق حفرة الجحيم، كنت غريبا عن نفسي وعنهم وعن العالم، ما يجعل الحياة ممتعة هو الانتظار، هذا الانتظار الذي يكرهه الجميع هو نشوة الحياة وعمقها، أنا لا أنتظر شيئاً، لا شيء على الإطلاق في هذه اللحظة، وهذا هو المأساوي في الأمر، هذا ما يجعلنا لا مبالين بالحياة والناس والأشياء من حولنا، عندما ذهب الأقارب

أخبرتهم بأن هناك تسجيلاً من والدي لهم، وفي اللحظة التي جلسنا فيها لسماع كلماته ظهر في عيونهم خوف لم أفهم سببه، ربما خوفهم من تأنيبه وتوبيخه لهم، أو ربما خوف من أن يكون التسجيل فيه وصية ما لأحدهم، لم أكترث بكل هذا الذعر في عيونهم وحركاتهم، فتحت السماعة الخارجية وشغلت التسجيل، جاء صوت والدي ممتلئا بلهب الفتيلة والوحدة وهو يقول:أنا في أيامي الأخيرة، كنت أتمنى لو كنتم جميعا هنا بجانبي، لكن الأماني توفر صورة للسعادة لا جدوى منها، ما أريد قوله هو أن كل اختيار يقوم به الإنسان فيه شيء من النرجسية، ربما تنظرون إلى إصراري على البقاء هنا من هذه الزاوية، لكن أنا أنظر إليه كوداع أخير لهذا البيت وهذا الحي الشاحب في هذه الأيام، لا أتصور نفسي ضيفا ثقيلا على أحد أو مستأجرا لبيت في مكان لا أعرف كل حجر ونبتة فيه، هذا هو المكان الذي عشت فيه أقصى حدود الحياة والألفة والحميمية، ولا أعتقد أن الموت خارج هذه الجدران أمر يمكن أن أفكر فيه، لقد فعل أخوكم كل ما في وسعه لتكون الحياة أسهل في هذه العزلة، كانت تجربة تشبه العيش في متاهة ليس لها باب، لكن لم تكن كلها سلبية بشكل نهائي، لقد تعرفت على أخوكم من جديد وهذا أمر استثنائي، كنت أعتقد أني أعرفه جيدا، لكن أنا أعترف الآن أني لم أكن أعرفه إلا كابن وليس كشخص، كان الوجود معه فرصة لمعرفة ما لديه من عمق وحميمية يخفيها تحت ستار اللامبالاة بأي شيء، اكتشفت أنه

طباخ ماهر، لم أتخيل أن يكون أحد من أولادي طباخاً على هذا المستوى، ومحاور حزين وتملؤه الشفقة، و الأهم لديه ذوق أدبي رفيع، أعلم أنه يفكر فيَّ أنا كرواقي لا يمكن شفاؤه، لكن الحقيقة هي أنه أكثر رواقية مني، بل قد تكون هذه الرواقية مع حب الأدب هو ما ورثه مني، في النهاية أريدكم أن تكونوا عوناً لبعضكم البعض على هذه الحياة القاسية خاصة في هذه الأيام، ليس لدي ما أتركه لكم، لا مال ولا جاه ولا سلطان، كل ما أتركه لكم هو سمعتي ونظافة يدي، أما المكتبة فهي لأخيكم الذي عاش معي هنا وهو من يعرف قدرها، أتمنى أن تسمعوا كلماتي هذه وقد خرج من هنا سالما وبكامل صحته ليبدأ حياة جديدة، فقد عاش الجحيم هنا دون شكوى أو تذمر.

كانت كلماته تخلق حولها جواً من الأسى والحزن، كانت فيها لحظة غائبة وضائعة أو مفقودة سأظل أبحث عنها، كلماته لها طعم مادلين بروست المغموس في الشاي، كان كل ما يفعله أو يقوله ما هو إلا اعتراف لتطهير روحه، نعم لقد ورثت عنك هذا الحزن الرواقي الذي لا نهاية له، ورثت عنك عيش الحياة كما هي دون رغبة زائدة، ورثت عنك الشعور بحذائي قبل أن يضيع وأفتقد ملمسه ووزنه ولونه، أنا أيضا لم أكن أعرفك تمام المعرفة إلا كأب، وكم أنا سعيد بهذه الأيام التي عشنا فيها بعاطفة كبيرة ومجدنا فيها الحزن كثيرا، كم كنت محظوظا بسماع صوتك

وأنت تتحدث عن دانتي في رحلته التي هي في الحقيقة رحلتك أنت بالذات، وكم كنت مدهوشا وأنا أراك تضع الجبس على وجه العالم لتصنع قناع موته.

بعد هذا الاجتماع الصغير الذي يشبه الاجتماع قبل قرار بقائي في الصابري وصلت الكمبيوتر المحمول بالإنترنت، فتحت بريدي الإلكتروني، كانت مفاجأة أن أجد عشرات الرسائل من بياتريس، لم أكن أتوقع أن تبعث كل هذه الرسائل مع معرفتها أني لن أراها، كل ما فعلته هو نسخ آخر رسالة ووضعها على ملف وورد، في صباح اليوم التالي طلبت من أخي الأصغر سيارته وذهبت إلى بيتنا في الصابري، نزلت من السيارة أمام باب البيت ومعي الكمبيوتر المحمول، كأني عدت من مكان بعيد جدا، لم أكن متأكدا ما إذا كان الباب الذي أمامي هو باب الدخول إلى المتاهة أو الخروج منها، عندما دخلت شعرت بمعنى الألفة، لم أفكر في النور أو الظلام، فكرت فقط في التوق الأصيل لأن تكون وحدك، وفي نفس اللحظة فكرت في الإغراء الذي أشعر به لأن أكون مع شخص آخر، والدليل على شعوري بهذا الإغراء هو الخوف من قراءة رسالة بياتريس، الشعور بهذا التناقض هو بالتحديد ما يسمى الوقوع في الحب، الوقوع في المكان الذي لا ذاكرة فيه، لأنك عندما ترى هذا الشخص الذي وقعت في حبه لا يمكن أن تتذكر نفسك إلا معه، وضعت الجهاز على الطاولة في الفناء، ذهبت

إلى المكتبة وجلبت معي الورقة والصورة من كتاب السير، وضعتها بجانب الجهاز على الطاولة، نظفت المكان حول قبر والدي، لمست النباتات في المزرعة الصغيرة، جلست إلى الطاولة وفتحت الجهاز لقراءة آخر رسالة بياتريس، ظهرت كلماتها أمامي مباشرة:

هل أنت على قيد الحياة؟

الإجابة على هذا السؤال هو كل ما أفكر فيه منذ اليوم الذي انقطع فيه الاتصال بيننا، في كل الرسائل السابقة كنت أتكلم بعقل وحكمة، حاولت دائما أن أكوِّن للوراء خطوة أو خطوتين في علاقتي بك، هذا هو السبب وراء العقل البليد والحكمة الفارغة، أنا متعبة كثيرا يا عزيزي، متعبة لدرجة لا يمكن تصورها، هل تعلم لماذا؟لأني محبوسة معك هناك في ذلك البيت، منذ اللحظة التي قلت فيها إنك ستبقى مع والدك وأنا هناك، أسمع مثلك الرصاص والقذائف وأشم رائحة الحرائق، أتابع كل كلمة، كل خبر، كل صورة، لدرجة أني أصبحت مسجونة معك في المكان الذي تعيش فيه، لقد كنت قاسية معك، قاسية مع هذا الشخص الحميم والصامت، لا لشيء إلا بسبب أنانية عزلتي والخوف من تلاشيها، كان من حقك أن تعرف لماذا أخاف تلاشي هذه العزلة، أنا أعيش في عالم مصنوع من الذكريات، أنا مع والدي طول الوقت في البيت، في الجريدة، في الحديقة التي يطل عليها البيت، في الغابة التي علمني المشي فيها لساعات،

أخاف على هذه الذاكرة كثيرا، ليس فقط لأنها كل ما لدي، بل لأني أعتبر المحافظة على هذه الذكريات نوعاً من الوفاء له، ربما شعرت بالتحدي تجاه غيابه لهذا أنا أعيش مع الذكريات لتأكيد حضوره بشكل جذري، لا أعتقد أن أحدا يفضل العيش مع إنسان مثلي وضع الزمن في شكل صور وكلمات ودموع وضحكات معينة وبعدها توقف كل شيء، كنت مجبرة على التأخر خطوة أو اثنين للخلف، كنت مجبرة على دفعك بعيدا عني، مع أني أعلم جيدا أنك كنت الوحيد القادر على إرجاع الزمن إلى معناه الأصلي، أتذكر الآن ذلك المساء الذي كنا نقرأ فيه كتاباً على الفراش في شقتي وفي لحظة ما تغلب علينا النوم، عندما فتحت عيوني وجدتك قد استيقظت قبلي وتنظر إليَّ بطريقة عرفت منها أنك تحبني، لكن كان لديَّ رفيق هو العزلة، الناس تعتقد أن العزلة هي حرمان من الآخر، هذا غباء وكلام سطحي جدا، العزلة هي تحطيم الآخر بشكل مأساوي، عندما أختار عزلتي فهذا يعني أنني أختار تحطيمك دون قصد، لن أخفي عليك هناك لحظات كثيرة شككت فيها في مدى تعلّقي بهذه العزلة، عندما اشتريت ذلك الفستان والحذاء، عندما وضعت طلاء الأظافر وسرحت شعري بعناية، عرفت أن هناك خطراً وأنك تعود بي إلى الزمن الذي يعرفه الناس جميعا، عندما كنا نسير في الغابة وتتلامس أيدينا كنت أشعر بأن هناك زمناً لحكاية على وشك أن تولد، عندما أنظر إليك وأنت في المطبخ تفعل كل شيء بحب من أجلي كنت

أشعر أن عزلتي تتضاءل وتصبح أقل وضوحا، عندما أسرق النظر إليك وأنت تراقب أصابعي أشعر بأنها تريد أن تلمسك، كل هذا لم يحدث مع يوكيو الذي كان أكثر من مجرد صديق، بل كان ليصبح زوجي لو أنني قبلت بالعيش المريح في كلمة مبتذلة، لم يكن يوكيو سوى نوع آخر من العزلة المباشرة والحميمة، هروب من عزلة إلى عزلة، لكن في عزلة يوكيو تضامنٌ مع ما تريده الأسرة، أو مجرد قبلة صفراء على خد أمي وأخي الكبير، ما أود قوله تحديدا هو أنه في اليوم الذي انقطعت فيه الاتصالات دخلت في عزلة من نوع آخر، لقد بدأت الحكاية، بدأت في اللحظة التي رفضت فيها أنا الحكاية، تصور؟هل تصدق ذلك؟ربما في اللحظة التي قررت فيها أنت الهرب من الحكاية ومن حبي بالبقاء مع والدك، كانت الحكاية هنا قد بدأت، الزمن أصبح مرتبطاً بك أنت، زمن غيابك وزمن الانتظار، أصبحت أعد الأيام والساعات، كنت مرتاحة من هذا الأمر، أنا لا أنتظر أحدا، أنا لا أنتظر شيئا، وهذا يعني أني حرة من عبادة الوقت والخضوع له، لقد قاومت وحاولت وفي النهاية عرفت أن هذه المقاومة تسبب لي الحزن، الحزن بسبب عدم وجود شخص قادر على أن يمتصك بكل ما فيك وينخرط فيك كحكاية ويحبك، هذا مذهل ومثير للإعجاب حقا، هكذا عرفت أن وجود الإنسان مرتبط بوجوده في أحضان شخص له أذرع مرئية، ما لم أصرح به في كل الرسائل السابقة هو أني أحبك، أنا أحبك...، نعم أحبك وهذا أمر يجب أن أعيشه

في صمت هادئ أثناء غيابك، أنا هنا أنتظرك، أنتظر تلك النظرة التي استيقظت فوجدتها أمامي كمكان حميم يمكن أن أعيش فيه إلى الأبد، لا تفكر في أن تموت، أو أن تبقى هناك إلى الأبد لأن هذا يعني حرمانك مني يا أحمق، تعال أرجوك أنا في انتظارك ولن أكون إلا لك.

لا أدري ما يمكن أن نسمي الإحساس الذي شعرت به وأنا أقرأ آخر كلمه في هذه الرسالة، لقد نهضت من على الكرسي وذهب إلى وسط الفناء ورفعت يدي كما يفعل المنتصرون وصرخت بأعلى صوت، نعم، نعم، نعم هذا كل ما كنت أرجوه من العالم، كنت أنظر إلى قبر والدي وأنا أصرخ وأضحك مثل المجنون، بعدها ذهبت إلى قبر والدي ومددت يدي إلى القبر، عندما تلمس راحة يدي التراب أشعر بأنه هو أيضا يمد راحة يده لتلمس راحة يدي، عندما شعرت بأنه يسمعني قلت:أخيرا يا أبي سمعت هذه الكلمة منها، أعدك بألّا افشل هذه المرة، أعدك بأن أحبها كما أحببت أنت كوليت، و أحترمها كما احترمتَ أمي، لن أعطي مجالا للوحدة بأن تنتزعني منها، وألا أشعر بأنها تهديد لعزلتي كما أنني لن أكون تهديدا لعزلتها، لن أفشل هذه المرة أنا أعدك بذلك مرة أخرى، لقد فقد دانتي بياتريس عندما ماتت بياتريس عام 1289، وفعل مثلما فعلت أنت يا أبي، تزوج من امرأة لم يذكر اسمها أبدا، وكتب الكوميديا الإلهية فقط ليكون

مع بياتريس في عالم آخر بعيدا عن الكنيسة والإمبراطورية وفوضى العالم، لقد كنت تسير مع دانتي في الكامينو الخاص بك في وسط الغيوم الرمادية والرياح الباردة لتصل إلى كوليت، أنا لدي كامينو من نوع آخر في هذه الحياة، طريق فيه بياتريس في النهاية، لكن ليس كروح أو ملاك، بل كإنسان وله وجوده الكامل، لن يكون بيني وبينها نهر، بل ستكون معي على ضفة النهر، لن تمسك بقناع الموت، لأنها تخلصت من الزمن الأبدي الذي لا تنتظر فيه شخصا أو شيئا، لن أتوقف عن الكتابة وستكون أنت معي في هذه الطريق ممسكا بالشمعة التي أرى من خلال لهبها الأشياء أجمل بكثير مما هي عليه في الواقع، رجعت إلى الطاولة، أمسكت بالورقة المطوية منذ زمن بعيد، أخذت الولاعة وأشعلتها، نظرت إلى اللهب الحميم وقربته من الورقة، لم أتوقف عن النظر إليها إلى أن احترقت بالكامل، وضعت الصورة في جيب حقيبة الظهر الخاصة بي، أخذت كل ما يخصني في البيت وخرجت وأغلقت الباب خلفي، قدت السيارة إلى حيث الصيدلية على الطريق العام، في المكان الذي أخبرت فيه أخي بموت والدي تماما توقفت، أخرجت الهاتف وبحثت عن رقم بياتريس وعندما وجدته ضغطت على اتصال ووضعت الهاتف أمامي، في الوقت الذي كان فيه جرس هاتف بياتريس يرن هناك في بيروت كانت أصابع يدي اليمني تتحرك في راحة يدي اليسرى .